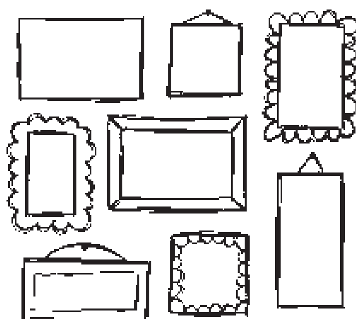
أطر من فراغ

عمرو عافية

رواية





أُطُر من فراغ

أُطُر من فراغ

تأليف: عمرو عافية

الطبعة الأولى: 2018
رقم الإيداع: 26342/2018
الترقيم الدولي: 9789773194741

الغلاف: جورج لطيف



60 شارع قصر العيني - 11451 - القاهرة
ت 27921943 - 27954529 فاكس 27947566
www.alarabipublishing.com.eg

أُطُـر من فـراغ

رواية

عمرو عافية



بطاقة فهرسة

عافية، عمرو

أطر من فراغ: رواية/ تأليف: عمرو عافية،

ط1 - القاهرة: العربي للنشر والتوزيع، 2018،

ص؛ سم.

تدمك 9789773194741

1- القصص العربية

ب- العنوان 813

إهداء

إلى **مها عافية**

التي عندما طارت صارت قمرًا

يعكس روحي حروفـًا على ورق

شتان بين وحشة العدم

ووحشة الشوق

توءمي الروح



“Huye luna, luna, luna.

Si vinieran los gitanos,

harían con tu corazón

collares y anillos blancos.”

"اهربي يا قمر

يا قمر

يا قمر

لو أتى الغجر

سيصنعون

من قلبك عقودًا

وخواتم بيضاء"..

لوركا

1



عندما يستعيد "شمس" اللحظات الآتية من المؤتمر في ذاكرته، التـي ستُشـوش كثـيرًا فيما بعد، سيدرك أنها كانت على الأرجح الطلقة التي غيَّرت كونه وعالمه إلى الأبد.

أغلقت عوالم وفتحت أخرى، حطمت أناسًا وبدلت أقدارًا. اللحظة التي حـاول فيهـا استرداد "قمر" من الموت، وقتل "هيام" التي لعب به حبه لهـا، ومحـو "سـها" في تـاريخ جسده. اللحظة التي يقف فيها في طابور طويل من المحبين الخاسرين.



أشار رئيس الجلسة من أعلى المنصة إلى فتاة في القاعة وقال:

- آخر سؤال حتى لا نرهق بروفيسور "هوكينج" أكثر من هذا.

وقفت الفتاة وكانت آسيوية الملامح بشعر أسود طويل منهدل وقامة متوسطة الطول وقد صغير، وقالت بصوت ضاحك:

- بروفيسور "هوكينج"، أعرف أنك قد تحدثت من قبل في هذا الموضوع، لكني أريد أن أسألك مرة أخرى. ما اعتقادك في الأديان؛ في وجود إله لكونك هذا؟

ثم أضافت وقد اتسعت ابتسامتها:

- في هذه المرة ساعدنا في الوصول إلى رأي ثابت. خاصة وقد بدأنا للتو القرن الجديد والألفية الجديدة.

أتى صوت البروفيسور "هوكينج" المعدني المنقول عبر الكمبيوتر بكلمات متقطعة آلية:

- هاها. كل واحد منا حر فيما يعتقد دون شك. ووجهة نظري أن أبسط تفسير هو أنه لا يوجد إله. العالم لم يُخلق ولا أحد يوجِّه مصيرنا. وهذا يقودني إلى إدراك أعمق: على الأرجح لا وجود لجنة أو لحياة بعد الموت. الجنة أسطورة ووهم لأناس يخافون الظلام. يهابون مجابهة العدم.

سكت البروفيسور لثوانٍ وأدرك المستمعون المنتبهون لكلامه أنه لم يكمل حديثه بعد وخيِّل لبعض منهم أنه سيقوم من عجز جسده الكلي وشلله التام، سيهب من كرسيه المعدني، فظلوا منتبهين لأي حركة أو نأمة ولو ضئيلة للكمبيوتر الذي ينقل صوته المعدني. وفعلًا أضاف البروفيسور:

- كل ما لنا هو هذه الحياة التي تجعلنا نقدِّر بشدة التصميم الرائع للكـون، ولهـذا أنا ممتن جدًّا. وهي تكفيني..

ثم، وكأن عينيه الزرقاوين تبرقان بشعاعٍ مشاكسٍ وضاحك، قال:

- فإذن أنا متدين بشكل آخر أو بحس آخر. ومهما كانت الحياة تبدو سـيئة، يجـب ألا نتوقف عن المحاولة؛ فمن المؤكد أننا سننجح في شيء ما. طالما وُجدت الحياة فهنـاك دائما أمل.

صمت البروفيسور "ستيفن هوكينج". للحظة، امتد الصمت للصالة كلها كأنها تتأمل الأمل المشع منه رغم عجزه ومرضه الذي شل كل عضلات جسده. هب رئـيس الجلسـة مصفقًا؛ فاستفاقت الصالة وضجت بالتصفيق وصيحات الإعجاب.

سمع الدكتور "شمس" من يقول خلفه:

- يا له من رجل!

فكَّر "شمس" أن بروفيسور هوكينج نفسه يكاد يتحوَّل إلى كليشيه الآن في منتديات العلم. التفت بطرف عينه فالتفت للخلف وراءنا للقائل فلمح يد امرأة شابَّة تضع عـلى حجرها كتابًا تركن عليه يدٌ ناعمة بيضاء بأظافر تامة الاعتناء بها.

هز دكتور "شمس" رأسه موافقًا، لكنه عندما عاد للنظر إلى المنصة، رأى بعين خيالـه اسم الكتاب فابتسم.. "شمسان".. كان اسم الكتاب.

قال رئيس الجلسة بعد أن هدأ التصفيق:

- هـذا الرجـل الـذي يحتـل مكانـة ألـبرت أينشـتاين ومـن قبلـه نيـوتن، وجـاليليو، وكوبرنيكوس، يشرفني وجوده معنا اليوم وهـو أفضـل ختـام لمؤتمرنـا. نشـكركم جميعًـا للحضور والانتظام به.

بدأ الحاضرون في الانصراف البطيء الهادئ بين همهمة سعيدة ونشطة. خرج معهم "شمس" فقابلته سماء لندن الرمادية الثقيلة. لم يعتـد قـطُّ عـلى تلبـدها رغـم سـنوات الدراسة التي أتم بها الدكتوراه منذ أكثر من عشر سنوات.

نظر إلى ساعته.. لا يزال أمامه وقت للمرور على صديقه دكتور "شريف" في مستشفى "هامرسميث". يهمه أكثر أن يقضي وقتًا أطـول مـع "شريـف". صـديقه الوحيـد مـن أيـام الكلية. هاجر "شريف" وزوجته عام 84 إلى إنجلترا بعد مرور سنة على التخـرج والامتيـاز. عـز اللقـاء منـذ فـترة ومـا أسـعده أن يتجـه الآن إليـه. ركـب مـترو الأنفـاق متجهًـا إلى المستشفى. اتصل به. رد مُرحبًا، ودعـاه للصـعود إلى المكتـب للرجـوع للبيـت معًـا. لكنـه صمَّم على انتظاره في مقهى قريب من المستشفى.

- هيًّا سريعًا إلى البيت لأن الدور عليَّ في طبخ غداء اليوم، حيث إن "جيهان" ستصل متأخرة من العمل. ستأكل من يدي. تعلمت الطهي الفترة التي قضيتها في مدينة "يارموث" وحيـدًا؛ "بـل إن طبيخي أصبح أفضل من طبيخها".

ثم أضاف ضاحكًا:

- تعلمت الطهي والأدب أيضًا.

ركبا سيارة "شريف" واتجها إلى بيته في "تشيزيك".

ثرثرا في ذكرياتهما القديمة خلال تحضير الطعام وكان "شمس" يحاول جاهدًا مساعدة صديقه. وما إن أكمل "شريف" تهيئة الأطباق حتى عادت "جيهان" إلى البيت من محطة القطار القريبة.

بعد طعام الغداء المتأخر، جلسوا يتناولون الشاي في حجرة المعيشة المطلة على حديقة المنزل. الجدران حمراء بطيخية داكنة ودافئة. لمح "شمس" ثلاث لوحات لسيف وانلي كانت في بيت والد شريف في الإسكندرية.

- ما أجمل لوحات وانلي. أتذكر أيام المذاكرة في بيتك في رشدي يا "شريف"؟

- يا لها من أيام.

ضحكت "جيهان" وقالت:

- ليل ونهار مذاكرة.

اعترض "شريف" قائلًا:

- لم يكن "شمس" يساعد على المذاكرة قطُّ. كل خمس دقائق يقطع تركيزي بمقطع من شعر فرنسي لا أفهم نصفه إلى أن أمِّل وأُسكته.

عبست "جيهان" وقالت:

- عجبًا، كنت أظن.. ألم تكن في مدرسة إنجليزية مثل "شريف"؟

هز "شمس" رأسه وقال:

- عندما نزحنا من بورسعيد إلى القاهرة بعد 67. التحقت بمدرسة إنجليزية وليست فرنسية لأكمل بها المرحلة الثانوية.

قال "شريف" ساخرًا:

- وهذا جعل عقله أكثر تشويشًا عمَّا هو أصلًا.

سألت "جيهان":

- لِمَ غيرت المدرسة؟

- صمَّم أبي على هذا لسببين: ملاحظته أنني أصبحت أكثر خجلًا وأرق مما يلزم. ربما كان طبعي هكذا، كما أن أوان الفرنسية يغرب في العالم كله، والعلوم كلها أصبحت إنجليزية اللغة. حصل لي اضطراب في أول الأمر لكن الأمور استقرت فيما بعد.

"شريف":

- لكنه ظل يقرفنا بالشعر الفرنسي، والأدب الفرنسي. كنت أقول له: ألا يكفيك حديثك مع والدتك وأختك قمر بها معظم الوقت؟ أرجوك لا تصدع أدمغتنا بهذا. ارحمنا.

"شمس":

- يا جاهل!

- أنا جاهل! أنا الوحيد الذي كان ينصت إلى هرائك.

ثم اتجه إلى "جيهان":

- بالكاد يعرف من كان معه في مبيت الطلبة الإنجليزية، وطبعًا لا أمل في الفرنسية على الإطلاق.

ضحكت "جيهان"، ورد شمس:

- ولا حتى لغة عربية وحياتك. قليل منهم من كان يجيد العربية، شيء مؤسف. كنت أخرج من مبنى العلوم وأذهب إلى المبنى الأدبي لأستمع إلى نص جميل يُقرأ لمعلقة لطرفة بن العبد أو امرئ القيس أو بيت جميل للبحتري أو المتنبي.

رفع شريف يده إشادة بـ"شمس"، وكأنه يفتخر بنفسه مع فخره بصديقه:

- منذ صغره يحب اللغات.

وافقت "جيهان" قائلة:

- نعم. تعمل معي طبيبة هندية تعرف سبع لغات على الأقل.

- كان أبي وأمي يهتمان كثيرًا باللغة العربية. لا تنسَ أن أمي كانت مدرسة لغة عربية وأبي ابن شيخ أزهري. وأظن أنهما كانا سعيدين لأن لولديها تأسيسًا فرنسيًّا، وإتمامًا إنجليزيًّا وحبًّا خاصًّا للعربية.

قالت "جيهان":

- في بعض الأحيان أشعر أنك و"شريف" مختلفان تمامًا.

ثم التفتت إلى "شمس" مبتسمة بمحبة وأكملت:

- أما أنت يا "شمس" فلا أتذكرك طالبًا في الكلية إلا وأنت غارق في الحب. أتذكرُ بعض الطلبة يأتون خصيصًا لرؤية "شمس" الولهان.

رد "شريف" بغرض إغاظة صديقه:

- لا، كانوا يأتون للتمتع برؤية هيام وجمالها.

ثم شعر فورًا بما اعترى "شمس" من ضيق لهذا الحديث فقال:

- دعنا من الحب. قل لنا ماذا عن هذا المؤتمر؟ نحن أطباء حقًّا ولكن ليس مثلك طبيبًا في اللاشيء.

ثم أكمل مقهقهًا:

- نحن نتعامل مع بشر ونسمع آلامهم وشكواهم، أمَّا أنت تسمع وشيش الإلكترونات وهذا العجب.

اتخذ "شمس" مظهرًا جادًا وبطريقة تعمد أن تكون تمثيلية إلى حد ما كي يخرج سريعًا عمَّا اعتراه من ضيق:

- هل سمعت يومًا عن "التأثير الشبحي" الذي تحدث عنه ألبرت أينشتاين؟

- وما دلالة كلمة "الشبحي" هذه؟

- حسنًا، ما رأيك بأنه يمكن لجسيمين غير متصلين بعضهما مع بعض برابطٍ مباشر، أن يكونا مرتبطين حتى ولو كانا على بعد مليارات السنين الضوئية. ولو راقبت واحدًا منهما هنا تستطيع أن تعرف ماذا يفعل الآخر هناك. وكل واحد فيهما يدور في فلك عكس الآخر، فلو دار هذا في اتجاه عقارب الساعة يدور الآخر في الاتجاه العكسي. كما أن الإلكترونات تغير طبيعتها حسب مراقبتك لها.

- يعني الرقابة البشرية تحدد ماذا يفعل الإلكترون؟!

- نعم، فلو راقبته تعرف مكانه ولو لم تراقبه ممكن أن يكون في كل مكان في الوقت نفسه. هايزنبرج يُسمى هذا مبدأ اللايقين. إمَّا أن تعرف مكان الإلكترون وإمَّا تعرف سرعته. وهناك تجربة أخرى تقول إنه حسب المراقبة يتغير مفهوم الشيء؛ فلو راقبت الإلكترون على أنه جُسيم يظهر لك كجُسيم ولو راقبته كطاقة يبدو لك كطاقة. أمَّا الجديد في المؤتمر، فهو التطبيقات الكثيرة للاستفادة من هذا في طب الفضاء والطب البشري. وكان ضمن الحاضرين د. أحمد زويل. ما زالت النوبل تلمع في عينيه.

أكملوا دردشتهم مسترجعين ذكريات جميلة مرت. وخاصة عندما اجتمعت عائلة "شمس" مع "شريف" و"جيهان" في لندن منذ سنوات طويلة عندما كان "شمس" يدرس الدكتوراه، وكانا يعملان في جنوب إنجلترا. جاءت أسرة "شمس"، والداه وأخته قمر إلى لندن وأقاموا جميعًا في شقة واسعة استأجروها في شارع "بيكر".

كان شريف يتجنب الإتيان بسيرة قمر قدر استطاعته. لكنه كاد يقلد طريقتها في النداء على "شمس" في دلال: "شاامس" التي تحولت مع الأيام إلى "شاااانس ما شاانسma chance " بلكنتها الفرنسية، وتمالك نفسه. وفي اللحظة نفسها، قالت "جيهان" شيئًا عن افتتاح محل جديد شيك بالقرب من منزلهما كان سيعجب "قمر" جدًّا.

ثم أردفت:

- قمر يرحمها الله.

أمَّن "شريف" وهمهم "شمس". كان يكره من يقول هذه الجملة رغم إحساسه بجمال الدعوة، هو نفسه كان يقول عن أي شخص تُوفي: يرحمه الله ويرحمنا معه. كانت لازمة عنده لذكر الموت. لكن (قمر الله يرحمها) كانت تضايقه بشدة كأنها تؤكد رحيلها الذي ينكره فؤاده تمامًا. يحمَّر خداه ويهمهم ويصمت. تذكر عندما ترملت جدته صار جده يُشار إليه بلقب الغالي: الغالي قال، الغالي فعل، الغالي.. حتى توفي ابنها فأصبح الغالي تدل على خاله، ابنها.. واستعاد جده اسمه حلمي.. حلمي كان يحب، حلمي كان يقول.. لكنه ليس قادرًا على إضفاء هذا اللقب الجميل على قمر. قمر الغالية، الغالية إلى الأبد. الغالية.

أحسَّ "شريف" بالغمامة التي عبرت عيني "شمس" فسأله مغيرًا مجرى الكلام:

- ألن تتزوج يا "شمس"؟

هز رأسه وابتسم.

"شريف" و"جيهان" محافظان إلى حد ما. لم يشأ أن يحكي لهما عن "سـها". لا يعتـبر علاقته بها زواجًا. أي نوع من العلاقة هي؟

قال:

- يعني.

نظر إليه "شريف" غير فاهم. فأكمل:

- يعني. نعتبرها زواجًا بشكل ما. تزوجت منـذ ثـلاث سـنوات. زواج حـديث، زواج مودرن. هي في القاهرة وأنا في الإسكندرية. نتلاقى كلما سنحت الفرصة.

تنحنح قليلًا:

- هي جارتنا في القاهرة. كانت صاحبة "قمر".

- مبروك.

بارك الزوجان معًا. زاد "شريف":

- حسنًا. من الرائع أنك اقتنعت بأن تكوِّن أسرة.

- لم يكـن في تفكـيري أن أكـوِّن أسرة مثلـك. لم أرغـب نهائيًّا في أن يكـون لي زوجـة وأولاد.

رمته جيهان بنظرة جانبية بها كثير من اللوم و قليل من السخرية وقالت:

- لكنك كنت أكبر هيمان في الدفعة وربما في الكلية كلها.

- نعم. طبعًا ساعتها لو انتهت الأمور بالزواج كنت سأكون أسعد إنسان في الدنيا. وكنت سأكوِّن أسرة دون شك، هذه هي طبيعة الأشياء.

ضحكت "جيهان" وقالت له:

- أتتذكر عندما حاصرتك "نيفين" و"هالة" في ركن كافيتريا كلية الأسنان كي تحثاك على التحدث مع "هيام" جديًا حتى لا تتلاعب بك أكثر.

أخذ نفسًا عميقًا. ورد قائلًا:

- كانتا غاضبتين.

قطَّبت "جيهان" وقد تذكرت كيف كان يبدو ساعتها:

- لأنك كنت كما الشبح في تلك الأيام. شاردًا على الدوام. لا ترى أيًّا من أصدقائك حتى ولو مررت بينهم.. عيناك مكدومتان كأنك تلقيت لكمة قوية. كنت كما المدمنين.

رد "شريف" وهو يناوله فنجان شاي آخر:

- كان إدمانًا فعلًا.

غمغم "شمس":

- كان حبًّا وليس إدمانًا.

تذكَّر دخوله كافيتريا كلية الأسنان وارتباك مجموعة أصدقاء بمجرد ظهوره في محاولة فاشلة لإخفاء مجموعة صور. ثم اكتشف أنها صور خطوبتها. لم تكن "هيام" موجودة، تركت معهم الصور للفرجة. مد يده كأنه أمر فناولته "نيفين" الصور بتوتر. شاهد الصور واحدة تلو الأخرى. أكثر من مائة صورة. انعزل عن العالم. صمت كل من حوله يراقبونه. ظل متمالكًا نفسه. يعتقد أن قلبه قد توقَّف ساعتها مثل كل ساعات العالم. اختفى الزمن وتلاشت الحركة سوى حركة يده وهي تضع صورة وراء الأخرى. وقرب نهاية المجموعة، ردد أكثر من مرة: "المكياج لا يناسبها. هي أحلى دونه بلا شك. لمَ أخفت جمالها بهذه الألوان الزائدة. هي أجمل". مما دفع "نيفين" أن ترد بحدة: "لا. مكياجها رائع. ويليق لها". كانت نيفين تظن أنه يقول هذا غيظًا. لكنه للحق كان في مرحلة انعدام شعور. كأنه لا يفهم أن خطوبتها تعني شيئًا له. كان يعلق فقط على المكياج الذي يحول الجمال إلى عروسة حلاوة. ظل ممسكًا بآخر صورة لفترة حتى رفعت "نيفين" يدها لأخذ الصور منه. استدار ببطء تاركًا المجموعة في صمت واتجه إلى داخل الكلية. ثم اكتشف بعد عدة خطوات أنه لم يرَ العريس. أكثر من مائة صورة لم يلمح فيها العريس، بالطبع كان موجودًا، لكنه لم يره. أراد أن يعرف شكله، فاستدار للرجوع للنظر مرة أخرى للصور لكنه تمالك نفسه. لو رأى الصور ألف مرة فلن يرى سواها. هو يعلم هذا.

كان هذا في نهاية السنة الأخيرة في الكلية في انتظار نتيجة الامتحانات. كله راح.

أفاق من شروده و"جيهان" تقول له:

- أتتذكر عندما دخلنا فيلم "بيردي"Birdy معًا سنة 84.

- نعم كان فيلمًا جميلًا جدًّا.

قال "شريف":

- فيلم The End of the Affair في السينما المجاورة. ما رأيكما نشاهده معًا؟

رحَّب الصديقان بالفكرة وزاد "شمس":

- يعجبني تمثيل جوليان موور.

أدخلت "جيهان" ابنها الصغير للنوم، وسهروا يشاهدون الفيلم.

وظل اسم الفيلم يتردد في عقل "شمس".. نهاية العلاقة.. نهاية العلاقة.



ليل بارد وقلوب دافئة. خمسة من الأصدقاء. فيهم "شمس" وصديقه الحميم "شريف" على مدخل سينما أمير بالإسكندرية. نوفمبر 1978. يعاد عرض فيلم (روميو وجوليت) للمخرج "زيفاريللي" بمناسبة مرور عشر

سنوات على إنتاجه. يظهر الاعلان الكبير على سينما أمير: "جوليت" في حضن "روميو". كان الذهاب للسينما اقتراح "شمس". كان قد قرأها من قبل ورأى في برنامج نادي السينما النسخة القديمة التي نالت منه ومن قمر أخته سخرية، حيث أسموه "أنكل" "روميو" و"طنط" جوليت لكبر سن الممثلين. عندما رأى الأفيش وشعر "جوليت" الجميل مفروش على جسد روميو العاري، أحس بقربه من هذه الصورة عمرًا وقصة فقد كان في قمة غرامه بـ"هيام". جلسوا متجاورين في البلكون المهول لصالة العرض. في فترة إعلانات الأفلام الجديدة، كان كوع شريف في جانب "شمس" يلكزه كل فترة ليعلق على جمال ممثلة أو على مشهد صور جيد. لكن روح "شمس" كانت في عالم آخر. كان يفكر في الجميلة التي أعطى لها شريط الكاسيت الذي اشتراه قريبًا من محل يسجل ما جد في عالم الموسيقى. كان الشريط مبهمًا غير كلمة واحدة كتبت عليه. "بوني". سأل صاحب محل التسجيلات من هو "بوني" هذا، قال هذا مثل "كلايدرمان" و"جميس لاست" يوزع الألحان المشهورة. وعندما عاد إلى المبيت واستمع إليه، فوجئ بلحن في منتصف الوجه الثاني للشريط. يبدأ رقيقًا ثم بعد عدة نغمات، يدخل الجيتار رائعًا فيتهيأ لـ"شمس" سماع اسم هيام. كأن الجيتار يردد اسمها ملتاعًا. لم يجد عليًّا زميله في الغرفة فهرول إلى بيت "شريف" ليقول له رأيه. "اسمع هنا.. هنا يقول الجيتار "هيام"، "هيام". سمعت الرقة والجمال؟". أجابه "شريف" الذي لم يكن جمال "هيام" يعجبه وكان يسخر من "شمس" لحبه لها ويقول له إنها مثل التماثيل. ويسخر من صورة للإمبراطورة فوزية قد وضعها "شمس" في غرفته. وأخرى صغيرة لها في كراسة المحاضرات التي كانت تصاحبه للكلية.

- لم أسمع شيئًا.

وعندما ألح عليه "شمس" مرة أخرى وأعادا سماع المقطوعة هز رأسه في استهزاء وقال:

- ليس بالضرورة يقول "هيام".. من الممكن أن يقول الجيتار أي اسم. "جلال" مثلًا، "سناء"، "سوزان"، "ريهام".. لا أفهم ما الذي يعجبك في هذه الفوزية.

اغتاظ "شمس" منه فما كان منه ألا أن سخر هو الآخر من صورة أميرة موناكو كارولين التي كان "شريف" يضع صورتها أمامه ويقول هذه عروستي دون شك. فيرد "شمس": "اتنيل أنت وهي. لا حرام هي". يرد "شريف": "اسم الله على الإمبراطورة". فعايره "شمس" ضاحكًا أن أستاذ "طمان" في الكونسرفاتوار، عندما انتاب كليهما هوس تعلم الجيتار في إعدادي كلية، وبعد شهرين من بداية الدورة لم يقبل أن يستمر معه لأن أذنه غير موسيقية على الإطلاق. ضحك "شريف" وقال: "صحيح لا أملك أذنًا موسيقية. لكنك تعزف على البيانو وهذا ساعدك. مهما فعلت لا يقول اللحن "هيام" لكنه يقول: باذنجان "شمس" باذنجان".

ويظل السجال بينهما حتى يضجان بالضحك.

وفي اليوم التالي تسلل لمحاضرة تحضرها هيام قبل أن تبدأ في مدرج الهيستولوجي. كانت تجلس في طرف التخت الخشبي الطويل. انحنى بجوارها وقال وهو يناولها الشريط: "ضعي الوجه الثاني واستمعي

للمقطوعة التى أوقفتُ الشريط عليها".. ثم بصوت يكاد ينحشر في روحه: "الجيتار يقول هيام.. هيام. يناديكِ". ثم اعتدل واقفًا ونظر في عينيها الجميلتين. كانت تبتسم في خجل وقد احمر وجهها قليلًا ومدت يدها تتناول الشريط. يدها جميلة رقيقة بيضاء تكاد تضيء. وأصابعها الطويلة الرشيقة وأناملها الدقيقة الباردة. وأظافرها المعتنى بها جيدًا بطلائها الأحمر الذي يزيد من جمال وشحوب يديها. وحركة اليد الممتدة كأنها تمنح ولا تأخذ.

وفي السينما يكتشف "شمس" أن الموسيقى التصويرية التي تمتعه والمُؤلَّفة على شكل موسيقي عصر النهضة؛ تيمة الحب الرئيسية بين روميو وجوليت هي المقطوعة نفسها التي سمعها موزعة بطريقة أخرى وينطق الجيتار فيها باسم حبيبته. كلما كان أي من الحبيبين ينطق بسطر حب وغرام كانت الدموع تنهمر من عينيه حتى انتبه له "شريف" فلكزه قائلًا: "ما لهما العاشقان؟ لماذا تبكي؟". لم يكن أي من أصحابه بما فيهم "شريف" يعرف نهاية "روميو وجوليت". فكانت كلمات الحب بالنسبة إليه طعنات. ولولا يقينه أن "هيام" له دون شك لكان مات من حزنه وهمه في السينما. هذا اليقين الذي أضحكه فيما بعد عندما تباعدت الفرصة للوصل واللقاء والحب. لم ينسَ "شريف" هذا اليوم، نظر إلى "شمس" كأنه يلومه على هذا الفيلم النكد. وحكى لـ"جيهان" عن هذه الليلة بسخرية، وفي الوقت نفسه، بحبٍ لصديقه "شمس" الذي يختلف عنه كثيراً؛ خصوصًا في رومانسيته البلهاء كما قال لزوجته: "مشاعر "شمس" لـ"هيام" تتوازى مع أحداث الفيلم. المضحك أنه لم يكن يحمل منديلًا فشتت انتباهي

بدموعه فناولته منديلي. ثم قلت له بغيظ بعد انتهاء الفيلم: ألا تنزل أبدًا إلى أرض الواقع؟".

وبعد سنين في نيويورك، عندما حضر "شمس" أوبرا "روميو وجوليت" على مسرح المتروبوليتان، تذكّر شعوره في أثناء عرض الفيلم، لكنه كان وحيدًا؛ لا "شريف" جانبه يناوله منديلًا أو يؤاخذه على سخف غرامه.

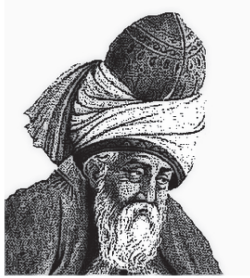
المضحك في الأمر، عندما شاهد الفيلم نفسه مرة أخرى بعد عدة سنين، سخر من نفسه بشدة وفكّر: "إذا كان "وليزلي هاورد" و"نورما شيرر" في نسخة الفيلم القديمة هما "أنكل" "روميو" وطنط "جوليت"، فبطلا فيلم "زيفاريللي" هما صبي أرعن وبنت خرقاء. وهكذا هي الحياة".



في السينما، كان تأثير المقطوعة الموسيقية عليه أكبر؛ حيث الصوت مجسَّم والتماهي التام مع الأبطال. التيمة الأساسية هي اللحن الذي يقول هيام. وفيما بعد، عندما سمع كلمات الأغنية التي وُضعت على اللحن، حفِظها..(A time for us) نعم هذا وقت لنا يا حبيبة القلب يا موحشتي الجميلة. هذا زماننا.

ولكن الزمان كان له رأي آخر.

2



أوصله "شريف" إلى المطار صباحًا مودعًا إياه بعناق دافئ على وعد بلقاء قريب في مصر. وكعادته في كل مطار، يذهب إلى المكتبة لشراء كتاب للقراءة في أثناء الرحلة. يختار عادة رواية أو قصصًا قصيرة في مجال الخيال العلمي.

اتجه لأرفف الكتب العلمية التي غالبًا ما تكون هذه المجموعة من الكتب في مكان مجاور لها. مر سريعًا على أسماء الكتب. كثير منها كلاسيكيات قرأه من قبل لفطاحل مثل "إسحق عظيموف" و"راي برادلي". لا يحب أن يعيد قراءة الكتاب نفسه إلا فيما ندر. ورغم أن المكتبة لم تكن طبعًا بحجم فرعها الأساسي في العاصمة؛ لكن الكتب كانت متنوعة. لفت نظره كتابٌ على كعبه صورة شمسين. وللتو تذكر الكتاب الذي كان تحت اليد الجميلة في محاضرة بروفيسور "هوكينج". لون الغلاف نفسه. اقترب منه وتناوله.

اسمه "شمسان". ضحك ثم تذكر أخته وانتابته موجة حزن مفاجئة وعاتية انتهت لما بلع ريقه وأخذ نفسًا طويلًا طويلًا وكتمه للحظات. استجمع نفسه ثانية وبدأ يقرأ المكتوب على غلاف الكتاب. تصوَّر أنه عن الظاهرة التي اجتاحت العالم منذ فترة قصيرة عن وهم رؤية شمسين في السماء أو ربما عن مجموعة كبلر 47 التي بها شمسان. لكن ما أن لمح على الظهر صورة درويش حتى آلمه قلبه مرة أخرى، وبدأ في القراءة فاكتشف أنه ترجمة لبعض رباعيات وغزليات جلال الدين الرومي. ملأه حنق، أصبح يمقت كتب الصوفية بأنواعها بعد غرام دام طويلًا. يكره من يمسك بكتاب ثم لا يرجعه لمكانه أو حتى إلى الطاولة التي يجب أن يترك عليها الكتاب المتصفح. ما الذي حشر كتابًا عن الشعر وسط الكتب والروايات العلمية؟ ثم فار غضبه أكثر عندما تذكر أن سيدة من الحاضرين في مؤتمر علمي كانت تمسك بهذا الكتاب. ثم هلت صورة أخته تخايله للحظة فبدأ الدم يتدفق إلى خديه بشدة. أمسك بالكتاب كي يرجعه إلى مكانه وهو يلعن الموضات التي تغزو العالم في الطب والعلم والملابس وحتى الأدب. هوس العالم كله في مطلع القرن العشرين بعمر الخيام بعد أن تمت ترجمته إلى الإنجليزية بواسطة "فيتز جيرالد"، وها هو في بداية القرن الجديد، بل الألفية الجديدة، ينتابه الهوس بجلال الدين الرومي، ربما كان هذا الكتاب المئة الذي يراه عنه. يمسك بغضب الكتاب كأنه يصب عليه إحباطه من كلام شريف وجيهان، ألمه من أخته، مللـه المكتوم من علاقته بـ"سها". وفي غمرة انشغاله بعد أن سار أربع خمس خطوات تجاه اللاشيء مضمرًا إرجاع الكتاب المارق لمكانه أو وضعه على المنضدة التي تتوسط المكان، نسيه وتناول كتابًا جديدًا عن نظرية ميكانيكا الكم ورواية لكاتب لم يقرأ له من

قبل، ومجموعة قصصية لعدة كتاب جدد. اتجه إلى الخزينة، سلمها للعاملة، دفع القيمة وخرج إلى الممر ناظرًا إلى ساعته، أمامه ساعة أخرى حتى موعد الطائرة. اتجه إلى الكافيتريا لتناول كابتشينو وكرواسون لأنه شعر فجأة بجوع غير مبرر رغم تناول إفطاره مع "شريف". يشعر بخواء في معدته يتطلب مشروبًا دافئًا وطعامًا ساخنًا. وضع كيس الكتب جواره ومد يده وسحب كتابًا كي يتصفحه وفوجئ بوجود "شمسان" وأدرك شروده وسهوه. فانتابه إحساس بالقدرية وأن الكتاب بقوانين ملزمة قد وصل إليه وكان يجب أن يصل إليه. تصفحه دون اهتمام لكن في استسلام هذه المرة بلا حنق ولا سخرية، مرت عينه على الشعر دون أن يقرأه.

أرجعه مرة أخرى إلى الكيس وأخرج الرواية التي تعتمد أساسًا على معادلة رياضية. وبدأ في القراءة. ظل يقرأ حتى أعلن عن طائرته في الشاشة أمامه. وقف بتمهل وبدأ في الاتجاه نحو البوابة المعلن عنها.

في الطائرة أمسك مرة أخرى بكتاب "شمسان" وقرأ ما على الغلاف.

What a day today.

There are two Suns rising... !

What a day

Not like any other day.

LOOK..!

The Light is shining in your HEART...

The wheel of life has stopped.

O you"

who can see

into your own HEART...

What a day,

This is your day./ - Two Suns a Day, Rumi.

"شمسان في صباح واحد"

"يا له من صباح هذا اليوم

ففيه تشرق شمسان!

يا له من يوم

ليس كأي يوم

انظر

يشع الضياء في قلبك

قد وقفت عجلة الحياة.

يا أنت!

يا من تستطيع أن ترى خلال قلبك

يا له من يوم

إنه يومك أنت".. - الرومي

بدأ في قراءة المقدمة التي تحكي عن الرومي وعلاقته بـ"شمس". فكَّر: لِمَ يدور الدراويش في عكس اتجاه عقارب الساعة، أم تُرى.. العكس، لِمَ تدور عقارب الساعة عكس الدراويش؟

يغفو وقد بدأ يدور ويلف مرددًا مقاطع لا يذكرها. لكنه رغم اندماجه التام فيما يرتله، كان مخه يشتغل بعنف لأنه لا يستطيع أن يخمن تمامًا هل يدور في اتجاه عقارب الساعة أم العكس؟



3



الرجوع للضياء، للشمس بعد أيام أحس أنها طالت في مدينة ضبابية تاه فيها. شعوره الآني بالشمس يسعده، كأن الغيام قد قرب أن ينقشع. فوضى وزحام وعرق. كلها حجاب يزيل الحجب الأخرى. نزل من الطائرة متلهفًا الرجوع إلى الإسكندرية، فرغم السنوات التي قضاها في القاهرة بعد هجرتهم من بورسعيد بعد النكسة، لكنه يكن للإسكندرية الحب الحقيقي. لم يكن لينزل القاهرة إلا لزيارة أمه في بيت المسنين التي صممت أن تنتقل إليه بعد رحيل قمر. يتصل بـ"سها" ويقول لها إنه لن يستطيع أن يمر عليها في القاهرة.

في القطار، تجلس أمامه فتاتان يافعتان. كانت الأولى تقرأ رواية والثانية تضع سماعات تستمع إلى شيء ما. عند رؤية أي كتاب لا يستطيع أن يمنع عينه من أن تدقق في الاسم. "الحب في زمن الكوليرا". قرأها منذ فترة طويلة. ملت الفتاة من القراءة ووضعت الكتاب على حجرها. ثم

استكانت للهدوء والشرود. تشاغل عن الفتاة لكن انتبه لها بعد فترة عندما التفتت إليه وسألته إن كان من الإسكندرية؟ فأجاب إنه من مدن عدة، لكنه يعيش معظم وقتـه في الإسكندرية الآن.

- هل لك أن تدلني على هذا العنوان؟

وذكرته له.. اسم شركة وعنوانها.

- سهل جدًّا.

وصف لها طريقة الوصول. فحكت له سـبب زيارتهـا لهـذه الشركـة وبـدأت حـديثًا طويلًا يبدد قلقها عن الوظيفة التي تتقدم لها. ولما توقف سيل الكلام سألها مجاملًا عمّا تقرأ. وقال إنه قرأها منذ فترة.

ويبدو أن الفتاة الأخرى لمحت اسم الرواية فأزاحت السماعات عن أذنيها والتفت للفتـاة الأخرى واشتبكت معها في حوار عن الرواية والحب:

- أنا غير مقتنعة بأن يظل البطل يحب حبيبته التي لم يرتبط بها طوال هذا العمر.

- في رأيك يجب أن يموت البطل مبكرًا كي يعيش حبهما؟

- نعم.. لا.. أعرف أن الحب لا يموت.. ولكن هل من الممكـن أن يظـل يحبهـا طـول عمره وهي لا تحبه؟ غريب.

وأكملت ببعض الغضب:

- يظل طوال الوقت يحبها! هذا ليس عصرنا. كأن دنيا البطل ليس فيها سوى محاولة الوصول لهدفه، أي الوصال مع حبيبته.

- أنت تناقضين نفسك. تقولين الحب لا يموت ولكن لو عاش الأبطال ينتهي ويموت؟

- هل يوجد من يستطيع أن يحبني هكذا؟

لم يشأ أن يتدخل في حوارهما؛ فظل صامتًا يستمع إليهما. قالت الأولى:

- أعرف أصدقاء كثيرين ظنوا أن حبهم لن يموت أبدًا. والكل انتهى بالطلاق رغم الحب. الحياة صعبة والمحافظة عليه تتطلب شقاءً لا حد له.

تنهدت وأكملت:

- رغم جمال الحب.

نظرت الفتاة الأولى إليه ثم وكأنها تستشيره:

- ما رأيك أنت يا أستاذي بما أنك قد قرأت الرواية؟ قال مبتسمًا لها وكأنه يشرح نظرية معقدة لطلبته:

- لولا الزمن وحب الجمال والضياء لظل الماس في مكانه مجرد كربون أسود مضغوط لا يمسه ماس ولا يحسه حاس.

انتبهت ذات السماعات وقد اتسعت عيناها ونظرت إلى الأخرى بنظرة تقول لِمَ سألتِ هذا الكهل المجنون عن الحب. انشغلتا عنه وظلتا تتناقشان حتى وصل القطار إلى محطة سيدي جابر.

قرر أن ينزل في محطة مصر كي يكمل الاستماع إلى حوارهما. وما أن وضع قدمه خارج محطة القطار حتى انتابته حالة مبهمة، خليط من الروائح، ميَّز منها رائحة قديمة حائرة في ذاكرته ربما رائحة زهرة المانوليا، ثم ما لبثت أن اختفت. ودَّع الفتاة التي شكرته وانسلت سريعًا مع صديقتها كي تلحق ميعادها. يحمل حقيبة يده وكيس الكتب وشنطة سفره.

يشير إلى سيارة أجرة ويستقلها. زحام لا معقول. لكنَّ بالأمر شيئًا مختلفًا. هذا شعور لا يدرك كنهه. ما المتغير؟ كلما اقترب من المعرفة تهرب منه. فعل مثلما كان يفعل أيام المذاكرة، أغمض عينيه كي يزيد من تركيزه، محاولًا أن يفصل روحه رويدًا رويدًا عن العالم حوله، ينقي إحساسه أو بالأحرى حواسه كلها، كي يجعلها تطير فترى أفضل. فلا رؤية ولا سمع قدر الإمكان، وبرودة في الجلد كأنها خرجت إلى أعلى طبقة من الغلاف الجوي. هذه الروح المنطلقة تشعر بالتغييرات دون شك لكن بطريقة مختلفة، تستقبل الأشياء بطريقة أبسط وأوضح، ربما ببطء أكثر لكن في عالمها لا معنى للوقت. وبالتدريج بدأ يسبر هذا التغير. الألوان.. الألوان أكثر سطوعًا.. الألوان لها طيف مختلف، وغير معقول. عقله يبرر له؛ جئت من بلد مضبب إلي بلد مشمس، فلا تغرن نفسك. لكن لا! البحر الذي لمحه من بعيد. وجوه الناس بها لمسة من الأزرق. ليس أزرق الموت ولكن أزرق مختلف كأن بيكاسو يكتشف نفسه من جديد.

قال سائق التاكسي متأففًا:

- الزحام يخنق.

أفاق من خياله ورجعت له الروح الشاردة.

- لِمَ؟

سأل دون أن يفكر. أجاب سائق التاكسي:

- أظن إما أنهم يغيرون ماسورة الصرف أمام المدرسة اليوناني في سوتر. وإما لأن المرور قد حُوِّل من شارع بورسعيد حيث يقيمون مكتبة الإسكندرية الجديدة إلى شارع الترام.

زاد الحر عن حده رغم الخريف، والشمس أقرب لسعير الآن. يغمض عينيه مرة أخرى ويسترجع ضباب لندن وحديثه مع شريف وجيهان. يتذكَّر علاقاته السابقة الخائبة، حتى علاقته مع سها. كله فانٍ. وكل من عليها فانٍ. فان. فان جوخ. يفتح عينيه وهو يضحك. يلتفت إليه سائق التاكسي مندهشًا فيقول معتذرًا بلا سبب:

- تذكرتُ صديقًا لي.

بادره السائق:

- الحياة كلها في حد ذاتها مضحكة يا فندم.

رغم شروده يجد أن لديه رغبة في الكلام:

- هل سمعت عن التشابك الكمي؟

التفت إليه السائق مندهشًا، ظن أنه يشتكي من شيء ما، ثم هز رأسه نافيًا.. لا. ثـم قال وقد أثاره سائق سيارة جواره كسر عليه.

- أنا لا أفهم إلا في تشابك السيارات التي لا تنتهي. توقف المرور تمامًا الآن.

شرد "شمس" في علاقته الهشة بسها. كان يجب أن يصطحبها معه للمـؤتمر، محـاولًا جعل العلاقة أكثر تماسكًا. يدعمها ليس عن رغبـة حقيقيـة منـه لكـن عـن التـزام. لقـد أصبح ثقيلًا ميتًا معها، وربما كان هـذا شـعورها منـذ زمـن طويـل. مـا ذنبهـا أن روحـه ماتت. الجزء الإنساني فيه كان يحاول أن يعدل المعادلة ويساويها حتـى ولـو وَضـعَ لهـا ثابتًا شكليًا مثلما تضبط المعادلات، مثل ط في ط نق تربيع أو 2ط نق. سخر من نفسـه وقال وماذا سيسمي هذا الثابت المقترح، ثابت پلانك، ولا بلانش نيچ، ولا ثابـت شـمس الزناتي الذي انهزم يا رجالة؟! لقد تعـب مـن شـكل حياتـه وهـد حيلـه الألم واللامبـالاة والعيش على هـامش انفعـالي. يرفـع رأسـه ويلمـح الجداريـة الجديـدة لكليـة الطـب. ارتعش وحنَّ لأيامٍ كان للحياة فيها معنـى. حيـث كـان يقـرأ روايـات خـلال دراسـته في المراجع الطبية الجافة. حيث كانت هناك "هيام". حيث كان يرجع في الإجازات للعائلـة حتى تشرق ابتسامة قمر الساحرة. حيـث ينتظـره "شـوبان" و"شـوبرت" و"مـوزار" بـين درفتي البيانو. في انتظاره هو و"قمر" أو والدته للعزف.

صلصل الترام بجوار سيارة الأجرة. دفعه حنينه للتفكير في ركوب الترام الذي لم يركبه منذ فـترة طويلـة، وكـان هـو الفسـحة الأجمـل والمواصـلة

الأفضل أيام الكلية. كان ينزل من مبيت الطلاب المغتربين في سموحة. يسير في الشوارع المعرشة بالشجر الجميل إلى أن يصل إلى محطة سيدي جابر ويعبر النفق كي يستقل الترام حتى الكلية. كان يقسم المشوار قسمين: قسم كحديقة هائلة بأنواع مختلفة من الأشجار والنباتات وشوارع خالية مشمسة بحنان حتى يعبر نفق محطة القطار فيصل للقسم الثاني، حيث المدينة بزحامها وسيارتها وضجيجها. فكأنه ينتقل من مزارع ريفية إلى مدينة في ربع ساعة فقط، مستمتعًا باختلاف القسمين التام.

عند وصول التاكسي إلى محطة ترام كلية الصيدلة تذكَّر كم انتظر هيام حتى تركب مع والدها في سيارته مع صديقتها.

قرر أن يترجل من التاكسي ويركب الترام. قال للتاكسي:

- قف من فضلك، سأنزل هنا.

- أمرك يا فندم.

وهم بالنزول من الجانب المخالف حيث السيارات، لكن السائق حذره:

- لا تنزل من هذا الاتجاه. انزل من جانب الرصيف وليس في عرض الشارع. انتظر حتى أركن جوار الرصيف.

أكمل فتح الباب والنزول ممسكًا بأغراضه.

- السير متوقف. السيارات لا تتحرك لا تخف أنا حريص.

أتى الـترام متهاديًـا فخـورًا بمسـاره المنفـرد الـذي قلـما يتـأثر بزحمـة الطريـق. هـم بالصعود في العربة الأولى لكنه تذكر أنها قد أصبحت للسيدات فقط لكنـه لاحـظ أنهـا مليئة بالرجال أيضًا فأكمل صعوده.

لم يجد مكانًا للجلوس فظل مستندًا على مسند الكراسي. وضع الحقيبتين جواره وظـل ممسـكًا بكـيس الكتـب. تـذكر بابتسـامة شـاحبة أيـام الكليـة وأحـداثها ومشـاغباتها. أتى الكمساري فأخرج له النقود، تناول التـذكرة والبـاقي ورجـع لشروده لفـترة حتـى وصـلته ذبذبة ما. ذبذبة منبهة تنكأ أعصابه. ذبذبة لصوت يعرفه، طريقة كلام يعهـدها وضـاعت من زمن. رفع رأسه على الضحكة التي يعرفها. رأى ظهر شاب من بعيـد يـتكلم مـع اثنـين من زملائه. كان يضحك ويتفاخر بخفة ومـرح. هـذه الـروح يعرفهـا، هـذا الكـائن يـذكره بنفسه. نفس الظهر وطريقة الكلام بل والضحكات والسكتات. كان لديه في وقت ما مثـل تلك الخفة وهذا المرح. دقق النظر أكثر.. بـل لقـد كـان عنـده أيضًـا مثـل هـذا القمـيص الأبيض الخفيف ذي الياقة الروسي، يتذكره من صورة له وهو يرتديـه عـلى شـاطئ البحـر وأخرى على الممشى الطويل ببحيرة قارون في الفيوم. لـولا هاتـان الصـورتان لنسـيه تمامًـا. هل الذاكرة مرتبطة بعدد مرات الرؤية؟ دون شك تساعدنا الصـور. لكـن مـن أيـن تفـور فجأة ذكرى لا وجود مادي لها في حياتنا؟ يرى جسـد الشـاب مـن خلـف القمـيص لامعًـا ممشوقًا أسمر. كيف كان يجرؤ على النزول بهذا القميص الـذي يشـف؟ نفـس البنطلـون الجينز والحذاء الأبيض الرياضي. التفت الشاب واستدار تجاهه، ككل من يشعر بأن هناك من ينظر إليه، لكنه تعداه سريعًا كأنه لم يره. صاح أحد زميليـه: "أكمـل يـا سـيدي". كـان

الولد "غلباوي" يشـاكس وهـو يكمـل قصـته. استرق السـمع حتـى لا تفوتـه كلمـة مـما يقولون. أكمل الشاب المجهـول: "ولمـا وضـع أسـتاذ فـؤاد السـماعات السـتيريو عـلى أذني فوجئت بهذا الصوت المجسم الرائع كأني في كونسير حقيقي فقلت له ما أروع هذا ويبدو أنني كنت أصرخ؛ لأن من يضع هـذه السـماعات لا يسـمع صـوته جيـدًا. وجـدتُ أسـتاذ "فؤاد" يشير إليَّ أن أخفض من صوتي ودخلت زوجته منزعجـة كـأني أتشـاجر مـع زوجهـا. ههههه". قال زميله: "أنا لا أراك سعيدًا إلا وأنت تسجل شريطًا من أستاذ "فـؤاد" أو وأنـت تشتري كتابًا جديدًا. تضيع نقودك على عبط. يـا بخيـل. تحـوش كـل مصروفـك مـن أجـل شريط موسيقى أو كتاب جديد. ولا تصرف نص مليم على أكلة أو عزومة".

- "طظ فيك، ماذا تفهم أنت يا لاعب الكرة".

- "طب حتى اعزمنا على زجاجة سباتس أو توتي فروتي".

- يا نصَّاب! من آخر واحد دفع في العزومة السابقة؟ أليس أنا؟

- "موت يا حمار للعزومة القادمة".

- اسمع يا أخي. آخر شريط سجلته كان توتنتانز. رائع.

- مثل توتنهام؟ فريق الكرة الإنجليزي.

- توتنتانز.. رقصة الموت لليست. توتن موت تانز رقصة.. جاهل جاهل جاهل.

- أنا جاهل! ماذا تعرف أنت عن "توتنهام". لا شيء. أنت الجاهل الأعظم. صحيح أن الفريق في النازل لكنه ممتاز. ثم ما أبشعك وما أبشع ما تسمع رقصة الموت.. يا ستَّار!

أسرع الشاب تجاه باب الترام قائلًا:

- سلام. محطتي.

- سلام يا "شمس".

في تلك اللحظة، شعر "شمس" وكأنه قد رُكل بكل قوة في خصيتيه. بدأ يفهم لِمَ كانت الألوان مختلفة؟ الدهشة كاسحة. بلا أدنى تردد يفهم، كأن ما يحدث معروف ومقدر منذ الأزل. شل في مكانه. وظل يتابع الثلاثة شبان حتى نزل شمس الشاب في محطة سيدي جابر. الولد نسخة طبق الأصل منه عندما كان في العشرين من عمره. مر كذا وعشرون سنة عليه منذ كان في هذا السن. كارثة أو معجزة لا يفهم. لا ليس الشبه فقط لكنه هو. هو دون شك.

تابعه بعينيه من شباك الترام محاولًا ألا يفقده في الزحام، فتحت إشارة المرور وبدأ الترام في التحرك ليضيع الشاب في الزحام والحقيقة. كان مشلولًا في مكانه. لا يستطيع أن يتحرك أو يفكر. يتابع فقط الطيف الذي يختفي ويذوب ومعه عقله وقوانينه وفؤاده. ذهول ماحق ينفي الحياة.

أيكون قد مات، الجنة؟ يؤمن! يخرج لسانه لـ"هوكنج" أو يرثي لحاله أم هي جهنم وأصل العذاب.

أصبحت الحقيبة ثقيلة ثقلًا لا يفهم سببه. كأنها تزن أطنانًا وأطنانًا. أو ربما يخذله جهازه العصبي. كل عصب في بدنه يذوبُ مُبْدئًا شرارًا لنار هائلة تحصد كل شيء. ما إن خلا أحد المقاعد حتى انهار عليه واضعًا حقيبة السفر تحت قدميه وحقيبة يده على حجره. وكيس الكتب بجواره. ظل هامدًا طوال الطريق لم ينزل في أي محطة. ظل جالسًا يحاول أن يتمالك نفسه. وصل الترام حتى محطة ڤيكتوريا بعد شخللة وخشخشة وتهادي ساعده على تمالك نفسه قليلًا. نزل كل الراكبين عداه. عينه سارحة وعقله شارد وقلبه بصوت مكتوم ينبض. بوم بوم بوم.. فكَّر: أهذا صوت المجرات البعيدة توقظه من ثباته. الكون يكلمه من الداخل.

أتى الكمساري متسائلًا:

- خير؟ هذه آخر محطة. تبدو متعبًا للغاية.. أأنت مريض لا سمح الله؟

هز رأسه كأنه يوافقه على كونه عليلًا لكنه ردد:

- لا لا شكرًا. هذه آخر محطة.

ثم رفع رأسه وقال:

- "ڤيكتوريا. صح؟".

- نعم. أأنت بخير؟ أتريد أي مساعدة؟

انتزع "شمس" نفسه من الحالة التي هوى فيها وقال لا:

- لم أركب الترام منذ فترة طويلة وأستمتع به، أنا سأرجع معك.

بش في وجهه الكمساري كأنه يشجعه ويرحب به:

- أهلًا وسهلًا.

بدأ الترام في الامتلاء بالركاب مرة أخرى ثم التحرك في الاتجاه المعاكس. بعد قليل أصبح صليل الترام أكثر من احتماله وأذنه تلتقط الصوت أكثر تجسيمًا مما هو عليه، فأخذ حقيبتيه ونزل من الترام في محطة سان ستيفانو، واستقل تاكسي حتى بيته. اكتشف أنه نسي كيس الكتب. فلم يهتم بل ربما أصابه الارتياح نكاية في كتاب "شمسان".

وصل البيت منهكًا من تعب السفر والعاصفة التي اجتاحت روحه. وقف طويلًا تحت المياه ليخلِّص نفسه من آثار الترحال والفكرة الحلزون التي تدور في عقله. تنشَّف وبقي عاريًا لا رغبة له في ارتداء أي ملابس. وضع أسطوانة لـ"فيفالدي".. "كونشيرتو الفلوت". وتمدد على السرير يحملق في سقف غرفته حتى غفا. أفاق لشعوره بالبرد. وجد الأسطوانة ما زالت تدور وتوش وقد انتهت. لم يكن يحب إلا الاستماع للموسيقى عن طريق الأسطوانات القديمة الفينيل. لم يهوَ الكاسيت قطُّ رغم عمليته. ولم ينبهر بأسطوانات السي دي الجديدة التي ظهرت حديثًا رغم نقاء صوتها. ارتدى بيجامته. وأعاد تشغيل الأسطوانة والتفكير فيما رآه في الترام. هو شخص يشبهني كثيرًا، بل اسمه مثل اسمي. ويستحيل أن يكونني. إذًا ما هذا؟ هل هو تداخل ما لعالمين؟ ثم ارتعش وهو يفكِّر: هل هي فرصة ما، تنبيهٌ ما؟ الأسهل هو أنه وهم وقعت فيه لتعبي. وربما لتأثير الكتاب السخيف المسمى

"شمسان". الحمد لله أنني قد نسيت كيس الكتب كلها في الترام. تنفّس الصعداء. نعم هـو وهم دون شك. خاصة أن أصدقاء هذا الشاب كـانوا يتكلمـون عـن الأسـتاذ "فـؤاد". وهـي ذكرى في حياته هو. عقله الباطن زرع الحوار ليربكه أكثر. ربما كانوا يتكلمون عن شيء آخر وتوهم هو الحوار الدائر. ثم هو لا يعرف الآخرين الذين مع الفتى. هذا أنا منـذ أكـثر مـن عشرين سنة تقريبًا. هه. حتى الملابس نفسها. تمطّى وقـام نشـطًا لترتيـب أشـيائه. ومـا إن انتهى من حقيبة السفر حتى فتح حقيبة يده لإخراج ملفات المـؤتمر وكتيباتـه كي يراجعها سريعًا، لكن ما هاله وجود كتاب "شمسان" في الحقيبة وتذكَّر أنه قـد وضـعه هنـا فعـلًا في الجيب الخارجي للحقيبة قبل النزول من القطار. انتابته قشعريرة وكأن الكتاب به لعنة مـا أو تعويذة سحرية تأبى عن الزوال. ثم أنكر على نفسه هذا التفكير السطحي والساذج وهمَّ بإلقاء الكتاب في سلة المهملات لكنه وضعه جانبًا عـلى الكومودينـو جـوار فراشـه، وجلـس يفكر حتى وصل إلى قرار. لا بدَّ أن أحاول رؤيته مرة أخرى لو كان ما حدث حقيقي سيظهر مرة ثانية.. وليكن.

وبالفعل كان في اليوم التـالي يسـير جيئـة وذهابًـا في شـارع شـامبليون وكلـما تعـب يجلس على محطة الترام التي يخرج منها معظم طلبة كلية الطب لركـوب الـترام. إلا أن اليوم مر كله حتى الساعة الخامسة دون أن يحـدث شيء. تـذكر الأيـام القديمـة عنـدما كان يتمشى أيضًا جيئة وذهابًا في الشارع نفسه من العمود الروماني في ميدان الخرطـوم إلى الترام في انتظار أن تهل "هيام". مر يوم، واثنـان، وثلاثـة ولا شيء. لم يظهـر الشـمس

الثاني. أيام مرهقة ومشوشة من عدم النوم والأرق والكوابيس وعدم التصديق وألم الظهر الذي يزوره كصديقٍ لا مبالٍ.

بين الإحساس بالانعتاق والتحرر والإحساس بخيبة الأمل راكبة الجمل، جلس في اليوم الرابع على محطة الترام راجعًا للبيت كأن رحلته ومؤتمره عن العلوم الذرية قد انتهى للتو.. "خلاص".

لكن للفوضى كلمة أخرى. ما إن ركب الترام حتى وجده أمامه بالضبط. كاد أن يسأله من أين تأتي؟ هل ركبت من محطة الرمل؟ لكنه تمالك نفسه. غير أن التقاء الأعين كان حتميًّا. ونظرة "شمس" الكبير لـ"شمس" الصغير تخلق عوالمَ جديدة وتوقظ غُفَّلًا من سبات عميق. والنظرة سهم، ليست بالضرورة من سهام إبليس حتى وإن كانت.

تعلقت عين الصغير للحظات بهذا الذي اقتحم عالمه. تساءل من هذا الذي مد رباطًا عجيبًا كما لو أن لا فكاك منه. لا يعرفه بلا أدنى شك لكنَّ شيئًا ما لمسه، كأن جسده وُصِّل فجأة بأصل ما. "قابس في فيشة بضغط إلكتروني عالٍ لثوانٍ ثم اختفى". استدار وتابع المسير ببطء للجهة الأخرى من العربة. ظل لفترة يفكر في القشعريرة التي شعر بها؛ فاتجه تفكيره إلى "هيام" وحاله معها. حب حياته الذي يقتله بكل تعالٍ وبرود. ما الحل فيما يجتاحه من هذا العشق؟ أصبح أصدقاؤه يوقفونه بأيديهم وهو يتعداهم تام الشرود ولا يراهم. لم يعد يفكر في شيء سواها، أول ما يصحو تخطر على باله ويظل يفكر فيها طوال اليوم رآها أو لم يرها. وفي الليل يحلم بها رؤى وأضغاث أحلام، تزيد من تشتته وغرامه، كأن هذا

الحب عقاب من اللـه على شيء اقترفه ونساه. ألم متحكم رغم ما يجلبه مـن سـعادة لا توصف. لكنه كالمعادلات الرياضية المتزنة.. متعادلة تمامًا. ألم مساوٍ للفرح، شـقاء كامـل مساوٍ للسعادة الغامرة.

غَيْبٌ غامض وجبر مجهول يدفع "شمس" الكبير تجاه الصغير. قدر أكبر مـن تفكـيره الذي يعتد به. رغبة يعرف المرء أنها قد تأرجحـه بـين هـلاك ونجـاة. ترفعـه لانشراح أو تغور معه لتلف يودي به.

اقترب حتى وصل إليه ثم واجهه فالتفت إليه الصغير حائرًا.

قال الكبير:

- "شكلك واقع في الحب".

لم يكن يعرف ماذا سيقول له لكن الجملة خرجت كأنها مـن سـيناريو خـرج للنـور للتو.

ولدهشة الصـغير أومـأ بـنعم رغـمًا عنـه. شيء أكـبر مـن خجلـه وانعزاليتـه يدفعـه للتواصل مع هذا الغريب. هذا الكهل.

- الحب قاتل.

أومأ مرة أخرى بنعم وقد احمرت وجنتاه وسقطت خصلة شعر كالحة السواد عـلى جبينه.

بادر الكبير قائلًا قبل أن يقولها الصغير.

- اسمي "شمس الدين".

مشق الصغير جسده كأنه يستعد لمواجهة ما وقد أخذته المفاجأة، وقال بصوت كادت تشرخه بحة طارئة:

- أنا أيضًا. يا لها من مصادفة.

ولإنقاذ نفسه من الموقف مد الصغير يده مصافحًا. هنا من تفاجأ كان "شمس" الكبير، تلكأ للحظة قبل أن يمد يده خوفًا من أن يُلاشي أي منهما الآخر، كأن يسحق أحدهما الآخر وينهي عالمه. أحرج هذا التلكؤ البسيط الصغيرَ إحراجًا فازداد احتقان وجهه، وبدأ في سحب يده فما كان من الكبير إلا أن سارع وأمسك يده بيديه الاثنين كأنه يطمئنه ويطمئن نفسه قبله. ولما لم يحدث أي كارثة من التلامس هدأ بال الكبير، وابتسم فابتسم الصغير فشعت ابتسامتهما رضًا وقبولًا وتوافقًا. (كأن ذراتنا قد امتزجت تمامًا لكن دونما فقد هوية أي منا). هكذا قال "شمس" الكبير لـ"سها" فيما بعد.

يعرف الكبير أن "شمس" يحب الأيس كريم فقال:

- ما رأيك أن نتناول أيس كريم معًا وتحكي لي عن قصة حبك.

فكَّر الصغير ما الذي يجعله يوافق على ما يقترحه هذا الغريب الذي ليس بالغريب.

- نتنزه على الكورنيش ونأكل أيس كريم في بحري.

- تمام.

نزلا من الترام في محطة الشاطبي ثم اتجها إلى الكورنيش وبدآ في التمشـية إلى حـي بحري، حيث الأيس كريم لذيذ الطعم.

قال "شمس" للصغير:

- أنا أستاذ في طب الفضاء.

ضحك الصغير قائلًا:

- هي مصر وصلت للفضاء دون أن نعرف!

رد بين السخرية والصدق:

- لا أنا فقط من وصل إلى الفضاء.

- وأنا طالب بكلية الطب.

ثم أضاف محرجًا:

- أنا لم أتعرف قطُّ على شخص أكبر مني في العمر.

ثم ضاحكًا:

- ولا حتى في مثل عمري بهذه الطريقة. ليس لي أصدقاء كثـيرون. عنـدي "شريـف" وهو معي في الكلية والسنة نفسيهما، أعرفه منذ زمن.

هز رأسه وشاط بقدمه زلطة صغيرة. قال الكبير بصوت خفيض:

- ألك إخوة؟

- لي أخت واحدة وهي حبيبتي، وصديقتي. وهي رائعة. تصغرني كثيرًا. أكثر من خمس سنوات. لكن عائلتي كلها تعيش في القاهرة.

ظل "شمس" الكبير صامتًا ولام نفسه على سؤاله، وأراد أن يبعد الحوار عن عائلة "شمس". فقال له:

- نرجع للحب، أنت تحب طبعًا.

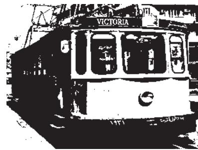
- كيف عرفت؟

- كما تغني أم كلثوم.... الصب تفضحه عيونه.

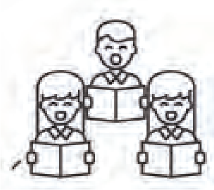
وافقه الصغير رغم عدم معرفته بهذه الأغنية، فلم يكن قد وقع في هوى الاستماع إلى أم كلثوم بعد:

- نعم.

- احكِ لي. الحب لا أجمل منه.



4



أن تقع في الحب هذا أمر رائع وسخيف في الوقت نفسه. أن تقع في حب البنت نفسها مرتين دون أن تعرف هذا هو التخلف والعبط ذاته. هذا ما حدث لي. كان أبي قد انتقل إلى بورفؤاد عام زواجه من أمي سنة 56 بعد فشل العدوان الثلاثي نتيجة للإنذارين الروسي والأمريكي. كان طبيبًا وظابطًا مجندًا يخدم في القناة. استقرا في بورفؤاد، حيث كانت جنة حقيقية، جنة مثلثة يحدها من الغرب قناة السويس ومن الشمال البحر الأبيض والضلع الثالث الملّاحات. معظمها دور صغيرة للعاملين بهيئة القناة وبعض الشركات الأخرى. يكاد يعرف كل سكانها بعضهم بعضًا. كانت مدرستي الابتدائية اسمها "الراعي الصالح" le bon pasteur وتقع قريبة جدًّا من فيلتنا.. معظم العاملين بها من الراهبات.

لم أكن طويلًا ولأني دائم الشرود فكنت أجلس في الصف الأول كي أنتبه. كانت كبيرة الراهبات mère supérieure تسميني أرنبي الصغير

mon petit lapin. ولأني كنت أغطس في التختة لصغر حجمي أيامها صنعت لي أمي مخدة صغيرة (شلتة) لأضعها تحتي فأظهر وأرى المدرسين والسبورة. كان معظم المدرسين راهبات صغيرات عابسات معظم الوقت لجديتهن، ومبتسمات في أوقات اللعب والصلاة. كان لي صوت جميل فكنت أيام الآحاد مشتركًا في كورال الكنيسة، وفي أيام الجُمَع أذهب للصلاة مع والدي في جامع بورفؤاد الكبير. ولا أزال أتذكر يومًا كنا في الكنيسة نتدرب على لحن ربما "آڤا ماريا" لـ"باخ" لا أتذكر، وقد سألت أمي في البروفة السابقة ماذا تعني "أڤا ماريا"، فقالت: "السلام لك يا ستنا مريم". سألتها باندهاش: "هي.. هي ستنا مريم التي في الجامع". ابتسمت وهزت رأسها بنعم. فانتابتني النشوة أنني أسلم على ستنا مريم. وفي سعادتي بالغناء إذ دخل علينا فجأة ملاك لم أره من قبل. بنت جميلة، بيضاء الوجه سوداء الشعر واسعة العينين عسليتهما. تقربني في الطول. تمسك بها راهبة كي تضمها إلى كورالنا. كأن السيدة مريم ترد لنا السلام بهذا الملاك. الله الله ما أجمل الدنيا. هذه الموسيقى التي تصلنا بالله. أحست الراهبة التي تدرب أصواتنا بالراهبة والملاك خلفها. فأوقفت التمرين واستدارت. ابتسمت الراهبة "سير تريز" لهما ثم قالت "سير أونرييت": "هذه "هيام الناظر". صوتها جميل مثلها".

"هيام الناظر"! كيف يمكن أن أنسى هذا الاسم. هذا الاسم الذي سيعلق بعقلي وروحي للأبد. "هيام" التي سوف أقع في حبها من أول نظرة.. مرتين. وربما ثلاث. ثلاث مرات من أول نظرة. شيء لا يليق إلا بشخص أهبل يا "شمس".

انضمت "هيام" لنا في الكورال. لم أعرف من أين أتت؟ كيف لم أرها من قبل؟ ثم اكتشفت أنها في الفصل الآخر لسنتنا. كل عام دراسي به فصلان. كل فصل في حدود اثني عشر تلميذًا. هذه الهيام. آآآه. ولعجبي أوقفتها "سير تريز" بجواري. آآه. أي رائحة هذه. انتعاش جميل. طازج بالكاد نازل من السماوات. رفعت رأسي لسقف الكنيسة لأتأكد أن عدد الملائكة ما زال كما هو. كانت "هيام" خجولة فلم ترفع صوتها في أول الأمر. ثم بدأت بابتسامة تشجيعية من "سير تريز" تتمالك نفسها وترفع صوتها بالتسامي. لم أعرف متى عرفت كلمات ما نغني. كدت أنسى.. ليس فقط كلمات الترنيمة بل الكلمات كلها، كل اللغات. كنت أطفو في هالتها في المجال الذي يحوطها.

من بعيد، توقفت الموسيقى ووجدت "سير تريز" تشير إليَّ بغضب أن أنزل سلمة. أأدركت ما حل في روحي؟ أيعقل هذا؟ في البروفات التالية لم يسعدني الحظ بالوقوف جوارها مهما حاولت. وفي أيام الآحاد، القداس كان جادًا لدرجة أنني كنت أخاف أن أنظر إليها. فعلتُ كما كان يطلب مني أبي وأنا في الصلاة أيام الجمع. أن أركز. أن أكون مع الله. الله الذي أهداني الملاك. خفت أن أُحرم منها. فحاولت أن أركز في غنائي في الكنيسة وفي صلاتي في الجامع. رجعت يومها البيت مع أمي وحكيت لها ما رأيت. ضحكت أمي ولما قلت لها اسم الملاك قالت: "نعم هي في الفصل الآخر". نظرت لها في انبهار. "أتعرفينها؟"، "نعم. بنت جميلة". فاندفعت قائلًا: "جدًّا جدًّا. ماما أنا أحبها". توقفت أمي عن السير. وقبعت على الأرض كي تبقى في مستوى نظري. وأمسكت بي وقالت: "شمس.."، ثم سكتت.

كانت تلبس فستانًا مشجرًا وقبعة جميلة تحميها من الشمس. والشارع كله شجر وأوراقه تطير في الهواء. احتضنتني ثم ابتسمت ونكشت شعري قليلًا ثم استقامت وبدأنا في السير مرة أخرى. للعجب كانت هذه هي المرة الوحيدة التي قلت فيها لأحد أنا أحب "هيام". كل الناس كانت تعرف دون أن أقول.

لكن الملاك طار مرة أخرى، لم أرها سوى في البروفات. في الفسحة لم تكن موجودة. ولا وقت الرجوع من المدرسة. شهران ثم انتهى العام الدراسي. لِمَ لَمْ أسأل أمي عليها مرة أخرى؟ ربما النظرة التي واجهتني بها عندما قلت لها إني أحبها. سافرنا بعد انتهاء الدراسة إلى القاهرة عند جدي. وتَرَكْنا أبي في عمله في بورفؤاد. مرت الإجازة وأنا شبه منوم. ألعب وأخرج مع العائلة لكن يوجد دائمًا ملاك في انتظاري في المخيلة. طائرٌ في فضاء الكنيسة والمدرسة وبورفؤاد كلها. عدت للدراسة ولفرحتي كان تلاميذ الفصلين قد مُزجوا معًا، وأصبحت "هيام" معي في الفصل نفسه.

سنة من الشهد الصافي. أصبحت المدرسة حلمًا وعندما عرفت أنها تسكن في فيلا قريبة منا كنت أصعد كل جمعة وأحد لأعلى مكان في فيلتنا الصغيرة كي أطل على فيلتها من بعيد. كانت كل فيلا مساحتها بحديقتها 600 متر مربع تقريبًا. ولها سقف أرميدي أحمر جميل وأيضًا مطلع إلى السطوح صغير. كنت أهوى الصعود كي أرى معظم فيلات حينا والمدرسة ومأذنة الجامع من بعيد.

كانت الهداهد كأنها المرسال الصامت بين البيوت. عندما درسنا قصة سيدنا سليمان في المدرسة وكلام الهدهد له كنت أجلس صامتًا بالساعات أمام الهدهد في الحديقة علّي أفهم ما يقول أو أن أنقل له ما كنت أريد أن يقوله لها. كنت أرى الهدهد يطير من بيتنا لبيتهم فأحسب أنه قد أوصل رسالة مني إليها. ربما كنت لا أعرف ما مضمون الرسالة لكن كنت أنتشي كأني قد بحت بسرٍ جميل لوردة أو لفراشة أو لعصفور.

أمّا ثاني المراسيل، فكانت الطائرات الورقية التي أصبحت موضة عامنا ذاك. كل من كان في المدرسة كان يتفنن في صنع طائرات ورقية ملونة حسب إتقانه وذوقه في الألوان. وكنت أتمنى أن أتحكم في اتجاه الريح حتى تطير مكان ما أريد، أو بالأصح مكان من أحب. كثيرًا ما كنت أجاهد أن أمسك واحدة وأطلب من ماما المساعدة في تطييرها لأنها أقوى مني وكنت أتصور نفسي أطير بها إليها. وفعلًا في مرة كدت أن تطوحني الطائرة من أعلى بيتنا فرفضت أمي أن أطير أي طائرة أخرى بعد أن كاد الحبل يقطع يدي لما تشبثت به وكدت أطير فعلًا. لحسرتي كنت أراقب الطائرات تعلو وتصل في بعض الأحيان إلى أعلى بيتها. ولما كنت أخبر "هيام" في اليوم التالي عن طائرتي التي حلقت أعلى بيتها كانت تهز رأسها وتبتسم وكأنها لا تأبه بالأمر. لما أغلقت أمي المنفذ للسطوح قاومت خوفي وبدأت في تسلق شجرة فيكس كبيرة كي أصل إلى أعلى، لكن محاولاتي باءت بالفشل وسقطت ولم أنطق أو أتكلم رغم الألم خوفًا من لوم أمي لي. لما ذهبت للمدرسة وقالت لي المدرسة عندما رأت عرجي تغيرت من "مون بيتي لابان" لـ"مون بيتي

كانجرو" وتسببت في أن الفصل كله ضحك عليَّ بما فيهم "هيام". وكدت أبكي وحاولت أن أصارحها أن السقطة سببها هي لكن جبنت وخجلت.

كان عندنا أيضًا نخلة ملوكي جميلة ناعمة الملمس كراقصات الباليه. ودوائر جذعها الرمادية تعلو وتعلو حتى تصل إلى رأسها المهوش بالسعف الراقص. لكن بعدما عدنا من القاهرة عند جدي لقضاء إجازة نصف العام، وجدنا أحدهم قد كتب على جذعها الجميل حرفين ورسم دائرة غير منتظمة. مَنْ تجرأ ودخل حديقتنا لا نعرف. أهمل أبي الأمر رغم غيظنا من تشويه ساق النخلة الجميل. لكن بعد أن شاهدت فيلمًا ينحت البطل فيه على جذع شجرة اسمه واسمه حبيبته، تعجبت. لم أكن أفهم معنى الرسم على النخلة إلا لما شاهدت الفيلم وعرفت أن الحرفين كانا اسمي البطلين. رجعت من السينما أفكر في هذا وقبل أن أدخل البيت وقفت أمام النخلة غير أن الظلام لم يمكنني من رؤية المكتوب. فكان أول شيء عملته بعد الاستيقاظ التملي فيما مكتوب عليها. وجدت الدائرة منحرفة الانضباط التي عرفت أنها تُسمى القلب تحتضن حرفي س وهـ ملأني الزهو كأن أنا من كتبها. تغاضيت عن ثلاث نقاط لم أرها فوق السين. وتصورت أن الكاتب قد نساهم أو فاجأه أحد. وقلت ها هما اسمانا قد حُفِرا على الشجرة مثل أبطال الفيلم ومعهما قلب جميل. وتهيأ لي الهاء كـ"هيام".

لما حكيت لـ"هيام" عن القلب والحرفين على النخلة ضحكت وهزت رأسها فحكيت لها عن الفيلم والأبطال. لم أذكر أي شيء عن الحب، فقط أن البطل والبطلة كتبا اسميهما على الشجرة. سألتني: "وما الحرفان اللذان كُتبا على النخلة". قلت سين وهاء. لمعت عينيها وقالت هاء مثل

"هيام". شعرت بالصهد في وجنتي. كنت أريد أن أقـول لهـا والسـين هـي شـمس. لكـن كيف أقنعها أن النقط الثلاثة قد طاروا، أو أن الكاتب نسى وضعها. قالـت سـين "سراج" على اسم أخيها. ثم أكملت "سمير". "سامي".. "ساموبل".. شـعرت أنهـا تغيظنـي. لم أرد أن أصـحح لهـا أن "صـامويل" بالصـاد كـما يكتبهـا صـامويل زمـيلي في التختـة. ازدادت سخونة وجهي فقلت مغيظًا لها: "وربما الهاء لهانية" مثل أختهـا. هـزت رأسـها وقـدمها اليمنى وهمست يمكن. أدركت ساعتها أنها لا تغيظني. وأن الأمر كالعادة لا يهمها رغم بعض الفضول الذي أصابها.

لحظتها خطر في بالي فكرة تقربها مني أكـثر فقلـت لهـا: "مـا رأيـك لـو فتشـنا في كـل شجرة في الشوارع من المدرسة للمنزل ربما نجد أسماء أخـرى". رفعـت رأسـها ونظـرت إليَّ وقصتها السوداء منهدلة على عينيها فتخفي جـزءًا منهـا: "أتظـن؟ يوجـد أسـماء أخـرى؟". ويومها ألححت على أمي أن ترجـع مـن المدرسـة ومعنـا "هيـام" التـي كانـت ترجـع مـع دادتها. وأن نأخذ المسار الأطول للبيت وعللت هذا بأن مدرستنا "سير آن ماري" نبهتنا إلى أشكال النباتات التي خلقها اللـه لنا (وقد حدث شبه هذا فعلًا) ونريد أن نشـاهد أنـواع الأشجار والزهور بالشوارع. وتناسيت تمامًا أن أمي تعرف "سير آن ماري". وافقت وتمشـينا نحن الأربعة وكما وعدتني أمي أخذنا طريقًا أطول قليلًا. كنـا – "هيـام" وأنـا - نسـبقهما. ونقف أمام كل شجرة وندور حولها في محاولـة لاكتشـاف أي حفـر أو اسـم. لكنـي كنـت أشير إلى أي زهرة معجبًـا بجمالهـا بحـق ولأقنـع مامـا أننـا نـدرس الزهـور. كانـت "هيـام " تهـز رأسـها أو تعلـق بكلمـة واحـدة. اللـــه! ثـم تضـيف: "حلـوة". خـاب أملنـا

ووصلنا سريعًا إلى بيت "هيام"، حيث استأذنت الدادة ودخلت معها للفيلا. تصورت أن "هيام" ستلتفت كي تشير إليَّ وتودعني، لكنها اختفت سريعًا داخل البيت. وضعت أمي يدها على شعري ونكشته قليلًا وأكملنا مسيرتنا دون أن أنظر على أي شجرة من جديد وقد فقدت اللعبة جمالها وغرضها.

لم تكن "هيام" كثيرة الكلام. لكن كانت لها لازمة جميلة مع ضحكتها. بصوتها رعشة خفيفة تختفي مع غنائها. صوتها أقرب للحدة. كان أبوانا يخرجان تقريبًا معًا في الوقت نفسه ليلحقا بالمعدية لأن عمل كليهما كان في بورسعيد. لسبب لا أعرفه لم يتصاحب والدانا بل ظلا على بعد. جيران أولادهما في المدرسة نفسها. كانت أمي تعمل مدرسة لغة عربية في المدرسة. كانت خريجة مدرسة "نوتردام ديزابوتر" في مصر الجديدة لكن حبها للغة العربية جعلها تحب الاشتغال بالتدريس ووجدت ضالتها عندما سافرت مع أبي لاستلام عمله في بورسعيد. وعملت بالصدفة في المدرسة فيوم أن قدِّما لي للالتحاق بالمدرسة، تناهى إلى سمعها أن القسيس اللبناني الذي كان سيعلم اللغة العربية لن يستطيع الوصول في الميعاد المناسب. فقالت لهم إنها خريجة "نوتردام" في مصر الجديدة. وتحب اللغة العربية ومستعدة لتدريسها. اختبار بسيط وتم التعيين.

كانت أمي واحدة من ثلاثة مدرسين دون أن تكون في السلك الديني. كانت معظم الراهبات من أصول غير مصرية عدا اثنتين كانتا قد تحولتا إلى الكاثوليكية. كنت أقول لها مثل الآخرين "مدام وادي" اسم أمي. لم أكن أعرف أن اسمها غريب وغير متداول؛ فقد كنت أسمع كل المحيطين بنا ينادونها هكذا وادي. "مدام وادي".

ربما خلال هذه السنة لم نتكلم كثيراً أنا وهيام. كلام عادي عابر عام. رغم الغناء بالكورال ورحلات المدرسة التي كانت مرة لقلعة "بليزيوم"، ولشط البحيرة، وطبعًا لوادي الفراشات. وكانت المشرفة علينا في الرحلة الأخيرة أمي و"سور آنيتا". "مدام وادي" قالت لنا محاضرة بسيطة عن الفراشات في مصر وأرتنا صورًا لأنواع الفراشات. وما المتوقع أن نراه في رحلتنا.

مرة أخرى رأيت عائلتها كلها لما كنا نتناول الغذاء في كازينو "بالاس" في بورسعيد. راقبت عائلتها وقد أشار كل من أبوينا إلى بعضهما من بعيد بتحية أقرب لتحية الضباط وابتسمت أُمَّانا برقة. ولكني لم أستطع أن أرفع يدي لأشير لها وقد انتابتني نوبة خجل.

اختفت "هيام" بعد هذا العام ولم أعرف ما الذي حل بها. لم تعد إلى المدرسة وأصبحت فيلتهم خاوية ثم حل بها أناس آخرون. أمي دون أن أسألها، وقد رأت حالي على الأرجح قالت لي يومًا وقد أجلستني أمامها: "لقد تغيَّر عمل والد هيام"، وأنهم رحلوا إلى بلد آخر. مثَّلت أني غير مهتم وتظاهرت بمتابعة أنواع الفراشات وما إن رأيت واحدة أحفظ اسمها حتى قلته أمامها كأن العالم لم يتغير وإن فقدت الهداهد النطق وتاهت الطائرات الورقية في السماوات الغائمة. لكن ما إن دخلت غرفتي حتى وجدتني أبكي بلا توقف حتى سمعت صوت أقدام أمي صاعدة على السلم. مسحت دموعي وأخرجت الألوان وبدأت في الرسم والتلوين. رسمت ما علق في ذهني من صورة بورفؤاد من أعلى سطح بيتنا وهي مزينة بتيجان النخيل المريشة في بداية العتمة وقت الغروب. كان المشهد الساحر كأنه مرسوم في مخيلتي

بألوان باستيل دافئة هادئة لكن توحي بالكآبة وما سوف يحدث. ويبـدو أنـه كـان بدايـة الاعتام الكامل لقصة حبي وللبلدة الصغيرة كلها.

بقينا في بورفؤاد حتـى هزيمـة 67 وانتقلنـا إلى بورسـعيد حتـى عـام 69 ثـم انتقلنـا إلى القاهرة، حيث تركْنا أبي هناك يعمل طوال فترة حرب الاستنزاف.



المرة الثانية التي رأيت فيها "هيام" بعد غياب كانت في القاهرة. كنـا قـد رُحِّلنـا مـن بورسعيد إلى القاهرة وكنت أذهب إلى مدرستي في الأتوبيس، حيث كنا نعيش مع جدي في مصر الجديدة والمدرسة كانت في الظاهر. كنـت شـاردًا كعـادتي أتفـرج عـلى القـاهرة التي لم أكن قد ألفتها كشاب مراهق في الثانية الإعدادي. كنـا قبـل إجـازة نصـف العـام. والأتوبيس يتهادى صباحًا إلى المدرسة. الـدنيا بـرد رغـم الشـمس التـي تسـكن في سـماء القاهرة. يومها تغيرت معالم الطريق إلى المدرسة، انتبهت لاختلاف المسار ثم عرفـت مـن كلام السائق والمشرف أن تظـاهرات الطلبـة جعلتـه يغـير مسـاره. ثـم رأيـت فتـاة مـن ظهرها. الشعر الأسود منهال على كتفيها تمسك بيد رجل. طريقة المشي لفتت نظرى. ثـم شعرت بالزلزال يضربني. كنت أحث الأتـوبيس أن يمشي أسرع حتـى أرى وجههـا. لكـن للحظ تعطلنا قلـيلًا بـبعض المتظـاهرين. قـال المشرف: "احنـوا رؤوسـكم لأسـفل". كـان السائق قد أعمل النفير عاليًا سابًا الشباب لأنهم يعطلون الشارع. التفـت إليـه، بعضـهم فوقفوا أمام الأوتوبيس وبدؤوا بالتطبيل عليه والهتـاف بصـوت عـالٍ. لم أنـزل رأسي كـما أمـرني ولمحـت أبـا الصـبية يشـدها ليبتعـدا عـن شـلة المتظـاهرين قـدر الإمكـان، ويـد

الصبية تشد على يد أبيها. في آخر الأمر انفلت الأتوبيس ومر بين المشاغبين، وبدأنا نقترب أكثر منها، ووجيب قلبي يعلو على أصوات الهتافات التي لم أكن أفهمها أو أعيها غير أنها مجرد أصوات ضجيج سخيف. بدأنا نحازيهما وبدأ بروفيلها يشرق.. أنف صغير وشامخ وفم رفيع حازم وشبه ابتسامة. قُصة ساحرة مرحة تغطي الجبهة و.. كاد قلبي أن ينفجر.. هي.. "هيام الناظر". هببت واقفًا ومشلولًا أريد أن أقفز من الأتوبيس كي أسلم عليها، وفي الوقت نفسه، لا أريد أن تفلت مني لحظة لا أراها فيها. أتمنى أن ترفع رأسها كي تراني. وضعت يدي على الشباك، أريد أن أخبطه، أن تلتفت إليَّ. صوتي الذي انحبس فجأة وأنا أحاول أن أناديها. مثل صرخة طلب النجدة في الكوابيس عاتية العلو بلا صوت. صوتي وأنا أحاول أن أقنِع المشرف بالنزول. صرخ في المشرف: "اقعد". صرخت دون أن أنظر إليه: "أريد أن أنزل". أعاد الصرخة. "اجلس"، ثم قال للسائق. "أخرجنا من هذا الشارع". رأيتها تبتعد وتبتعد وعرفت أني مشلول الآن وسأبقى إلى الأبد مشلولًا بحبها. لوحت رقبتي حتى كادت أن تنقصم. ثم انتابتني طمأنينة غريبة وفكرت طالما لمحتها بعد هذه السنين وللحق كنت نسيتها فيها، فلا بدَّ وقد أمتلكني حبها فجأة مرة أخرى. إن القدر يؤكد لي أنها روحي وسترجع لي مهما طال الوقت. جلست بين انخذال وانشراح متعاركين حتى هدتني حربهما. وقررت أن أستعيد منظرها مرة ثانية منذ أن لمحت ظهرها حتى اختفت. مرة وراء مرة وراء مرة. وفي كل مرة أكتشف أني أرى تفاصيل لم أعِها في المرة التي تسبقها. رأيت زيَّها المدرسي. البلوزة الوردية والجاكيت الرمادي والجيب البليسيه الرمادية. فراشة محلقة حولها، توكة شعر على شكل زهرة بحثت عن اسمها حتى عرفت أن اسمها "ديزي" أو

"سوزان" ذات العيون السوداء. بادج المدرسة الذي حاولت فيما بعد أن أتـذكر حروفـه كي أعرف في أي مدرسة تكون. لكن رغم كثرة التفاصيل التي تذكرتها فشلت. بعد هـذا اليـوم بسنين شاهدت فيلم عمر الشريف "د. زيفاجو". ورأيـت المشـهد الأخـير وهـو يـرى "لارا" بعد سنين وهو في الحافلة وهي تمشي على قدميها وكيف أن قلبه لم يحتمل فسـقط ميتًـا. ربما ما أنقذ قلبي أنا رغم الألم والفزعة والفرحة أننا كنا في بداية القصة وليس نهايتها مثل "زيفاجو". كان للقلب يقين ساذج في أقـدار مرسـومة كـما نريـد، وأوهـام كبـيرة وخادعـة لجنات ملونة.

المرة الثالثة رأيتها ووقعـت في غرامهـا مـن أول نظـرة دون أن أعـرف أنهـا "هيـام". لم أحصل على مجموع يؤهلني لدخول كلية الطب جامعة القاهرة أو عـين شـمس كـما أراد أبواي، فالتحقت بكلية الطب بجامعة الإسكندرية. وشجعني على ذلـك أننـي كنـت أحـن للبحر الذي افتقدته في القاهرة ووجود "شريف" صديقي فيها. طلبت من أبي أن يسـتأجر لي شقة خاصة لكنه فضَّل أن ألتحق ببيت الطلبة. عزَّ عليَّ هذا لكن فيما بعد عرفت مـن أمي أنه لاحظ أنني أصبحت أكثر انطوائيـة وقليـل الأصـدقاء، دائـم الشرود. أنكـرت هـذا الأمر لكن في الحقيقة أنا كنت أعيش فعلًا في عالم خيالي قبـل اخـتراع العـوالم الخياليـة. لم أكن أفكر في "هيام". بل إني نسيتها أو بالأصح نسيت الوجود الحقيقي لها، أصبحت جـزءًا من خيالاتي وأوهامي مثـل الروايـات التـي كنـت مغرمًـا بقراءتهـا حينهـا مـن أول "أجاثـا كريستي" إلى "دوستويفسكي". وعندما تقفز في ذهني صورة لي وهي معي.. أقـول لـنفسي كان معنا في المدرسة بنت جميلة جدًّا اسمها "هيام الناظر".

لا أعرف كيف مضت السنة الأولى في الكلية، إعدادي طب في كلية العلوم بالشاطبي، ظللت أصل متأخرًا وأجلس وحيدًا في الصف الأخير، بلا أصدقاء فعلًا. لم أكن أعرف أحدًا سوى "شريف" ابن واحد من أصدقاء أبي. نراه في الإجازات وفي المصيف وكنا نتراسل من إعدادي. وكلما كان أبي يرسل خطابًا لصديقه، كنت أرفق معه رسالة مني لـ"شريف" والعكس صحيح. بعد فترة انقطاع طويلة قابلته بالصدفة، لكنه كان في النصف الآخر للدفعة بمواعيدها المختلفة عني وبالطبع كان له أصدقاء غيري فلم أعد أراه. حتى زملائي في المبيت لم تقوَ صلتي بهم وبقيت أذهب وحدي إلى كليتي. كان أول غرامي بالكيمياء الفيزيائية وعوالمها. وذكَّرني حبي لها بانبهاري في أولى ثانوي بدراسة الهندسة الفراغية ومعرفة أنه يوجد شكل آخر من أشكال الهندسة مختلف عن الهندسة القليدية التي درسناها وظلت مهيمنة مدة ألفي عام.

لكن مع انتقال الدراسة في سنة أولى إلى كلية الطب في الأزاريطة، وقعت الواقعة. ذات صباح رائق سقطت فجأة في بئر من الشهد الصافي، بئر بلا قاع، هاوية رائعة تفغر فاها لمن لا يحترس، وأنا أقل الناس احتراسًا بل ربما كنت أبحث عن هذه الهاوية منذ زمن. كان هذا السقوط طيرانًا للسماوات العلا، للخلود، للما لانهاية. ما أعجب أن تشعر أن روحك التي معك تراها تحلق في كيان آخر. كان موعدي مع "شريف" في كافيتريا كلية الأسنان صباحًا. وما إن اقتربت من مائدته التي يجلس إليها حتى بادرني: "صباح الخير يا شمس"، وقدَّم إليَّ صديقه: "أردشير مصري من أصل إيراني كان معي في المدرسة الثانوية في الإسكندرية". بعد التعارف السريع رفعت رأسي في اتجاه

باب الكافيتريا وإذا بعينين واسعتين بدوامات عسلية مدوخة وبؤبؤين متعجر في السواد يناديانني للغوص في الموت والحياة. لا أعرف إن كان الزمن قد توقف كل هذا الوقت. إذًا المعجزات حقيقية فعلًا. أظنُّ أن الفتاة تحركت وتركت مكانها فارغًا، لكن طيفها ظل في مكانه يحتل فتحة باب الكافيتريا طوال العمر لأني ما زلت أراها هناك للآن. لا أعرف كم من الوقت مر حتى قال لي شريف: "ماذا؟ ما الذي أصابك؟". ولما لم أرد قال صديقه: "هيًّا نلحق المحاضرة". عرفت أني وقعت في هوى هذه الروح التي لم أزل أغوص في دوامة عينيها. ولما استعدت نفسي في المحاضرة استرجعت ما اختزنه عقلي دون إرادتي عن المشهد. كانت فتاة جميلة تعلقت عيناها بي لبرهة ثم مرت، كان شعرها شديد السواد ينهدل على جبينها ويصل إلى كتفيها ثم يلتف لأعلى في موجة صغيرة حادة لكن رقيقة في الوقت نفسه. فم صغير وردي اللون يكاد يبتسم بخجل يزين وجه ناصع البياض وذقن صغير تأكدت استدارته. وسن صغير في الجانب الأيسر يخترق طرفه بنزق الشفة العليا عندما تبتسم. قوام ممشوق وقد رائع. بلوزة سماوية وبنطلون جينز أزرق داكن. لم أستطع أن أتخيل قدميها لأن عقلي لم يسعفني. ومن ورائها ظهرت صديقة لها أكثر طولًا ومهابة بجسد شبه رجولي وشعر أقصر ونظرة أحد. بدأت أستعيد نفسي رويدًا رويدًا وفطنت أنني في محاضرة فيزيولوجي في مدرج التشريح الواسع المكتظ بالطلبة. لحظتها خطر في بالي أنها ليست في كلية الأسنان أو الصيدلة بل ربما تكون هذه الفتاة في الطب مثلي، بل.. وقد دق قلبي بعنف لهذه الفكرة... قد تكون معنا في الطب، دفعتي. لحظتها دارت عيني بجنون على الطلبة علني أرى هالة شعرها السوداء من بعد ، لكني فشلت. ولكن بعد انتهاء المحاضرة خرجت من الباب الخلفي كي أراقب

خروج الطلبة كلهم. ومع بدء الشعور باليأس، هلت مرة أخرى. كنـت قـد احتجـزت معي "شريـف" وصـديقه "أردشـير" بحجـة أني أريـد أن أتأكـد مـن وجـود زمـيلي في مختبر الفيزيولوجي هاشم لاحتياجي تأكيد النتائج للتجربة التي أجريناها أمس. هز "شريف" رأسه وفتح كراسته واقترح عليَّ الاطلاع على نتيجـة تجربتـه، لكـن لحظتهـا قال "أردشير" بصوت كله سعادة ضاحكة: "هـا هـي هيـام النـاظر". تجمـد الـدم في عروقي. اتحدت الأكوان وأصبح الماضي والمسـتقبل الآن، والـوهم والحقيقـة منطقـة بين بين. وبورفـؤاد والإسـكندرية شـط واحـد وجنـون واحـد لمـوج عـات قـادر عـلى محوهما. دون أن أرفع رأسي آلمني يقيني بعنف وللعجب تمنيت أن يكون "أردشـير" مخطئًا أو واهمًا. وتمنَّى جزء من روحي ألا تكون "هيام" هي "هيام"، كأني أعـرف أن الألم مكتوب والفراق قادم رغم يقيني القـديم أننـا واحـد ولا بـدَّ أن يلتقـي الواحـد بالواحد كي يصيرا واحدًا. لكن دون أن أرفع رأسي عـن كراسـة "شريـف" رأيتهـا بعـين محلقة من أعلى دماغي من نقطة عالية في قمة مخـي. رأيتهـا رأي العـين، وأدركـت أنها هي.. هي. ولكن هل كنت أنا أنا؟ وعرفـت أننـي طالمـا أراهـا دون أن أسـتعمل عيني فهي أنا دون شك. كانت تنزل الـدرجات الـثلاث الأخـيرة مـن السـلم الأمـامي للمدرج وبجانبها صديقتها التي أسميتها حارسها ولعجبي عرفت فيما بعـد أن لقـب عائلتها (الحارس). لم أرفع رأسي حتى مرتا بجانبنا ورأسا "شريف" و"أردشير" يلتفتـان نحوهما. فقط شممتُ عبيرًا مثل رائحة حـدائق فـيلات بورفـؤاد وشـوارعها المزهـرة اليانعة. وسألت نفسي هل ستتذكرني "هيام" بعد كل هذه السنين. كانـت آخـر مـرة رأتني فيها منذ أكثر من عشر سنوات. كنا أطفالًا صغارًا. سـنة ونصـف السـنة كانـت معرفتنا، في مكـان يكـاد يكـون اختفـى مـن عـلى ظهـر الأرض. قامـت عليـه حـرب

هُزِمنا فيها ثم حرب استنزاف ثم حرب انتصرنـا فيهـا. كيـف أقـع في الحـب مـرتين لـنفس البنت، ودائمًا بنظرة واحدة أولى قاتلة ساحرة مدمرة. لكن الآن أنا شاب كامـل النضـج مـن حقي أن أحب وأن أعترف بالحب وأصارع من أجله. كنـا في يـوم صـحو رغـم قـرب انتهـاء الخريف. كانت تحمل جاكيت تريكو سماوي اللون على يدها. أردت أن أستدير وأقول لهـا أتتذكريني يا "هيام"؟ هل تتذكرين بورفؤاد؟ هل تتذكرين الجنة يا حوائي الرائعة؟ ارتعشت وقد عصفت بي فكرة سخيفة ماذا لو لم أكن أنا آدمها؟ أي يقين ممكن أن يهتـز هكـذا؟ مـا هذا الخوف ما هذا الغضب؟ أمسك "شريف" بي قائلًا:

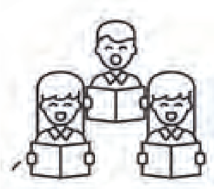
- ما لك ترتعش هكذا؟

أخذت شهيقًا عميقًا بهدوء كي أستطيع أن أجيبه:

- يبدو أنني قد أخطأت في عمل التجربة أمس.

- لا يهم.

حثنا "أردشير" على الذهاب. وبدأت بالنسبة لي سنوات من الحب والعذاب.



5



على عكس عادتهما، كان "شمس" في انتظار "سـها" في محطـة القطـار. كانـت تسـافر إلى الإسكندرية بمواعيد تكاد تكون ثابتة إلا فيما نـدر. قلـما انتظرهـا في أي مكـان. يؤلمها هـذا دون أن تصرِّح به لكنها تعودت عليه. هـا هـو يقـف عـلى رصـيف محطـة سـيدي جـابر في موعد القطار المعتاد تأخرُّه ربع ساعة على الأقل. جلس يتصفح جريـدة لا يقرؤهـا، ويتأمـل صورًا لا يراها ومانشتات لا تهمه حتى وصل القطار بتكرار الوصول الممل. أكان يتمنى عـدم وصوله؟ إذًا لِمَ جاء لانتظارها؟ وقف بلا زهور أراد إحضـارها معـه، لكنـه شـعر بأنـه سـيُزيد الأمور ربكة. مر على محل الزهـور، ووقـف طـويلًا يتأمـل الأنـواع الطبيعيـة تنفجـر بـالكلام عكـس شـخص مثلـه يكـاد يميتـه الخـرس. تتسـاند بجـوار الزهـرات الطبيعيـة زهـور مزيفـة أكتسـبت ألوانًـا لا حـق لهـا فيهـا وروائـح اصـطناعية مضـافة. ضـايقه رؤيـة شـابة

تشتري باقة من مزيف اللون والرائحة. استدار وقد مسه حنق خفيف على الشابة وامتعاض بيِّن من البائع. لكنه في انتظاره الآن يشعر بالارتياح لعدم الشراء. كان سيبدو زائفًا جدًّا ومرييًا أيضًا.

لمحها تترجل عن عربة القطار فظل يراقبها من مكانه البعيد وكأنه يريد أن يكتشف فيها شيئًا لم ينتبه إليه أو تغافل عن تبيانه. ظل يرنو إليها ويدقق النظر وهي تقترب منه دون أن تراه. لم تعد تشبه "قمر" أخته بعد فترة طويلة من تشبهها بها. ومع ذلك يبقى هناك شيء من تعلقها بقمر، شيء اكتسبته منها فتعلَّق بها وأضحى جزءًا من جوهرها، ربما كان موجودًا بها من قبل فأصقل بعد فترة من تقليدها إياها بتعمد وحب. ماذا لها منها؟ نفس الاعتداد بالنفس، نفس التأنق، نفس هيئة التحرك والمشي لكن ينقصها شيء.. غاص قلبه فجأة في ألم يعرفه جيدًا. ينقصها أو لنقل ينقصه "قمر" ذاتها. دنت أكثر. نضجتِ يا "سها". تذكَّر عندما شاهدها ترتدي فستانًا كان لـ"قمر" لأول مرة، أصابته حسرة وغضب كأنه قد انتُهك، كأنها سلبته شيئًا عزيزًا. غشته صاعقتان، واحدة مست الأمل والروعة وضربته الثانية بالألم الحارق وروعت باله. تهديد فاضح لسرائره. "قمر" تشرق أمامه، وتتهادى، "قمر" غير الموجودة جسديًّا. كان فستانًا مميزًا، لذا تذكره وهو الساهي عن أشياء كثيرة، ربما لهلة الهيئة التي تصورها "قمر". الحركات نفسها. كان متيقنًا أنها لا تقلدها إلا بعفوية المحب. كانت أقصر منها قليلًا. شعرها أغزر دون شك. ابتسم. كانت خفة شعر "قمر" تضايقها كثيرًا لدرجة أنها كانت تأخذه مثارًا للسخرية من نفسها. كان يراه يناسبها، يناسب خفة روحها وضحكتها وابتسامتها

وسريان البهجة الذي يشع من كل كيانها. من ساسك إلى رأسك. فترد ضاحكة: رأسي آه، ساسي؟ لا.. تمتزج ضحكاتهما وتصهلل فتنتبه "سها" مندهشة وتشاركهما الضحك حتى دون معرفة ما الذي يُضحكهما. اقتربت "سها" أكثر وما زالت لا تراه. اليوم ترتدي فستانًا بالأناقة نفسها فتلفت الأنظار إليها دون أن تدري. جميلة دون شك. قالت له مرة إنها مثل "قمر" تعشق الفساتين ورغم عملية لبس البنطلونات وسخافات المتحرشين لكنها لا تلجأ إليها إلا في الشديد القوي. تمامًا كما سمع "قمر" تقول ذات مرة التعبير نفسه والنبرة نفسها. تعجبه لامبالتها التى هي أقرب للسهو. ما زالت لا تراه. ربما كانت هذه اللامبالاة هي السبب في استمرار علاقتهما حتى هذه اللحظة. لكن ماذا بعد هذا الذي زلزل عالمه بظهور شمس جديد، شمسين؟ لا يعرف تأثيره على الآخرين، كيف ستستمر العلاقة؟ ثم هل هناك علاقة بين شمس (الآخر) وعلاقته هو بها؟ بـ"سها"؟ إنها مشغولة بنفسها عمَّا حولها. مشغولة بنفسها؟ أم يا تراه هو الذي ينشغل بنفسه؟ ألم تقل له في نوبة غضب عارمة أذهلته، موجة من السخرية والبغض واليأس: "أتعرف شيئًا... أنت... أنت لست.....". ثم صمتت وجلست تسحب شهيقًا بصعوبة وأكملت متهكمة: "علاقتنا هي أعمق علاقة سطحية بين اثنين". تفاجأ يومها فضحك للتشبيه رفعت رأسها تجاهه ورأت وجهه الضاحك، فظلت ناظرة إليه ثم أطبق عليها يأس تام منه، فضحكت هي الأخرى. ركع أمامها وأمسك بيديها الباردتين بين يديه وقال: "لا تقولي هذا". كان يعرف أن هذا التشبيه هو أدق صفة لعلاقتهما. فعلًا هي أعمق علاقة سطحية. كانت يداها ترتجفان فاقترب أكثر وحاول أن يضمها إليه لكنها أبعدته بحركة رقيقة من يدها كأنها تشتكيه له. كان قد

فقد انفعالاته العصبية المفاجئة التى كانت تبرق وترعد من سماء صحو في لحظة جنـون. وكأن الحزن الذي عشش داخله قد أزاحها مـن روحـه. حـزن أقـرب للحركـة الثالثـة مـن السمفونية الثالثة لـ"برامز". "برامـز" الـذي لم يكـن أبـوه يعرفـه، ولما صـممت أمـه عـلى اصطحابهم جميعًا إلى كونسير للبيانو، نطـق اسـمه خطـأ أمـام صـديقة أمـه التـي كانـت ستعزف تنويعات على لحن لباجانيني لـ"برامز". أعاد قائلًا: "برانـز". ربتـت أمـه عـلى يـد أبيه مصححة بحب وحرج أمام صديقتها: "برامز". هز أبوه رأسه مبتسـمًا ولكـن للعجـب كان يعرف أن باجانيني هو شيطان الكمان. تُرى هل الشياطين فقط التي تـُعرف؟ أم مـا الذي يفهمه طبيب ماهر يعشق الموسيقى العربية في موسيقى بعيدة عن أذنه وألحان لا تشجيه إلا فيما ندر، معظمها مما يسمع زوجته تعزفها في بعض الأحيان. صدحت مقدمة الحركة الثالثة و"سها" تتقدم أمامه بجوار القطار الذي بدأ في التحـرك ليواصـل إلى محطـة مصر. كفت عن ارتداء فساتين "قمر" أمامه وحتى حُليها أخفتهـا عنـه رغـم أنـه هـو مـن أعطاها إيَّاها. تترك بعضًا منها في منزلهما في الإسكندرية، لكن الأكثريـة في بيتهـا بالقـاهرة. أعطتها أمه الفساتين قائلة: "خذي ما تشائين، كلها جديدة وما لا يعجبك وزعيه".

في آخر الأمر لمحته عـن بعـد، للحظـة شـعر أنهـا تـرددت وكأنهـا سـتخطو للخلف خطوة ولكنها أكملت في اتجاهه. يؤلمها شكل علاقتهما رغم أنهـا هـي من اقترحت عليه هذا النمط الـذي وافـق عليـه دون تـردد. أخـذتها المفاجـأة برؤيتـه عـلى رصـيف المحطـة لسـببين: أولًا: ليسـت معتـادة عـلى رؤيتـه أول وصولها مما لا يعطيها فرصة للتأقلم بـين المحطـة وبيـتهما لتعـديل التشـويش

الذي ينتابها كلما وطأت الإسكندرية للقائه، كمن يحب الاستماع لإذاعة بالكاد يلتقطها من بلد غريب بلغة غريبة لكنها ممتعة لغموض معاني كلامها وطلاسم أغنياتها. كما حدث لها عندما لقطت بالصدقة محطة إذاعة يونانية يبدو أنها متخصصة في أغانٍ قديمة جدًّا، كأنها كانت تسمع أغاني الرعاة في جبال كريت من ألف عام أو يزيد. أو كما حدث لها مرة في رحلة مع الكلية حيث نزلوا في خيم على ساحل البحر الأحمر، وفي ليلة كان الجميع قد خرج للتنزه في المدينة كانت وحيدة تقريبًا في المعسكر ثم على حين غرة وهي تقلِّب في محطات الراديو ساعية وراء استئناس بصوت ما، سمعت من يقرأ قصيدة رائعة عن الموت والحب بصوت عميق ومن بعد زمني سحيق ظلت تتابعها ثم عرفت أن الشاعر اسمه "أدونيس" لم تكن قد سمعت عنه من قبل ورمح خيالها في تلك الليلة الصافية الهادئة والشعر الساحر، وحاولت تعرف اسم المحطة إلا أن التشويش أصابها سريعًا كأنها كانت رسالة لها أن تستمع إلى هذه القصيدة بالذات ثم تسلم الموجة للفناء. ظنت لوهلة أن خيالها هو الذي أهداها هذه القصيدة، لكنها تدرك أنها لا يوجد بداخلها روح شاعر قادر على هذه الكلمات المناسبة الشاعرية. كان حفظ اسم الشاعر سهلًا لأنه من الأساطير. ولما عادت من الرحلة عرفت من هو "أدونيس" من زميل سوري أعارها ديوان للشاعر، لم تجد به القصيدة ثم اشترت الطبعة اللبنانية بجزءيها لكنها لم تجد أي قصيدة تمنحها السحر الذي غشاها فانتابتها الحيرة هل نسيت القصيدة أم أن الأجواء الأسطورية التي سمعت فيها القصيدة هى التي منحتها هذا الجمال الملغز. وها هي تستعيد الشعور نفسه الذي انتابها وهي تستمع للقصيدة المبهمة في تلك الليلة البعيدة وهي تنظر إلى "شمس" الذي تفاجئت برؤيته. "شمس"

اللغز. مثل "شمس" الذي يقبع في الليل هذه الأيام. "شمس" الذي عرفتـه مـرة ثـم ضـاع ولا تزال تبحث عنه بعد أن يأست أن تجد قصـيدة "أدونـيس". السـبب الثـاني للخطـوة المترددة للخلف أنها كانت ترتدي فستانًا لـ"قمر". نعم من المؤكـد أنـه لم يـره مـن قبـل. كان من أغراضها الجديدة التي اشترتها لزفافها المرتقب الذي فشل عندما عرف العـريس تحكم الداء بها ولا أمـل في الشـفاء. كـان الفسـتان مـا زال في غلافـه البلاسـتكي وبطاقـة السعر والصنف ما زالت معلقة به. في القاهرة تكون على راحتهـا تلـبس وتـتحلى بـروح "قمر" أو أشيائها. لكن بالتفكير مرة أخرى ربما كانت تريد أن تؤلمه فعلًا دون أن تتعمـد أو تقصـد، لـذا ارتـدت هـذا الفسـتان. تحبـه دون شـك، لا تـزال تحبـه. لـيس الاعتيـاد والاعتماد النفسي لكن الحب. غير أن فتوره الـذي يقهـر المـرأة داخلهـا، يقتـل إحساسـها بالحياة، يجعلها تفور دون أن تعي. رفعت يدها تحييه مـن بعيـد كي تعلمـه أنهـا رأتـه، وابتسامة تطفو على وجهها اشـتياقًا حقيقيًّـا لـه وقشـعريرة لرؤيتـه في انتظارهـا. لكـن ذراعها خذلتها وكادت تتهاوى من فكرة صدمتها: "ألـيس هنـاك أمـل في حيـاة أقـل ألمًـا وتعاسة؟ أم نحن من نخلقها هكذا تشبهنا في كثير من الأحيان". لكن هل خلقت "قمـر" كل هذه التعاسة رغم ضحكاتها وروحها الخفيفة الرائقة؟ رفع ساعديه كأنـه سيحتضـنها من بعـد. تحبـه.. هـو منفسـها ورئتهـا. ماضـيها وكـادت تقـول مسـتقبلها لكـن الكلمـة سقطت منها في منتصف الفكرة. تعرف أن علاقتهما تنقصها مـن ناحيتـه الاتقـاد، بـاردة الحرارة، خامدة الحماسة، بلا شغف أو صبابة. عشق كشخصيات في مسلسـل تليفزيـوني لم يُكتب له النجـاح. هـي أحبتـه وأحبـت كـل مـن مِـن طرفـه وكـل مـا حولـه. تعـرف عـن عائلتـه أسرارًا يجهلهـا. أحبـت بيتـه القـديم في القـاهرة بأثاثـه وبلكونتـه بـل

والمدخل والسلالم الرخامية ومطعم السمك الذي تحته رغم رائحة الشواء السخيفة التي كانت تزعج الجميع. استندت على حنان أبيه كبديل عن أب لم تعرفه، تبسمت لما تذكرت كيف كانت تذهب قبل الامتحانات طالبة من أبيه أن يقرأ القرآن واضعًا يده على رأسها ويمسح ببطء على شعرها، كما رأته يفعل مع "قمر" قبل امتحاناتها.

أحبت أمه ورعتها. عشقت أخته بانبهار، أحبت كل هذه الأشياء قبل أن تحبه قبل أن تعرف أنها تحبه وتهيم به وتعيش له. ربما لا تحب بيتهما بالإسكندرية بالمقدار نفسه رغم أنه ما يجمعهما معًا ورغم أنه أساسًا بيت "قمر".

بدأ القطار في التحرك فخلخل رصيف المحطة.

ما لا تعرفه هي أنه أدرك بما هو فوق الإدراك أن الفستان فستان "قمر". ويجتر الفكرة: "سها" تهل وتطل وتبتسم كانعكاس صافٍ رائق لوجود مبهم. ثم تذكر هذا الجديد، هذا الشمس الصغير، من أنت ومن هو؟ من منكما الانعكاس؟ أجابه همس داخلي: أي احتمال وارد طالما نعيش في ظلام تام.

قالت وهو يخطف قبلة سريعة على خدها:

- ما أروعها مفاجأة! هل انهد العالم وانهار؟

أمسكت يديه بيديها قبل أن تنطق الجملة. تباعد مأخوذًا. بها شيء غامض مثل "قمر" تمامًا. هل من الممكن أن يكتسب الإنسان أجزاءً من روح أحبائهم؟ نعم انهد عالم وبُني واحد فوري غيره. شعرت بالرعشة التي هزت يديه. أبعدت وجهها عن وجهه سريعًا كي تنظر إلى عينيه ثم قالت وقلبها وجل:

- أحدث شيء؟

نظر إليها وعبرت عينيه موجة حزن عاتٍ. هذا طمأنها إلى حد ما. اعتادت على حزنه الذي لا يزال يغشى روحه ويطمرها بأسى. لكن تلك النظرة بها أكثر من حزن بها حيرة، احتياج، جنون. قلبت يديها وأمسكت بيديه وهدهدتهما بهزة رقيقة وابتسمت. وبدآ في التحرك للخروج إلى سيارته التي ركنها أمام مدخل المحطة.

ثرثرا في اللاشيء طوال الطريق وفي البيت تضاعجا بلهفة لم تعهدها منه منذ أول علاقتهما. كان هو يؤكد عالمه - الذي ارتج بالظهور الملغز لشمس الصغير - بهذه الحميمية التي افتقدها منذ زمن طويل.

بعدها استرخيا تاركين لجسديهما الفرصة لاستعادة الواقع والإحساس بالفردية والانفصال الذي يسمح للفرد بأن يتساءل. للحظات خمنت أنه يريد الافتراق عنها. قالت:

- ما لك؟ ما الأمر؟ وراءك الكثير الذي لا تنطق به.

أخذ شهيقًا طويلًا وكتمه للحظة معطيًا نفسه وقتًا للمصارحة ثم سألها:

- هل كنت تحبين حصة الرسم في المدرسة؟

خرجت منها تنهيدة ضاحكة وقبل أن تجيب أكمل:

- أو هل جربت أن تشفي على ورق كَلك صورة أعجبتك؟

هزت رأسها موافقة:

- نعم. مناظر طبيعية مثل جبال سويسرا أو بيوت نوبية، وكثير كثير من سعاد حسني.

لكنها خجلت أن تقول: وصورة قمر. كانت "قمر" تجلس على حافة نافورة صخرية دائرية جميلة في برشلونة أو برثلونة كما كانت تحب نطقها، في باحة جانبية من شارع "لاس رمبلاس" وتضع ساقًا على ساق وترتدي فستانًا سمنيًّا وصندلًا بني فاتح اللون وتعتمر قبعة قش بدوائر بنية بدرجات مختلفة. نظارة داكنة ودلاية دائرية بها فصوص ملونة على أطرافها. جذعها كله يميل إلى اليمين، إذ تستند بيدها اليمنى على السور. الابتسامة العجيبة سر الروح التي تشع منها.

صُعقت عندما كانتا هي وقمر تشاهدان آخر فيلم لسعاد حسني من عشر سنوات تقريبًا عندما همست "قمر" قائلة: مسكينة سعاد. وقد سمعت السيدة التي خلفهم تشهق عند ظهور سعاد لأول مرة في الفيلم، وشاب يصيح مرتاعًا: "يا نهار أسود". كانت تبدو متعبة تعسة مثل دورها في الفيلم، زاهدة في الحياة بعد ضياع أملها. سعاد التي تستعطف الرجل الذي تحبه ألا يتركها ويرحل. أي تعبير هذا! أي مشهد خرافي يا سعاد. بكت "قمر" ساعتها وشاركتها "سها" البكاء. قالت "قمر" وهي تقود سيارتها عائدة من السينما: "أنا أخاف على سعاد". نظرت "سها" إليها باندهاش. "سها" تعرف أن "قمر" و"سعاد" لهما يوم الميلاد نفسه. البرج نفسه والصفات نفسها. لكن ما أرعب "سها" أن تقول "قمر" هذا. ملأتها هواجس عن "قمر" وخوف مبهم عليها. على ما تمثله

من رقة وبث السعادة فيمن حولها حتى وهي تعيسة. لم تكن تعرف أنها ستفقد "قمر" وستختفي سعاد في الضباب والشائعات.

ولم تكن تتصور وهي في الفراش الآن مع "شمس" أنها بعد أسابيع ستنهار من البكاء مرة أخرى على رحيل سعاد. "سعاد" التي رسمتها كثيرًا كثيرًا مثل "قمر".

أكمل "شمس":

- سواء سعاد حسني أم بيت من النوبة، هل كنت دقيقة في الشف؟

- خط خط.. أنت تعرف دقتي. هذا طبعي.

هز رأسه وقد اعتدل قليلًا كي ينظر إليها.

- ألم يحدث أن تزحزح خط قليلًا عن شبيهه. اعوجاج بسيط في دائرة.

- صحيح أنا دقيقة لكن هذا لا يمنع حدوث عدم تطابق بسيط.

اقترب منها أكثر حتى دفن رأسه في صدرها، وضمها كأنه يختفي من شيء يطارده فضمته مربتة عليه كأنها تحميه من هذا المجهول.

- رأيت نفسي من عدة سنوات. رأيتني وأنا لا أزال في الكلية. عشرون سنة كأنها لم تمضِ.

لم تعلِّق. ما يقوله عادي، كثيرًا ما تتراءى لنا ذكرياتنا لتفرحنا أو لتؤلمنا. لكنه أكمل القص وحكى لها ما رآه وتأكد منه. لقاؤه وحديثه مع "شمس".

استمعت إليه، لم تكذب ولم تصدق. أصبح كلامه خليطًا غير مفهوم متشابكًا من علم ووهم وصوفية. كلام يؤمن به وكلام ينكره. حكى لها عن

كتاب "شمسان" ومؤتمر لندن بجمل مبتورة لا تكاد تفهم منها شيئًا. ثـم تكلـم عـن ذكريـات تنهكه وتسعده. أشفقت عليه وخافت أن تخرجه ممَّا هو فيه.

كانت ستارة الشباك تتحرك مع النسيم حركـة بسـيطة ثـم طـارت فجـأة فانكشـف المغرب خارجها ورأت حمامة طائرة لثوانٍ ثم انبطت الستارة مرة أخرى وهمدت. رغـم عمليتها في حياتها وبراجماتيتها فإنها في جزء ما من روحها تؤمن بعوالم خفيـة تـأثرًا بـلا شك بـ"قمر". لو كانت "قمر" براجماتية مثلها لما رحلت وتركت كل شيء. هـي قاومـت أن تكون مثلها في هذا الأمر تعلمت صغيرة أن تحمي نفسها بهذه العملية، بالبعد عـن الرقة الزائدة التي تقصم العمر. أتتكلم معه عن "قمر". هل تأتي بسيرتها الآن؟ هل هذا ظرف مناسب؟

هو طبعًا لم يقل لها قصده من التعرف على شمس الصـغير. لم يـأتِ بسـيرة "هيـام" عـلى الإطلاق. كان يود أن يحكي لها لأنها أساسًا صديقته، بغض النظر عن علاقته بها. لكن ليس من العدل أو الرحمة أن يأتي بسيرة "هيام" التي تعرفها جيدًا من حديثه في أول تعرفهما؟ هل من الممكن أن يقول لها إن القدر قد منحه فرصة لا تعوِّض بأن يعدل ما تم، أن يغير تاريخـه؟ أن يحاول ولو محاولة أن ينقذ حياته بالاقتران بمن أحبها وما زال يحبها؟ "هيام".

- أفكارك متضاربة.

هز رأسه موافقًا وقال:

- عندك حق. أريد أن أستريح. سأغفو قليلًا علَّني أستعيد القدرة على التفكير.

رقد على ظهره شاعرًا بالإنهاك يضعضع عضلاته كلها، كأنه يعدو في ماراثون بلا خط نهاية. قامت عن جواره وارتدت الروب دي شومبر وخرجت إلى البلكون لتشاهد السماء. كانت تتمنى أن يكون الجو أكثر لطفًا وأقل رطوبة. رغم رحلاتها المكوكية من وإلى الإسكندرية، لم تعتد قطُّ على الرطوبة العالية. جلست على الكرسي البامبو لتدخن سيجارة من علبة السجائر التي وجدتها بالصدفة في جيب الروب. تذكرت أول مرة رأت "شمس" فيها. كانت في العاشرة من عمرها عندما شاهدت "قمر" ذات الخمسة عشر ربيعًا لأول مرة. كانت "سها" تنتظر أباها في البلكونة لما خايل نظرها نقط حمراء تتلاعبها عن بعد. كان فستان البنت التي تسكن في عمارة مقابلة. الفستان ناصع البياض بنقط حمراء بحمالاتين وفيونكة حمراء على كل كتف، وحزام رفيع وجونلة أقرب لطراز الكلوش الشبيه بالجرس لدقة الوسط. كانت الفتاة تنظر إلى الشارع وابتسمت لرؤية شخص ما. في هذه اللحظة قررت "سها" أن تصبح مثل هذه الفتاة التي أنارت الكون. أرادت أن تطير إليها، وتصادقها، أن تلعب معها. وتخيلت كل نقطة بالونة حمراء تطير حاملة هذا الملاك المبتسم. تمنت فستانًا مثل فستانها. تمنت أن تكون الدنيا شبهها. لم يكن الشارع عريضًا مثل معظم شوارع مصر الجديدة. ودت لو تمد يدها لتلامسها، وللعجب رفعت الفتاة رأسها فرأت سها تمد يدها فتصورت أنها تشير لها مرحبة، فاتسعت ابتسامتها تملأ وجهها كله وحيتها بإشارة سريعة من يديها. أي سعادة يا "سها"!

انشرح قلب "سها" وهي تتذكر "قمر" التي كانت تبتسم لها عن بعد.

تظن الآن بعد كل هذه السنين أن "قمر" كانت تنتظر "شمس" ساعتها. هي شبت على أطراف أصابعها كي ترى من الذي تنتظره هذه

الفتاة فرأت شابًا سرعان ما دخل بوابة البيت ودخلت "قمر" بعده بعد أن منحتها ابتسامة ثانية. بالنسبة لطفلة في العاشرة كانت هذه بداية الإدراك أن الحياة ممكن أن تكون حياة حقيقية أو خيالية. وجود "شمس" لم يبهرها ولم يلفت نظرها وقتها. شاب في التاسعة عشر من العمر أو ربما العشرين مر مرور العابرين، ثم انتبهت لما أهدتها الطبيعة الأنوثة في وقتها الصحيح فرأت شابًا وهي صبية. وليس فقط شاب، بل من؟ أخو "قمر". "قمر" آلهتها المفضلة وتعويذتها ضد آلام الفقد المتتابع. في ذاك اليوم كانت تنتظر في البلكونة أبًا لم يحضر ولن يحضر. قالت لها عمتها: "أبوك دائمًا مشغول لا تعتبي عليه". يتيمة الأم وتكاد تكون يتيمة الأب. تعيش مع عمتها. انتظرته كثيرًا ولما أصبح حضوره نادرًا فعلًا، قررت أن تتناساه. حسن إن جاء، ولا مانع من عدم حضوره. تهتم بها عمتها بدرجة معقولة. ولما شبت "سها" ونضحت عرفت مقدار اهتمام عمتها الحقيقي بها وتعلقها الشديد بها. كانت نعم الأب والأم. كانت "سها" لا تزال تعيش خيبة اليتم عندما رأت "قمر" ثم ويا للمفاجأة عندما لمحتها معها في المدرسة. كانت في خامسة ابتدائي و"قمر" في أولى ثانوي.

تناهى لسمعها حركة في الغرفة ثم صوته كأنه ينادي من تحت الماء. كانت الشمس قد رحلت وحل ظلام مريح مخدر واختفت الرطوبة وداعبها نسيم منعش. سحبت نفسًا سريعًا من سيجارتها الثانية ثم سندتها على حافة طفاية على منضدة البلكون. سمعت صوت تنفسه المنتظم فظنت أنه انسحب للنوم مرة أخرى لكنه قال:

- انتبهي للسعة البرد، وأنت سريعة التأثر بتغير الجو.

ردت:

- الجو لطيف جدًّا.

مد ساعده ليمسك يدها. ترددت في الاقتراب منه، ما تزال تريد الانفراد قليلًا فقالت متحججة:

- سيجارتي مولعة بالبلكون.

حجة سخيفة وتكاد تكون طفولية كمن يتهرب من الواجب المدرسي بأن فيلم الكارتون لم ينته بعد. تداعى الساعد الممتد وهو يقول:

- إذًا أنهيها.

ثم أضاف:

- أنا أكره "الهباب" الذي تشربينه.

خرجت مرة أخرى للبلكون وقد ضايقتها كلمة "الهباب". تركت السيجارة تحرق نفسها بنفسها. لم تكن شرهة إلى التدخين. ولولا أنها وجدت العلبة بالصدفة في جيب الروب ما دخنت الآن. تحترق السيجارة ببطء بومضات خاطفة من اللهب حتى صارت عمودًا واهيًا من الرماد المتماسك فأصبحت تشكيلًا من الوهم والهباء، وهم سيجارة متقدة. ثم انهارت فجأة تحت وطأة هشاشتها المكتسبة. تذكرت مقالًا قرأته لأحد الكتَّاب قبل انتحاره بأيام يُحيي فيه إرنست هيمنجواي. أتت بالمجلة التي قرأت فيها المقال معها من القاهرة وكانت ستريها لـ"شمس" لمعرفتها أنه لا يقدِّر "هيمنجواي" كثيرًا. المقالة موضوعة في حقيبتها. لن تريها له بعد ما حكى لها عن ظهور شمس الصغير.

ستترك المجلة هنا في البيت. تومض السيجارة بآخر نفس لها على حافة الطفاية. مطت "سها" شفتيها بامتعاض وفكرت أن علاقتهما ستنتهي دون شك. ترى ما الحقيقي فيما قاله لها. وإن كان هذا قد حدث فعلًا وتداخل عالم مع عالم آخر، ما علاقتها هي بهذا الأمر؟ كما لو أن كل شيء يسير كما يجب دون التقاء هذين الشمسين! ما الذي يقحمها هي في هذا الأمر؟

"شمس" الذي كانت تراه إلهًا جميلًا من بلكونتها يسكن مع آلهة أخرى. كانت شقتهم بالنسبة إليها كأعلى قمة في جبال الأولمب. كان الكتاب الأول الذي أهدته إليها "قمر"، عن الأساطير اليونانية. عالم فتنها. هذه البلكون التي تراها عن بعد هي ملاذ ربتها الجميلة قمر. وعندما تصادقتا (سها وقمر) أصبحت بالنسبة إليها الربة الأم أيضًا رغم أن "قمر" لا تكبرها سوى بخمس سنوات، فامتزجت الربة القمر مع الربة الأنثى مع الربة الأم في كيانها. وطبعًا للقمر أخ شمسي. اكتشفته بعد فترة من الانبهار بالقمر. شمس يصهر، شمس يدفئ، شمس ينير، شمس يبني. لم تحلم يومًا بالاقتران به. كان بعيدًا وقريبًا في الوقت نفسه. في أقل من سنتين تزوجت وترملت ثم تزوجت لتنفصل ثم يظهر "شمس" من جديد لكن للأسف رحلت "قمر" وتركتها في ليل حالك. رحلت "قمر" وتركتها بلا دليل. أصبح شمسًا آخر كأنه ليس هو. أفول تام لكل الآلهة. لم يبثها ألمه إلا مرة واحدة فقط بعد سنة من رحيل "قمر". كانت تظن أنه يواسيها لمعرفته بمقدار ارتباطها بـ"قمر" إلا أنها اكتشفت أن الشخص الذي بدا متماسكًا لمدة سنة ينهار أمامها حتى كاد أن يموت أمامها فجأة

من البكاء والنحيب. وكأنه سحب كل حزنها على "قمر" منها، تساميت وتعالت وفهمت أخيرًا كيف احتملت السيدة وادي فقد ابنتها الوحيدة.

قمة الأولمب انتهت.

عادت الذكريات تلعب بها كما يلعب نور الشمس الغاربة بألوان السماء التي تشاهدها. بعد رحيل قمر، أصبحت "سها" من يهتم بشئون السيدة وادي والدة شمس وقمر. وباتت حياتها كلها تردد بين بيت السيدة وادي وبيتها. وفي أيام العمل ترتب لها كل ما تحتاجه وتتصل بها يوميًا للاطمئنان. شعر "شمس" بالامتنان لهذه الفتاة التي أصبحت أرملة ومطلقة ولم تتعد الخامسة والعشرين من عمرها. في نهاية الأمر قررت السيدة وادي أن تعيش في بيت للمسنين على أطراف مصر الجديدة. اعترض كل من "شمس" و"سها"، غير أنها كانت قد اتخذت قرارًا لا رجعة فيه.

"بع الشقة" قالت لابنها: "لك شقتك الآن في الإسكندرية".

أراد أن ينهي علاقته بحي مصر الجديدة وميدان سفير. لولا أن بيت "سها" كان قريبًا لما دخل هذا الحي مرة أخرى نهائيًا. وأصبح الماضي كله نثارًا من بقايا بورفؤاد وحديقة أنطونيادس وجامعة الإسكندرية وأيام كثيرة كئيبة قضاها في لندن.

قال "شمس" بعدها لـ"سها" وهما يقفان في بلكونة الشقة الخاوية قبل أن يستلمها مشتريها الجديد:

- أنا آسف لتجشمك هذه المشقة. لكني الآن أصبحت وحيدًا تمامًا. أنا معلق في الهواء منـذ رحـيلهم جميعًـا وماما قـررت الانعـزال تمامًـا في مقـام النسـيان وتـدهورت حالتهـا بالألزهايمر.

ردت عليه "سها":

- عجيب فعلًا. كانت متماسكة تمامًا ثم ما إن قررت العيش في بيت المسنين حتـى بـدأت الأعراض. كأنها ما إن عزمت أن تعتزل إلا لتبدأ فورًا في النسيان.

فارتعش صوته وهو يرد:

- نعم. لا أعرف لِمَ أعيش حتى الآن. بالأصح لا أفهـم كيـف مـا زلـت أعـيش بعـد قمـر بالذات.

ربتت على يده بلطف لتبدأ قصتها الواقعية بهذه التربيتة.

ها هو ينام على بعد خطوات منها ويحلم بشمس شاب يافع ينقذه من إحباطه وربما من إحباطها. مرة عندما كانت في العشرين من عمرها كانـت تراقـب في شـغف "شـمس" من بلكونة مصر الجديدة عنـدما دخلـت عمتهـا عليهـا فلاحظـت مراقبتهـا لـه فدنـدنت بأغنية أم كلثوم التي تعشـق أغانيهـا القديمـة: "يـا نسـيم الفجـر". غنتهـا بشـقاوة عينـين وضحكة كلمات. فالتفتت إليها "سها": "أي نسيم فجـر يـا عمتـي. ذلـك الشـخص أعاصـير الليل".

ضحكت عمتها وبين نهر ودلال قالت: "عيب يا بنت. أعاصير الليل؟ قلة أدب".

ورغم أن "سها" كانت تعترض فقط على الطريقة القديمة التي علقت بها عمتها، فإن صوت دلالها ونهرها جعلتها تتصوره كإعصار في ليل العشق فعلًا. فبدا بالنسبة لها، رجلًا فحلًا ممتعًا في الفراش. كان يرتدي قميصًا خفيفًا من الكتّان وبنطلونًا رياضيًّا يكنيان عن جسد متناسق فتيٍّ.

في نظرها كان جميلًا جمالًا لا حدود له.

كانت تشعر أنها مثل الآلات مصنوعة من مواد صماء في انتظار من يجعلها تضوع طيبًا وألحانًا تهز الأرواح. مع زوجها الأول فرق العمر كان كبيرًا ومع زوجها الثاني لم يكن الشغف أو الحب موجودًا. كانت في انتظار شروق الشمس. كانت تظنه أبوللو الذي سيعزف عليها النغمات السماوية، ولما ارتبطت به خاب ظنها عندما وجدته هو الأصم. وقررت أن تصحيه، أن تحييه من جديد. وكلما شعرت أنها اقتربت من هدفها يسيل الوهم ويغمرها باللاشيء ثم الإحباط. ثم تستعيد حبها لوهم أعاصير الليل الذي ينبعث كعنقاء تأبى الفناء فتلعن عمتها من وراء قلبها لأنها بكلماتها البسيطة فتحت لروحها حلمًا مستحيلًا.

فقط اليوم استعادت حلمًا كانت قد قربت من أن تيأس في تحقيقه. جسد مفعم بالحياة والرغبة والجمال. ولما قص لها ما حدث لم يهمها إن كان هذا تهيؤات أو حقيقة إذا كانت النتيجة هي الجائزة الكبرى. يانصيب العشق. ولكنها كأي إنسان حقق ما يربو إليه بعد طول انتظار ورغبة أصابها هلع داخلي ألا يحدث ما ذاقته مرة أخرى. هذه الغيوم التي تجمعت لتحجب شمس حياتها هل تعود من جديد ومن يثق في رفة الفراشات في بكين؟

6



شعور ملتبس به لذة خفية كأنه سيقابل حبيبة قلبـه. كأنـه عـلى موعـد غرامـي، date، موعد غير مضمون العواقب. يتذكر أول date كما يسمونه الأجانـب وهـو يـدرس في لنـدن. كانت زميلة من تركيا اسمها نيهان شديدة النقاء والعند. وعرف أنه انجذب لها لوجود شبه كبير بينها وبين "هيام" ببياض بشرتهـا وسـواد شـعرها وعسـلية عينيهـا الواسـعتين وتناسـق قدها. علاقة سريعة عاصفة لم تصل إلى شيء وكانت في نهاية الأمر مضحكة.

تحت الدش، أكد لنفسه أن عليه أن يرأف بالولد الصغير الذي سيأتي بعد قليـل وأن يبث الطمأنينة في قلبه كما يزرعها هو في نفسه. ويجب ألا يخبره بأي شيء على الإطلاق على الأقل في هذا اللقاء. عليه أن يخفي كل الصور الموضوعة على الحـائط والمتنـاثرة في البيت. خاصة أن معظمها مع العائلة في بيتهم في القاهرة. وحتى صور بورفؤاد.

كان والدهما قد اشترى هذه الشقة بالتقسيط كمصيف ثم كتبها لـ"قمر" عندما كانـت ستنتقل بعد الزواج مع نبيل إلى الإسكندرية. عنـدما سـكنتها "قمـر" وضـعت صـورًا أبـيض وأسود في أطر ذهبية كثيرة صغيرة على الحائط في غرفة المعيشة، للعائلـة كلهـا. مـن أول أم جدتها "برلانتا هانم" لجدودها، ووالديها وأخوتهما. صور تزيد من الحنين إلى زمن لم يعش. لا يعرف شمس الصغير أي شيء عن هذه الشقة التي ستكون في مستقبل لم يحِن بعد.

ما إن أنهى حمامه حتى هرع لإزالة ما قد يربك الشاب القادم. لم يترك سـوى صـور أوروبا وصوره مع "سها". كان البيت يُعاد لنظافته وترتيبه كلما حضرت "سـها". همهـم: "لولا "سها" لكنت كرجل الكهف". حضَّر عصـير ليمـون مراهنًـا نفسـه عـلى أن الصـغير سيرحب بشربه. وفي انتظاره تجرَّع كأس نبيذ أحمر.

جاء "شمس" في موعده كما توقـع الكبـير. دخـل خجـلًا وجـلًا. كأنـه مـدفوع دفعًـا للمجيء. احمرَّت وجنتاه قبل أن يجلس. يعرف الكبير مظـاهر اضـطرابه. يسـهل عليـه الأمر بتعمُّد عدم ملاحظتها.

يجلس "شمس" على حافة المقعد، يمثِّل أنه مرتاح لكنـه قلـق للحـق. شيء مـا يجذبـه لهـذا الرجـل. يريحـه ويبلبلـه في دُفقـة واحـدة. يفطـن الكبـير أن "شمس" غلباوي مع أصدقائه القليلين وأمام البنات عدا "هيام"، أمَّا عـدا ذلـك فهو خجـول وحيـي وأقـرب للانطوائيـة. جعلـت هـذه المعرفـة الكبـير يشـعر أنـه يلعـب لعبـة يـتحكم فيهـا ويعـرف دواخلهـا. لكـن أصـحيح هـذا؟ هـل

يستطيع أن يصل إلى نفسه سابقًا الكوارث التي لحقت به... طيران "قمر" وفقد "هيام"؟

- أتريد أن تشرب شيئًا؟ آتي لك بعصير ليمون.

هز الصغير رأسه موافقًا.

ما إن دخل "شـمس" الكبـير المطـبخ حتـى أدار الصـغير نظـره سريعًـا في الشـقة كي يكشف خبايا صاحبها. ذوقه يناسب إحساسه بالجمال. فكَّر أن هذا الذوق يشـبه ذوق "قمر" كثيرًا.

أتى صوت الكبير من المطبخ.

- العنوان سهل؟

- أنا أعيش في سكن الطلبة هنا في سموحة.

- إذًا نحن جيران.

ظهر مرة أخرى وأَزاد:

- هذا رائع. بالتالي يجب أن تزورني كثيرًا.

أخذ الصغير نفسًا طويلًا ولم يُجِب. فقط هز رأسه في حركة بين النعم واللا. ثم سأله وهو يتناول عصير الليمون:

- أتعيش وحيدًا؟

- تقريبًا.

عبس الصغير قليلًا:

- آسف. ألست متزوجًا؟

- متزوج. بلى. تعمل زوجتي في القاهرة.

مد الكبير يده وتناول صورة من جانبه:

- هذه زوجتي "سها". تعمل في مجال التصميم الفني.

فكَّر الصغير أن وجهها مألوف له. وتعجب أن كل ما يرتبط بهذا الرجل يبدو مألوفًا. كأنه قد شوهد من قبل. وكرد فعل لهذه الألفة التي آنسته حلَا طعم الليمـون في فمـه أكثر فقال:

- الليمون رائع. تسلم يديك.

- بالهناء والشفاء.

دردشا عن أحوال الكلية والدراسة. كلام عام يكاد يكون بلا معنى. ثم صمتا لفـترة. قام الكبير قائلًا:

- سأحضر شيئًا من الداخل.

أراد أن يهدأ قليلًا، وينسحب ليرتب أفكاره. كيف سيتصرف بعد قليل. اختفى لمـدة دقائق ثم عاد ومعه ألبوم صور ووضعه على المائدة.

كان "شمس" الصغير يقف بجوار النافذة يطل على حديقة الحيوان وحديقة أنطونيادس. المشهد أمامه ممتد، يوحي بوجود الحيوانات لكنها مخفية عنه. يراها كغابة يسمع كل فترة منها زئير أسد ما حزين ملتاع. أمَّا "شمس" الكبير فكان يتحرك ببطء ويدور في الشقة بلا هدف كأنه تائه في غياهب غابته الخاصة.

كلاهما في ذات اللحظة كان يفكر في قمره. الصغير يضحك داخليًّا عندما تذكر حب "قمر" للحيوانات وخوفها الفظيع من الحشرات بجميع أنواعها. لأنه تربى في فيلّا بورفؤاد كان معتادًا على كل أنواع الحشرات والكائنات التي توجد في بيوت بها حدائق، بينما تنبهت حواسها في شقتهم في بورسعيد ثم القاهرة. يسخر من رعبها لأنها لم تألف قطُّ حشرات الحدائق.

التفت إلى الكبير وقال له:

- أختي تكره الحشرات وتخاف منها كثيرًا.

هز الكبير رأسه موافقًا. يعرف هذا. وتذكر مرة حكت له أنها كانت في البيت في القاهرة وحدها ثم دخلت حشرة فرس النبي أو أبو دقيق كبير داكن اللون، وكيف أنها ارتعبت وحاولت تنادي البواب ولم تجده، ثم اتصلت بـ"سها" مستنجدة التي أتت بعد ثوانٍ ومعها جار لها يوافقها في السن وهو الذي هش الحشرة خارجًا ثم استأذن منهما للرجوع للبيت حيث يكمل ما عليه من واجبات للمدرسة.

لم يقتل "شمس" نملًا قط، كان يهشه بفوطة أو يزيد من المنظفات حتى يتخلص منه دون قتله، لكن بعد رحيل "قمر" انتابته رغبة مخيفة في سحق كل نملة يراها. كان ينظر لنفسه كأنه قدر قاسٍ قادر على سحق أي كائن ويشعر بقوة ويمحق كل شعور بالحزن عند دهسه لنملة مسكينة تبحث عن رزق لها. يجد لذة في تصور تدمير الكون كله. فلينههِ. لكن ستظل الشمس تشرق يوميًّا. الكون عمره 12 ونصف مليار سنة والشمس عمرها 4 ونصف مليار سنة والإنسان نحو 200 ألف سنة، فما قيمة الحزن سوى الإدراك المثقَل السخيف للعقل البشري.

أمسك الصغير بتمثال صغير موضوع فوق البيانو تأمله قليلًا، لاحظ أن التحف على البيانو غير منتظمة كأن شيئًا ينقصها مثل الحوائط التي من الواضح أن صورًا كثيرة لم تعد موجودة في مطرحها. جلس على كرسي البيانو وفتح غطاءه.

اقترب الكبير واستند على البيانو ثم قال:

- أنت تعزف أليس كذلك؟

- كيف عرفت؟

- من شكل أصابعك.

- بدرجة معقولة. كانت أمي تعلمنا بعض الأشياء. أختي هي من أكملت في دروس الموسيقى. أنا انشغلت منذ أن دخلت كلية الطب، لا أعزف إلا معها في بعض الأحيان لما أكون في القاهرة.

مر الصغير على حز البيانو بيده ثم قال مندهشًا:

- يكاد يكون هذا البيانو توءم البيانو الخاص بأمي في القاهرة.

بلع د. "شمس" ريقه وسأله:

- أتحب عزف الموسيقى؟

هز شمس الصغير كتفيه:

- أختي أقدر مني على العزف لكنها ليست في مستوى أمي. أبي لا يهتم كثيرًا بالموسيقى الكلاسيك، يحب الموسيقى الشرقية، خصوصًا عبد المطلب ونجاة. أعزف عندما أكون في القاهرة حتى لا تتيبس أصابعي خصوصًا مع تشجيع أختي.

همس د. "شمس":

- "قمر".

شحب الصغير لما سمعه يهمس باسم "قمر". شعر كلاهما بوخزة ألم في صدره وكل منهما تتراءى له ضحكة "قمر". "قمر" التي أوحشت الاثنين ولكن شتان شتان. بين وحشة العدم ووحشة الشوق.

مال "شمس" على د. "شمس" وقال له:

- هل قلت "قمر"؟ كيف عرفت اسم أختي؟

وبدأ الشك يربك "شمس" الصغير، من هذا الرجل؟ هل أنا مراقب بشكل ما؟ بدأ القلق يسحقه لكنه تمالك نفسه وبحذره الطبيعي وأدبه المتأصل فيه انكمش داخليًّا كي يحمي نفسه وبذات اللحظة بدأ عنفه الداخلي يرتع حتى كاد أن يفجِّر المكان، وودَّ لو كان في يده آلة لحطَّم بها هذا الرجل ودشدش رأسه حطامًا. تصوَّر السجادة تحتهما تتشرب الدم الذي ينسال منه وتزداد البقعة اتساعًا ببطء مسلٍ ومنوِّم حتى تغطي نقوشها الجميلة.

انتزع الآخر نفسه من قوى العذاب وفزع الروح وابتسم كأنه يطمئن الصغير، فلم يحن الوقت بعد للمجاهرة باللامعقول:

- أنت شمس مؤكد أختك تكون قمرًا.

وبحنكة وحذق تساءل:

- اسمها فعلًا "قمر"؟ يا لي من مصيب. ذكي أنا أليس كذلك؟ قلتها تشبيهًا.

بدأت رقة قمرية تهدهدهما وتغلف المكان وتهدئ التوتر الذي حدث وتنزل السكينة عليهما فأصبح الاثنان مأمونين. وتراءت للصغير "قمر" ضاحكة وسمع ضحكتها تملأ فراغ الغرفة كلها كما ملأت روحه ولعجبه رأى انعكاس هذا في عين الرجل الغريب الذي يجلس أمامه كأنه هو الآخر مسته هذه الرقة وألانه هذا اللطف.

وبشكل مذهل، جعلت ضحكة "قمر" شمس الصغير يصدق ما قاله له الغريب، رغم أن "قمر" نفسها ما كانت لتصدق ولو حلف لها على كل المصاحف.

جلس شمس الكبير بجواره على مقعد البيانو؛ فقال له وكأنه يبوح له بسر:

- "قمر" لا تحب اسمها. كانت تراه قريبًا للبلادة. لكني أراه رائعًا.

أكد د. "شمس" الكلام:

- هو رائع دون شك.

شع وجه الصغير قائلًا:

- أدلل "قمر" بعدة أسماء... قماميرو.ميرو، ميرا، مرايا، مراميرو...

- ما أجملها.

أمسك د. "شمس" كأسه ورفعها فتخبطت مكعبات الثلج. وأكمل:

- تحية لها..

لمس الكبير بعض أصابع البيانو ودق بإصبعه عدة نغمات متلاحقة ثم توقَّف. كان يستدعي الذكرى الجميلة المتوهجة ليوم بعيد في القاهرة.

سأله:

- هل تعرف شيئًا نعزفه معًا؟

فانتبه الصغير للنوتات التي عزفها الآخر وقال:

- شوبرت؟ أليس كذلك. "فانتازيا في فا مينور". Fantaisie en Fa mineur

هز الكبير رأسه وقال:

- لأربع أيادٍ.

ثم بدعوة من عينيه للمشاركة، وضع الصغير يديه على لوح المفاتيح ثم قال:

- أتلعب بريمو أم سكوندو؟

- لا يهم. كما جلسنا نلعب.

لكنه قبل أن يبدأ في اللعب التفت إلى الجالس بجـواره وقـد كـان الوجهـان قـريبين جدًّا حتى لتكاد الأنفاس تتشارك وقال:

- عجبًا لك. إنها المقطوعة نفسها التي أفضِّل لعبها مع "قمر".

ابتسم الكبير وبدا الإرهاق على محياه ثم بدأ العزف، لحقه الصغير.

كان عزف "شمس" الصغير أكثر جرأة ومرانًا عن الكبير الذي قلَّما كان يستعيد مرانه بالعزف بعد فقد "قمر".

تلعثما في أول الأمر ثم انضبط عزفهما لكن بعـد عـدة مـوازير ارتعشـت يـد الكبـير فخرجت عدة نغمات نشاز، ففتر للحظة ثم سحب يديه ووضعها على ركبتيه.

استمر "شمس" الصغير يلعـب بعـض النوتـات ثـم سـكت هـو الآخـر، في أول الأمر كان سعيدًا وكأنـه يلعـب بجـوار "قمـر" التـي أوحشـته لوجـوده

بعيدًا عنها لأكثر من شهر، أما الكبير فكان الفقد التام هو الذي أوقفه. يتلهف الصغير لكن الكبير يقتله العدم.

ينتاب "شمس" الكبير رعشة يشعر بها الملاصق له فيتأثر ويحتضنه كأنه يواسيه وقد أصاب قلبه غم لا يفهمه، وضيق أنه لبى دعوة لزيارة شخص مجهول يشعر تجاهه بشعور غريب ملتبس. لم يتحرك الكبير وظل متخشبًا فشعر الصغير بالحرج فقام وابتعد. ورجع للوقوف أمام النافذة مرة أخرى. قرر الكبير أنه لن يحتمل إخفاء الأمر أكثر من ذلك. بعد كم مرة سيقول له الحقيقة؟ هذه أول مرة يأتي له إلى المنزل وربما لا يستطيع أن يقنعه بالمجيء مرة أخرى. قام واقترب منه فانزاح دون قصد الصغير جانبًا.

- "شمس" أريد أن أخبرك بشيء.

فكر الصغير: "نعم. إذًا.. هكذا... يكون لما يحدث الآن سبب".

التفت إليه قائلًا:

- نعم.

في صوته وجل وتحدٍ.

تلجلج الكبير للحظة. ثم قال:

- "شمس" أنت تعرفني. أنت تعرف أنك تعرفني.

هز الصغير رأسه غير فاهم. همهم:

- لا. أنا لا أعرفك. لقد تلاقينا بالصدفة.

أخرج الكبير بطاقة الهوية من جيبه. وناولها إليه.

أمسك "شمس" بالبطاقة بطرف أصابعه كأنه سيمسك بجمرة. مر على الاسم عدة مرات دون أن يراه لكن رسمة الاسم كانت قد اخترقت كيانه. والصورة صورته. هذا تاريخ الميلاد.

هز رأسه عدة مرات والغضب هو ما يعتمل في نفسه أكثر من أي شيء آخر.

أول خاطر مر به هو أن لو كان هذا صحيحًا فـ"هيام" ليست له. وحياتهما ستنفصل. بل إن هذا الشخص تعيس جدًّا. أهذا هو الـ"ما سيأتي"؟

لا! انفصل عقله عنه. ليس صحيحًا. لسنا في فيلم. هذا ليس واقعًا. إن الشخص الماثل أمامي نصَّاب أو حتى وهم. الأمثل أنني أختلق كل هذا لجنون بي، جنون يحل كالصاعقة يحل كالقضاء، هذا أفضل من أي واقع مجنون.

قال الثاني:

- أعرف عنك كل شيء.

تباعد "شمس" عنه.

اقترب الأكبر:

- "شمس".. لا تخف. أنا نفسي لا أفهم ما يحدث، لكن فلنأخذ الأمر كأنه منحة سماوية لا تعطي لأي شخص. منحة لنعرف كيف نسيطر على حياتنا.

تنمر متراجعًا للخلف:

- ابتعد عني.

كل الكره الذي يشعره "شمس" الآن لهذا الغريب لا يحتمله قلبه الغر.

- اسمع... وحياة "قمر" وحياة "هيام". أنا أنت. لا أعرف كيف. أنا دكتور لا أؤمن بالغيبيات وعقلي مرتب وعلمي. لا أؤمن بالخزعبلات. أنت ما زلت تؤمن بها وربما تؤمن بأشياء أخرى فقدتها أنا مع الحياة. أنا أظن أنني حتى لا أؤمن باللـ..

علا صوت الصغير مقاطعًا:

- لا أحب أن أسمع ولا أحب أن أعرفك، حتى ولو كنت أنت أنا.

اقترب الكبير أكثر وهو يشعر أنه الأدرى بنفسه، وكيف يتعامل معها. لكنه رأى غضبًا عارمًا في عين الصغير. غضب يعرفه جدًّا، غضب لن يوجَّه لأي شخص سوى نفسه. قد يدمِّر نفسه لأنه غير قادر على أذى الآخرين.

- ابتعد أقول لك.

بدأ الكبير يغني ببطء:

- "أختي حبيبتي الأخت الأصغر، يوم ورا يوم عمالة بتكبر".

- اسكت.

- أنت تعرف أنك الوحيد الذي يغنِّي لها هذا.

- أنت مجنون. أنت تتجسس عليَّ.

ثم دارت عينا "شمس" الصغير في الغرفة كأنـه يسـتنجد بعقلـه عـلى اللامعقـول. هـذ الغرفة يعرفها. نعم يعرفها حتى ولو لم يرَها من قبل. هـذا المكـان مـألوف لـه دون شـك. وللرعب هذا الرجل يعرفه، في داخله يعرف أنه يوجد رابطة ما مع هذا الشخص، وإلا مـا الذي أتى به هنا في بيت شخص لم يره سوى مرتين من قبل.

تقدم د. "شمس" تجاهه فانتفض كأن حيَّة تتهيأ لنهشه. أشار إليه "شمس" بيده أن اهدأ.

مال جانبًا وأخرج من الصندوق الموضوع الصور التي خبَّأها من قبل.

صور العائلة كلها. عدة صور له هو في مراحل التعليـم مـع أصـحابه. بـل أخـرج لـه صور رحلة أسوان التي لم يرها "شمس" محمضة حتى الآن.

قدمها إليه. انتفض قلب "شمس" وهو يرى صورًا للأحداث التي عاشها من أقل مـن أسبوعين في أسوان ولم يكن قد طبع الصور بعد.

قذف الصور في وجه الآخر. شعر د. "شمس" بالرغبـة في احتضـانه، للتخفيـف عنـه، وما إن اقترب منه حتى دفعه هذا بعيدًا فكاد أن يُسقطه واندفع في اتجاه باب الخروج فاصطدم بطرف المنضدة فانقلبت. وفر هاربًا قارعًا باب الشقة بعنف.

ظل د. "شمس" مستندًا على الجدار وهو لا يستطيع فعل شيء. كان يقدِّر حيرة شاب يافع لم يعرف من الحياة إلا عاديتها. إذا كان هو المنزرع في لا يقينية "هايزنبرج" وجسيمات الكم الحائر بين شعوره بصدق الصوفيين وكذب ادعاءاتهم قد أصابه إعصار فما بالك بهذا الفتى؟

لم ينتظر "شمس" الصغير المصعد، اندفع على الدرج مهرولًا متعثرًا حتى كاد يسقط فتمالك نفسه لكنه ما إن خرج من البناية حتى جرى في الشارع واستند على جذع شجرة أكاسيا كبير به (أشواك) وبدأ في التقيؤ.

ولم يشعر بالشوكة التي انغرزت في يده باتكاء كل جسده على الشجرة حتى رأى الدم منها ولحظتئذ شعر بالألم الحاد.

ضغط على مكان الدم بإبهامه وظل ساكنًا يتمالك أنفاسه وأعصابه. بدأت رعشة جسده تهدأ قليلًا. رفع رأسه للسماء. تنفس بعمق قدر استطاعته. فكر أن يذهب لـ"شريف" صديقه ليحكي له ما حدث، لكن شيئًا ما منعه، "شريف" لا يستطيع أن يفهم ما يحدث وربما يلومه على ذهابه مع شخص لا يعرفه. كما أنه يشعر أن الأمر ربما يكون صادقًا. داخليًا يدرك أن د. شمس لا يخدعه، لكن كيف؟

هزت الريح أفرع الأشجار على امتداد شارع فيكتور إيمانويل؛ فكأنها تتنفس معه وتسانده بشكل غير مفهوم. وبعد برهة غشيته طمأنينة وترددت ضحكة "قمر" في أذنه وتساءل هل يستطيع أن يحكي لها ؟ تراجع عن الفكرة أيضًا. نعم ما حدث شيء غير واقعي ولكن ما الواقعي في كل العالم؟

وضع منديله على الجرح لأنه لم يتوقف عن النزيف. وبدأ يسير وترددت في أذنه النغمات الجميلة لـ"لفانتازيا من فا مينور". ابتسم وقرر أن أول شيء سيفعله عندما يزور أهله عزفها مع "قمر" حبة قلبه.

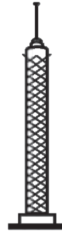
ليلًا عن طريق حارس بوابة المبيت وصلته ملحوظة على ورقة صغيرة مطوية من د. شمس مكتوب بها: "إياك أن تحكي هذا لأي شخص خاصة "قمر".. أو هيام".

لم يكن ليأبه بهذا لكنه لم يقص لـ"قمر" شيئًا.. وطبعًا "هيام" كانت أبعد ذهنيًّا عن اعتراف بمثل هذا الشطط، يكفيها ما تراه منه من جنون.



بعدما أعطى د. "شمس" الملحوظة لبواب المبيت، رفع رأسه علَّه يرى "شمس" الصغير في أي شباك، فلم يكن يتذكر أين كانت غرفته تمامًا. استدار وسار في الشارع الخاوي يفكر. ومن بعيد شاهد كلبًا متجهًا إليه. لم يكن في الشارع غيرهما. انتبه "شمس" للكلب لكن الكلب لم يأبه إليه. اضطرب "شمس" الذي شعر ببعض الخوف لحجم الكلب لكنه استعاد رباطة جأشه لما وجد إهمال الكلب له. بل انعكس شعوره وفكر أن يهاجمه أو يخيفه بالتقاط حجرًا من الشارع، لكنه تخلى عن الفكرة سريعًا لرؤية التعاسة التي تغلِّف الكلب المسكين، يسير مهمومًا وحيدًا كما لو كانت الوحدة ستقضي عليه. مرا جوار بعضهما، الواحد يشبه الآخر يتآخيان في الوَحدة والوَحشة والهوان.

7



"شمس" و"سها" في اللقاءات الأولى. لم يمنعهما الجو البارد من التوجه للجلوس في كافيتريا برج القاهرة وسط النيل. ما زال الصباح محملًا بضباب متلكئ من الفجر لم تستطع شمس الشتاء الباردة تبديده. ما الذي جرأهما على الخروج في هذا الصقيع. فكرت: "هذا الصباح يناسب صقيع قلبه المفطور من رحيل قمر". مضى أكثر من عام على رحيلها. هذه العيون الغائمة الغائبة لأجمل رجل في الكون تجرحها. هذا الحزن الذي لا نهاية له يُثقِل على قلبها مثلما يثقل على قلبه. تفكِّر كيف استطاعت أن تخرج من كل محنها صاغ سليم. صحيح أنها ما زالت تفتقد "قمر" وزوجها الأول، لكن هي تعافر في الحياة ليست ميتة مثله. أين هذا من الرجل الذي حلمت يومًا به. تذكَّرت أول مرة تلمسه فيها وإحساسها وأصابعها تتخلل شعره الناعم.

قالت: "هل تتذكر يوم أن صففت لك شعرك؟".

حائرًا بين جذب الذكرى وإبعادها تراءت له صور كرؤيا غير مؤكدة.

- كانت "قمر" ترتدي فستانًا داكن الزرقة.

هزت رأسها موافقة وقد لاحظت أن كل ما وصله من الذكرى هي "قمر" بهلتها.

وأضافت:

- كنت أنا من صفف لها شعرها يومها بعدما تأكدت "قمر" من مهارتي في التعامل مع شعرها الخفيف.

قاطعها "شمس" مبتسمًا كمن استعاد مزحة قد نساها منذ زمن:

- كانت دائمة السخرية من خفة شعرها وتلعن الجينات التي ورثتها من عمتها.

أومأت "سها" موافقة وأكملت:

- كانت تترك لي نفسها للتصفيف. كنا في مزاج مضحك سخرية من الأقدار التي جعلت "قمر" تطلب الطلاق من "نبيل" رغم حبها له وترملي بعد الموت المفاجئ لزوجي الأول. (خيبتي على خيبتك) قالت لي "قمر". فرددت: "أي اتلم المتعوس على خائب الرجاء". لحظتها دخلت أنت علينا وضحكت من منظرنا. بعد برهة طردتنا "قمر" من غرفتها كي ترتدي ملابسها. واستغليت الفرصة وسألتك مازحة: ما رأيك أن أصفف لك شعرك؟ ولعجبي وافقت دون شرط أو اعتراض.

استعاد "شمس" المشهد مرة أخرى:

كان جالسًا على الأرض وبدأت "سها" في تمشيط شعره. وضعت أصابعها برقة تخلخل خصلاته، أراحه هذا الإحساس. ظلا لثوانٍ صامتين. كانت "قمر" في غرفتها قد وضعت مقطوعة oblivion لـ"بياتسولا" يعزفها "جيدون كريمر". المقدمة البعيدة ثم الدخول الرقيق الممزق للكمان ثبتهما أكثر. وأصبحا كصورة فوتوغرافية عدا حركة أصابعها الرقيقة في فروة رأسه. انتهت المقطوعة وخرجت "قمر" متأنقة كعادتها. ورأت نظرة الإعجاب في أعينهما. ممشوقة جميلة مشرقة وحزينة.. حزينة.

أفاق "شمس" من شروده بظهور النادل يسألهما عمًّا يريدان. قالت "سها":

- شاي ساخن جدًّا. وقطعة جاتو إكلير شوكولا.

طلب "شمس" قهوة مضبوط. ثم كرر جملته:

- "قمر" كانت ترتدي فستانًا داكنَ الزرقة.

فركت يديها معًا وقالت:

- ما أشد برودة هذا اليوم.

وافقها "شمس" بإيماءة من رأسه.

أرادت أن تخرجه من أساه البين. فقالت مازحة:

- مر أكثر من خمس سنوات على هذا اليوم. يبدو أن عندي مشاعر أمومة تجاهك.

ثم بخجل ودلال وضعت يديها على عينيها كأنها مكسوفة.

ناداها مداعبًا:

- ماماااا.

برّقت عينيها وقال بنظرة تحذير وقد أدركت ما في هذه الجملة من غلط وخطل:

- مشاعر فقط. ليست أمومة حقيقية.

ضحك فأكملت كأنها تصحح لنفسها:

- موضوع تصفيف الشعر علامة فارقة في نوعية العلاقة.

- ههههه.

- أرأيت أصحابًا مجانين مثلنا. لو حكيت هذه الحكاية لناس لا يعرفوننا سيفكرون في الشيطان الذي كان معنا. ههه.

تذكر أن "سها" فضَّلت البقاء معه وحدهما بعد خروج "قمر" لمشوارها، وكانت والدته في زيارة لخالتها في الدقي.. هز رأسه مبتسمًا.

أكملت ضحكها قائلة:

- على الأرجح الشيطان أحبط منا وحلق شعره.

قهقهت فصيرته جلجلة ضحكتها بمزاج أروق فضحك وقال:

- "عبيط والله هذا الشيطان، خائب ولم يعرف كيف يوسوس جيدًا".

قالت بجدية وبخبث:

- كنا مشغولين عنه.

قرر أن يشاغبها:

- "لا. هذا من عبطنا نحن، وليس من الشيطان".

- "هههه. لكن أظن أنني عملت لك بوكلة شكلها مضحك. هههه. أتعرف؟ كان يومًا ظريفًا فعلًا. تلاقي الشيطان شتمنا ومشى متحسرًا......".

أتى النادل بالطلبات. شكره "شمس" وبدأ في صب الشاي لها. أمسكت بالشوكة وبدأت في قطع قطعة صغيرة من الإكلير. اقترب أكثر وقد رأى شفتيها تتلطخ بالشوكولاتة والكريمة في الوقت نفسه، وقال:

- لا كل ما في الأمر أنك نسيت أن تقولي "هيْت لك".

أخرجت لسانها وبطرفه لعقت الشوكولاته عندما رأته يحدِّق فيها ثم مسحت شفتها بالمنديل الورقي. وقالت بتحدٍ:

- لو كنت يوسف كنت فكرت في الأمر.

ثم فكرت، هو يعرف أنه جميل ويظن نفسه يوسف لكنه ليس مغرورًا. هو مسكين، وحزين ووحيد. انقبض قلبها وأرادت أن تؤذيه بشكل ما فأكملت تنفي عن نفسها تهمة كانت تود أن تلتصق بها:

- "هيْت لك" في عينيك.

رجع بظهره ضاحكًا حتى اهتزت المائدة التي خبط ساقها بقدمه حتى كاد أن يسقط الشاي والقهوة.

استاءت جدًّا من ضحكه وكأنه أهانها وتعدى عليها، وشعرت باليأس والإحباط فقالت كما طفلة خائفة:

- كنت منتبهة لطريقة تصفيف الشعر.. أردتُ أن أجعلك سعيدًا. أردتُ....

لم تكمل، فتحداه ذلك وأكمل كأنه يريد أن يرد لها الاستياء بل ويؤلمها:

- "طيب يا فالحة. أكنت تظنيني دمية تلعبين بها"!

قالها مستاءً إنها كانت تلعب فعلًا وندم على ترك شعره لها وقتها. أكملت دون أن تعي ما في كلماته من غضب:

- وكيف أن أغسل شعرك مثل الأطفال دون أن يدخل الشامبو في عينيك.

لحظتها عرف لماذا أراد أن يؤلمها لأنه كان على وشك أن يقول لها: "أتتزوجيني يا سها؟".

وقالها فعلًا:

- أتتزوجيني يا "سها"؟

أرادت أن تقف وتهرب أو أن تصفعه لأنه لم يعرض من قبل، تصفعه لأنها تحبه وتكاد الآن أن تكرهه.

- أنت فاشل. كيف أرتبط بفاشل.

نظر إليها باستغراب:

- فاشل، أستاذ في العلوم الطبية ومجالات التكنولوجيا الحديثة وفاشل.

كل هذا الضباب لا يريد أن ينقشع. انتصب برج الجزيرة كأنه يـُؤهل لعالم جديد فأهلًا بكم أو الويل لكم.

- لماذا طلبت أن نرتبط؟ أتحبني؟

يكره الكلام. يكره التفسير، يكره كل الأشياء وطريقة حياة تجعلنا نتساءل عن كل ما يعني لنا. يريدها، يريدها حتى يقاول موت الأرواح. يريدها مقاومًا الهروب. قد تكـون أنانية لكن مَن مِن البشر ليس أنانيًّا؟

رد بغضب:

- لا أعرف.

على الأقل هو صريح، فكرت. تجاهلـت الألم أو فلنقـل اعتـادت عليـه. هـي تحبـه، وتعرف هذا. وتعرف أن عينه تراها جيدًا، وتفصل ملامحها. هذه النظـرة ليسـت نظـرة رجل ميت. أكمل:

- فقط أريد الارتباط بك.

ابتسمت كأنها تشرح درسًا سهلًا لطفل عنيد.

- ارتباط، إذًا هذا هو الحب.

سريعًا كان رده وبحدة وملل:

- لا.

وبهدوء أكبر ردت:

- أنت تخاف الارتباط وتطلبه وتحب الحب ولا تريده. أي تناقض هذا.

شرد بعيدًا وقال بصوت متهدج:

- أنا أريد أن أكسر حدة الموت عندي.

- أتهابه؟

ابتسم ابتسامة حقيقية لأول مرة منذ بداية لقائهما وبنبرة ساخرة قال بهدوء:

- من؟

- الموت.

- الإنسان يموت فقط عندما يموت من يحبه. لا قيمة لموته هو.

مرق التساؤل في مخيلتها سريعًا: يقصد نحن نموت عندما يموت من نحب أم من يحبنا. اجتاحتها موجة حنق جديدة. موجة عاتية مدمرة، لا تعرف سببها، كان لا بدَّ أن تشعر بالشفقة عليه، وتتعاطف معه على شعوره بالفقد الذي يدمره، لكنها بدلًا من ذلك أرادت أن تصفعه على خده صفعة قوية، فيها كل الكره والإذلال والغيظ. تراه الآن ككيان نباتي مرخي غير يانع، مائت الاخضرار. هل الأعاصير قادرة على رد الحياة له أم ستقتلعه اقتلاعًا من الأرض؟ لكنها تذكرت الجذع العفي وشاهدته بعين خيالها. أهذا هو الذي يجعلها تريد أن ترتبط به. بهذا الشخص الذي يمثل لها جزءًا من عاطفة فقدتها وأمل مؤلم في حب حقيقي. تحبه دون شك، لكنه يقول إنه لا يحبها. كاذب. يحبها ولا يهمه الموت سوى فيما أخذه منه. وهي أيضًا، ما الذي يهمها في حياة أو موت. الآن فقط.

وبدلًا من الصفعة اقتربت من وجهه ولثمته.

هي أيضًا عانت؛ من فقد ذويها: أمها، وأبيها الذي ذهب ولم يرجع وهي طفلة. ثم فقدان زوج أحبها بشدة وهي يافعة. لكن هل عانت فعلًا؟ لم تكن تعي رحيل أبويها، هما مجرد ظلين بعيدين مخلوقين من كلمات عمتها

عنهما. طيفان كما بقايا منام أو فيلم تأثرت به قبل النوم ثم زال. وزوجها المتوفى منام آخر. لكن "قمر"؟ ماذا عن "قمر"؟ كيف استطاعت أن تتغلب على فراقها؟ وهل تغلبت عليه.... هي تفعل مثله تمامًا تتغلب على فراق قمر به لكنها للحق تحبه أيضًا. وربما تحبه دون وجود لـ"قمر" من قبل ومن بعد. تحبه. "قوليها له". ألحت عليها نفسها. مرة واثنتين وثلاث.

لثمته مرة أخرى وقالت:

- أنا أحبك يا "شمس".

بقى للحظات ينظر في عينيها. وقد أخذ رأسها كله بين يديه، في حركة بين الرغبة والمقت، بين القسوة والرقة، حركة سائق سيارات سباق عند منحنى خطر، متذبذبًا بين لحظة انعتاق ولحظة فوز.

فكر: "أنا قلت لها لا أريد الحب. أريد شيئًا آخر شيئًا لا أعرفه. لا أدرك كنهه، لكنّي متيقن بوجوده، شيئًا غالبًا شيئًا يمحو المحو. شيئًا يمحو (الآن) ويخلدها في الوقت نفسه".

وضعت يديها على يده التي تكاد تعتصر صدغيها، وضغطت عليه. فاهتز داخله قائلًا: "نعم. مثل هذا. مثل هذا الارتباط. هذا أكثر من جسد مع جسد. وأكثر من وهم الحب، وأكبر من الخيال الطائش. هذا الرباط الذي يفتل ببطء وحزم بين عيني وعينيها. توافق مجدول بشيء مبهم". هز رأسه ليؤكد شعوره بالانتشاء، فتصورت "سها" أنه يوافقها على حبها أخيرًا. فكرت: "إنه لا يعرف أنه يحبني هو أعقد من أن يعرف هذا بنفسه، وأنا له حتى وإن لم يرد".

اقتربت أكثر وهي ترى نظرة شهوة، ورغبة تنمو. لمست شفته بشفتيها لتلثمه. هو كاذب. قولًا وفعلًا. يقول إنه يريد ترابطًا وتوافقًا ولا يهمه الحب أو الجنس.

زادت القبلة حميمية والتهابًا. كانت تفكر في حبيبته التي حكى لها عنها من قبل. ثم فكرت في "قمر". ثم أدركت أنها لا تنشغل بالقبلة التي لا بدَّ وأن تصهرها معه. نصف كيانها في هذه القبلة التي تفتح أبواب روحه، لكن نصفها الثاني كيف يفكِّر في شيء آخر. "ما لها هي ومال حبيبته القديمة". حبه الأول كما حكى لها في يوم ما. لم شفتها بين شفتيه وعض برقة عليها بأسنانه الدقيقة. ووضع يده على ظهرها كي يزيدها اقترابًا. يهمس لها:

- يا "سها" منذ أن رأيتك مع "قمر" وأنا لا أنساك.

خز قلبها خنجر تعرفه جيدًا، لكن لا تستغربه. "قمر." "قمر" الحلم والتشابه والغيرة. ألا يراها إلا طيفًا لأخته؟ ولكن ألم ترَ هي نفسها طيفًا لـ"قمر" في وقت ما؟ تمنت أن تقلدها، أن تكونها، أن تتماهى معها وتنسى حياتها. ثم رحلت "قمر" وتكاد "سها" تأخذ مكانها في مراعاة السيدة والدته، حتى إنها في كثير من الأحيان تبات على سرير "قمر"، بل وتلبس ملابسها وتتزين بزينتها؟ ألا تقف "قمر" الآن بينه وبينها؟ "قمر" الغائبة الحاضرة. ماذا كانت تريد هي من "قمر" سوى هذا التوافق الذي تنكره عليه الآن؟ هل إحساسهما بالفقد يدفعهما لأحدهما الآخر؟

فتح "شمس" عينيه وهو ما يزال يرشف من رحيق "سها"، فلمح الأهرامات عن بعد وقد كاد الضباب أن ينقشع. كل هذه الأحجار احتملت الحياة لآلاف السنين وآلاف الآلاف من الأيام وآلاف الآلاف آلاف من الدقائق. ونحن فيمتوثانية

قادرة على تدميرنا. كيف أصبحت الحياة بكل هذه الرهافة، كيـف يكـون الاتحـاد بـين الروح والجسد رهيفًا وواهيًا لهذه الدرجة؟ تـَكْ.. ثم ينتهي كل شيء. البشر بناة هاتيـك الصروح الضخمة. فكّر في القوى الضعيفة والقوية في مجال الـذرة. القـوى القويـة التـي تربط بين الجسيمات داخل النواة برباط لو فك فسيخلق القنبلة الذرية والهيدروجينة. قوة لا حدود لها. ألا يا ويلنا من هذه الطاقـة المـدمرة، أيـن نحـن منهـا الآن والعـالم لا يوجد فيه رجل واحد لديه القدرة على ضغط زر صغير لينهه وننتهي وينتهـي العـذاب. كم من عين شاهدت هذه الآثار ثم امحت في العدم؟

رغم جسديهما المتداخلين المجدولين الآن؛ فإن كل منهما كان عقلـه يربطـه ويقيـده ويبعده ويرّحل روحه بعيدًا.

الآن هي من تلمح الأهرامات العتيدة. فتبتعد قليلًا وتعيد عليه السؤال:

- أتخاف الموت؟

أبعدها برقة وببطء قائلًا:

- تسألين مرة أخرى؟

صمت لبرهة ثم أكمل:

- ألا أكون أنا الرجل الثالث في حياتك يا "سها"؟

هزت كتفيها بلا مبالاة:

- ترملت بعد أشهر من رجل أحبني وأحببته. كان قريبًا لي ويكبرني كثيرًا.. ربما أب أرادته روحي غصبًا عني. وبعده طُلقت بعد أشهر من زواج لا معنى له بلا حب ولا كره، لما عرف بعدم قدرتي على الانجاب. وكلاهما خيال الآن.

همهم بملل.

ها هو تاريخ حياتها في لمحة بصر، يُتم لحادثة غبية، ترمُّل لتوقف مفاجئ لقلب عليل، طلاق لجشع ثم وحدة مثله، وحدة لا تنتهي برحيل "قمر". من كانت تربطهما راحت. أو ربما ما تزال هي الرابط.

شرَّقت عينيها وقالت:

- أنت لا ترى فيَّ سوى صورة....

ثم ضاع صوتها وهي تكمل:

- صورة مشوهة من "قمر".

وقبل أن يعترض، أكملت:

- فلنقل صورة غائمة وليس مشوهة.

قال بحزن:

- لكنك أنت أيضًا ترينني بها. أليس كذلك؟

وانحدرت من عينه دمعة غير مسيطر عليها. هز رأسه كأنه يطرد فكره من رأسه. وفكَّر.. تُرى كم رجل حزن على أخته كحزنه عليها! أي أخنس أنت يا "شمس" الضياع! كم رجل منذ أن قرر خوفو بناء هذا الصرح القاتل!

8



كانت "حكمت هانم" في زيـارة لابنتهـا وادي في بورفـؤاد. جلسـت في حديقـة البيـت الصغيرة ترتشف القهوة، ولما طلب منها حفيدها شمس أن يتذوقها هالـه مـرارة العلقـم. أراد أن يتفل الشفطة بشعة المرارة. يعرف أنها تشربها سادة وعرف أن السـادة يعنـي بـلا سكر. وتسـاءل كثـيراً مـا الـذي يجعـل النـاس تشرب مثـل هـذا المـر وهـو الـذي يعشـق الشوكولاتة والسكريات.

لما كـبر عـرف أنـه بغـض النظـر عـن التمتـع بـالقهوة وبمرارتهـا إلا أن الحياة أكثر مرارة منها وربما تصبح هي السلوان لمرارة الحياة. قال له أحد زملائه من الجزيرة العربية: "يقولـون عنـدنا إن القهـوة يجـب أن تكـون مُرَّة كالموت وموّلعة كالعشق". فقدت جدته ابنتها الأولى بالتيفود عنـدما كانت في الثالثة عشر من عمرها، وفقدت ابنها، خالـه الـذي كـان يعـيش

معها هو وزوجته في البيت في سن التاسعة والثلاثين بمرض القلب. ولم تحتمل الحياة بعده فرحلت بعده بأقل من عام.

وها هي أمه تفقد ابنتها. كان يتأسى بالآخرين. جدته، وأمه، وخالته التي فقدت ابنتها في غيبوبة سكر، وخالة أمه التي فقدت خمسة في حياتها. وكأن الثكل قد كُتب على عائلته أو ربما على الناس أجمعين. لِمَ إذًا يتزوج الناس، لِمَ يحبون، لِمَ يتعلقون بشدة بأحباب رباطهم واهٍ، أضعف من خيط عنكبوت؟ أم أن الدنيا هي شراك هذا العنكبوت؟



قرر الدكتور "أمين" الزواج وما إن قالت له السيدة عنايات جارة والدة صديقه برسوم أن لديها عروسًا حتى تشبث بالفكرة. فلقد تخرج لتوه في كلية الطب وأصبح طريقه واضحًا. صحيح أنه دخل التجنيد كضابط، مما سيؤخر الزواج قليلًا لكن هذا لا يهم. يثق في "طنط عنايات"، واختيارتها.

كل يوم يخرج من بيت صديقه برسوم إلى بيت "طنط عنايات"، لعلها أتت بالعروس التي شوقته إليها. حتى ولو لم يجدها لا يجد حرجًا في الجلوس مع ابنتها "فيفي" الصغيرة المطلقة. تعتبره "طنط تريز" أم صديقه برسوم ابنها، وتعوضه عن فقد أمه منذ فترة طويلة. لولا أمه التي وقفت أمام أبيه لكان اليوم يحرث في أرضهم. لكنها صممت أن يكمل تعليمه مثل كل إخوته الأكبر منه.

وأخيرًا في مرة قالت له طنط عنايات إن العروس قادمة مع أمها التي هي ابنة خالتها. كانت وادي في السادسة عشر من عمرها. انتهت للتو من شهادة Brevet des collèges وبدأت مرحلة الليسيه.

أتت السيدة "حكمت" ومعها بنتاها "وادي" ووداد وابنة خالتهما "مايسة".

أعطت السيدة "عنايات" أمرًا لـ"وداد" و"مايسة" بالدخول في غرفة داخلية وعدم الظهور نهائيًّا. فالهدف هو "وادي". كانت "وادي" بيضاء الوجه دقيقة القد وشعر أسود كهالة تزيد من بياض بشرتها وعيون سوداء وملامح رقيقة. فهي تشبه أمها السيدة "حكمت"، أمَّا "وداد" فكانت تشبه عائلة أبيها، شقراء بضفائر شديدة الذهبية جميلة بهية وعيون بنية واسعة. أمَّا "مايسة" فكانت قطة شيرازية بعيون خضراء مندهشة واسعة وشعر نحاسي مشتعل. كل فتاة منهن لها جمال خاص مختلف.

انتابت الفتيات هوسة وجود عريس في الخارج. دخلت "وداد" بعد قليل. كان د. "أمين" سريع البديهة فكه يستطيع أن يتواصل سريعًا مع كل أنماط الناس، لذا كان واضحًا أن مستقبله كطبيب مشرق كشمس ساطعة. جلست "وادي" تبتسم وتضحك على ما يُقال. كان أكبر منها بإحدى عشرة سنة.

وبنهاية الجلسة سريعًا ما تم القبول من الجميع، أولهم السيدة "حكمت" ثم العروس وبدا واضحًا إعجاب العريس بها.

عند النزول صمَّم على أن يصحبهن بالتاكسي إلى بيتهن. واضطرت السيدة عنايات بالإفراج عن البنتين الأخريين، "وداد" و"مايسة" وهلتا كملاكين، لكن "أمين" كان قد شبع من جمال وادي. رغم أن "وداد" شقراء جميلة جمال ملائكي لكن العند يطل من عينيها، و"مايسة" كانت أكثر من احتماله بقططية عينيها الخضراوين ونحاسية شعرها المُلَوَّى. ركبوا تاكسي سبعة ركاب واستمر الكلام حتى وصلوا إلى بيتهم. ولم يخطوا خارج التاكسي إلا وكان القبول واضحًا على الجميع، وتحدد ميعاد لمقابلة الأميرالاي "حلمي" والد "وادي".

ذهب أمين من سعادته إلى برسوم وعزمه على فيلم يختاره فكان فيلم "شباب امرأة".

أمَّا وادي فخطر على بالها "أدولفو" للحظة لكنها نسيته تمامًا بعدئذ. كأن البيانو ودرسه خارج الحياة.



شهقة الصمت التي تعلمتها وادي من "أدولفو" بين نغمات الموسيقى. لا يجب أن تطول أو أن تقصر. فهي تعطي للنغمات قوتها لما تتركه من صمت وراءها، وتهيئ الأمر للنغمات التي تتبعها. شهقة للداخل تسحب الألحان إلى الروح كي تخرجها مرة أخرى. وهكذا علَّمت وادي "شمس" و"قمر".

هذه الشهقة أتكون هي الحياة الدنيا. راحة بين ميلادين؟



وادي مـن الأرسـتقراطية المسـتورة، فأبوهـا أمـيرالاي في الجـيش المصري، وجـدها في الجيش العثماني وخال جدها حاكم سوريا. فمن أول الأجيال التي اهتم بها محمـد عـلي في إنشاء جيش مصري كان جدها الأكبر الـذي كـان بـدوره واحـدًا مـن أولاد النـاس، أي سليل مماليك مال عليهم الزمن، لكن في الوقت نفسه أفادهم عندما تخلص محمد عـلي من كل الأمراء والمماليك غير الموالين له. فكانـت هـي مـن الجيـل الخـامس أو السـادس لعائلات أخذت من الترقي سبلًا حتى من قبل نهضة محمد عـلي. أصـل ودخـل معقـول وعسكرية موروثة. تبدأ برتبة عسكرية وتتفرع مع الأولاد إلى أطباء ومحامين ومهندسـين وقضاة وطبعًا فرع عسكري جديد وهلـم جـرًا. انتقلـت أفـرع العائلـة مـن أيـام الـوالي محمد علي في عدة أماكن، كلما شُيِّد حيٌ جديد وازدهر كانت العائلة تنتقل إليـه حتـى رسى الأمر بالفرع الذي هي منه في مصر الجديدة، أحـدث الأحيـاء وأجملهـا فـيما بقـى البعض بين الزمالك والدقي. أمّا زوجها "أمين" فكان من عائلة ذات أملاك وعدة فـدادين زراعية يجري فيها الخيل لكن لا يتوه ولا يرمح. أبو "أمين" الحاج "عليّ" تخرج في الأزهـر وكان وحيد والديه فرجع للبلد وعمل واعظًا ومأذونًا شرعيًّا وشيخ جامع وقبل كـل هـذا متابعًا لأملاك أبيه التي تفتتت مرة بزواج فاشل لأبيه للمرة الثانية من عائلة قوية عتيـة، ثم مرة بركود اقتصادي وأزمة القطن الشهيرة. وأخيراً بكارثة طبيعية بـوَّرت الأرض لفـترة ثم استعادت بعض عافيتها. تزوَّج الحاج عليّ صغيراً وسرعان ما ماتت زوجـه وهـي تلـد ولم يرضَ بطبعـه الرقيـق وأخلاقـه الأزهريـة أن تعـيش ابنتـه الوحيـدة في كنـف زوجـة أب، لكنه في ليلة زواج ابنته التي كانت في الخامسة عشر مـن عمرهـا، تـزوَّج هـو مـن

ابنة عمدة بلدة مجاورة لبلدهم. وكانت العروس في عمر ابنته. أنجبت لـه خمسـة أبنـاء: ثلاثة صبيان وبنتين.

عاصر هوجة عرابي وما تلاها من دخول الإنجليز مصر واحتلالها. حجَّ إلى بيت الله على جمل في قافلة. عاصر خديو وسلطان وملك، ثم حركة الضباط الأحرار وأول رئيس جمهورية سرعان ما عُزِل وحُدِدَتْ إقامته مع تولِّي ناصر الحكم. عاش تسعين عامًا موفور الصحة لا يحمل همًا، لإيمانه الحقيقي وحبه للحياة، وتُوفي سنة 1960. عندما وُلد له "أمين"، كان في السابعة والخمسين من العمر، تزوجت البنتان ودخل الصبيان المدارس، فكر أن يُبقي طفله الأخير "أمين" (جاره) كي يهتم معه بالأرض. لم يرحب كثيرًا بأن يكمل تعليمه بعد الابتدائية لولا زوجته التي صممت أن يتعلم ابنها الصغير مثل باقي إخوته، بل كانت تتنبأ له بشأن عظيم. رضخ الحاج لها. وأكمل أمين تعليمه بالمجَّان لتفوقه الدائم، فلم يكلِّف أباه أي مصاريف. حتى في البكالوريا دخل مسابقة فيزياء، فأصبح الأول على القطر المصري بها فالتحق بكلية الطب أيضًا بالمجان وظل محتفظًا بمكانته طوال سنوات الدراسة. كان "أمين" يهوى دراسة الطب وممارسته فأصبح عشقه الحقيقي لسببين، أولهما؛ سجيته التي تحضه دائمًا على مساعدة الآخرين، وثانيًا للمرتبة المشرفة التي كان الأطباء يحظون بها. تنقَّل أمين مع أخيه الكبير الذي كان يعمل مهندسًا في سكك حديد مصر من مدينة لمدينة، فلم يستمر في مدرسة واحدة حتى التحق بكلية الطب فانفصل عن أخيه حتى تخرج وعمل بإخلاص وإتقان حتى بزغ في سماء القاهرة كطبيب كبير القلب ماهر الصنعة ومثال للتفاني في

عمله. ولما تقدم للزواج من "وادي" تقبله أبوها الأميرالاي على الفور، لما عرف عنه وما لمسه في أخلاقه العالية وخصاله الحميدة. وللحق كان نعم الزوج لها كما كانت دائمًا تقول حتى بعد وفاته بسنين.

صحيح أن "وادي" ما إن رأت حماها لأول مرة مرتديًا جبة وقفطانًا وعمامة تعجبت وهي ابنة المدينة ولم تزر في حياتها أي قرية من قبل. لكن هيبة الشيخ وجماله مع خفة ظله اختطفتها في لحظة. فهو يكاد يكون عملاقًا أشقر الشعر ذا عينين زرقاوين صافيتين ضاحكتين. ترفَّق معها ولاطفها كأنها طفلة فأحبته وارتاحت إليه أي ارتياح. أمَّا حماتها فلم تعرفها لأنها تُوفيت، ولم ترَ لها سوى صورة واحدة احتفظ بها زوجها لامرأة جادّة، وسمراء. بحجاب ورداء أسود رصين ونظرة تخترق المشاهد. كان كتب كتاب أمين ووادي ليلة العدوان الثلاثي، واضطر الأهل إلى تغيير مكان عقد القران من مصر الجديدة، حيث يجاورهم مطار ألماظة. فما إن بدأت القنابل والحرائق حتى نُقل الاحتفال إلى الدقي عند خالة "وادي". ولحق من استطاع من المعازيم الحفل، أمَّا من كان سيأتي من خارج القاهرة فلم يستطع الوصول. وظلت عائلة "وادي" عند خالتها "عايدة" هانم وزوجها "قدري" بك أسبوعًا إلى أن هدأت الأوضاع واستطاع كل الرجوع إلى بيته. كان أسبوعًا لم تنسه "وادي" قطُّ. أبوها أسماها "وادي" حبًا في مصر. يكره الصحراء التي خدم فيها مع سفنكس باشا في برَّاني. ابن المدينة وابن العسكرية. أنقذته إجازته السنوية من الاعتقال مع قيام حركة الضباط في 1952، حيث تم اعتقال كثير من اللواءات، فقط أخرج على المعاش. أحبت "وادي" "أمين".

كانت قد انتهت للتو من مدرستها الفرنسية. ورغم تفوقها كانت ترى أن المرأة ست بيت. لم تفكر مطلقًا في العمل آنـذاك؛ إلا بعـد فـترة في بورسـعيد عنـدما قتلهـا الفـراغ والبعد عن الأهل. كان البيانو واللغة العربية هما هوايـة "وادي". العربيـة أحبتهـا مـن المدرس اللبناني الذي كان يدرسها لهن في المدرسة وكانت هي السبب في تسمية أولادها. في بكريها تمنت تسميته "شمس الدين" وكان الوالد د. "أمين" يريده "محمدًا"، في نهايـة الأمر اتفقا على اسم مركب "محمد شمس الدين"، وطبعًا عُـرف باسـم "شـمس". وبعـد أكثر من خمس سنوات جاءت الابنة فصممت على تسميتها قمر الزمـان، سـخر زوجهـا بلطف: "ما رأيك نسميها "قمر الدين" أو حتى خرُّوب". نظـرت إليـه بعينيهـا الحـالمتين وبروح ناعسة ردت: "لو معترض نكتفي بقمر". ورغم عدم إعجابه بالاسـم، رضـخ للأمـر لحبه الكبير لها فأصبح عنـدهما "شـمس" و"قمـر". وبالوقـت، صـار الاسـمان مـألوفين وطبيعيين بل ومثيرين لمشاعر البهجة برؤية هذين الطفلـين رقيقـي الـروح. أمَّـا البيـانو فله قصة أخرى.

كان مدرس البيانو في مدرستها اسمه "أدولفو".



ناولت سها السيدة "وادي" دواءها في ميعاده، ثم جلسـت جوارهـا. ربتـت السـيدة "وادي" على يد "سها" بحنان لتشكرها.

ثم قالت بصوت مبحوح قليلًا بدا عليه الزمن.

- آه يا "سها". كم كانت قمر تحبك.

همهمت "سها" بكلمات أُدغِمت من الخجل والشفقة والألم.

- يا "سها". أنا تقبَّلت أمر اللـه وأمـره نافـذ. ولقـد ألهمنـي صـبرًا لم أكـن أتصـوره. الحمد لله. لكن يا بنيتي حتى للصبر ثمـن. أصبحت الأحـداث تُـنسى والـذكريات تُمحـى قليلًا قليلًا. ولا أريد أن أكون عبئًا على أحـد خاصـة شـمس. يكفيـه حزنـه وحيرتـه. أنـا قررت وأنا ما زلت بكامل إرادتي وعقلي أن أعتكف في دار للمسنين.

همت "سها" بالاعتراض فأسكتتها بحركة بسيطة من يدها.

- ولا أن أكون عليك أنت أيضًا حملًا. يكفيك ما بك. أنا أعرف مقدار حبـك لــ"شـمس". تحمَّليه يا حبيبتي. تحمَّلي حبك ولا تجعليـه قاتلـك. فالحـب قاتـل يـا "سـها". أنـا أحببـت زوجي "أمين" بمقدار العشرة ورفعة أخلاقه. لم أرَ منه إلا كل خير. تصوري حتى عنـدما كـان يرجع منهكًا تمامًا من عمله صباحًا ومساءً ويجدني متعبة، كان يساعدني في كـل شيء خـاص بالبيت والأولاد. عدا غيرته الشديدة عـليَّ في أول الـزواج، كـان حنونـًا، ومحبًـا لكـل النـاس. العشرة تبني حبًا أكثر احتمالًا وقدرة على إكمال الحياة. حياتي معـه كانـت رائعـة وجميلـة. الحمد لله. كم كنت محظوظة يا "سـها". حـاولي أن تكسـبي "شـمس". أنـت طيبـة ورقيقـة وجميلة. هو يبحث دائمًا عن شيء لا أفهمه. لكني أمه وأثق في مشاعرك أكثر مـن مشـاعره. هو كتـوم منـذ صـغره. لم يكـن ليـبُح لنـا بـأي شيء مـما يعتمـل بداخلـه. أشـعر بمشـاعره

المضطربة دون أن أعرف سبب اضطرابه. سره كله كان مع "قمر". قبل أن ترحل بأيام قال لي كيف سأعيش دون روحي.

ربتت مرة أخرى على يدها. ملأ الثقل روح "سها" وقالت شاردة:

- أنا لا أعرف كيف أتعامل معه.

ضغطت على يدها مؤكدة ومطمئنة:

- ستعرفين. ويكفي أنك تحبينه كل هذا الحب.

ابتسمت "سها" ابتسامة واهنة وهي تقول:

- أنا أحببت زوجي الراحل رغم فرق العمر. كنت أطمئن في وجوده، أردت من الدنيا أن تعوضني عن أب لم يكن موجودًا. لكن الدنيا بخلت عليَّ. ترملت وما ذقت من الحنان سوى حلم لم يكتمل، وزوجي الثاني كأنه لم يكن. وأجد نفسي دائمًا عائدة لحب عائلتك كلها. أنا أتذكر أنكل "أمين" عندما رأيته قبل أن تنزل "قمر" إلى الامتحانات كيف كان يضع يده على رأسها ويقرأ آية الكرسي بصوت هادئ مُريح. طلبت منه أن يقرأها لي أنا أيضًا قبل ذهابي إلى الامتحانات. وقد كان. أتتذكرين كم مرة كان ينتظرني مبكرًا كي يقرأ لي بصوته الودود المطمئن.

تنهدت ثم قالت:

- "آه من عائلتك يا طنط".

ابتسمت السيدة "وادي" وقالت:

- كلنا أتعبناك يا حبيبتي. لكنك واحدة منا. منذ أن كنت صبية صغيرة جميلة ومشاكسة.

- أحببت "شمس" منذ أن رأيته، لكنه كان حلمًا بعيد المنال... هـه. مهوسة أنا به، حبي له أقرب للجنون.

أرادت سها أن تغير مجرى الكلام عن حبها لـ"شمس" فقالت:

- ألم تحبِّي قط بهذا الشكل يا طنط؟

هزت السيدة رأسها ورفعت حاجبها وقالت:

- لا. لم أحب سوى زوجي، وبشكل محمود لا كوارث به لله الحمد. لكنني عرفت مَن أحَبَ بجنون... أحبني بجنون..

تفاجئت سها وانشرحت أساريرها ككل بنت تحب أن تتكلم عن حب آخر وانتابها الفضول. أشارت السيدة وادي للدولاب قائلة:

- "افتحي الدرفة الأولى.. الدرج الأول. تجدين علبة قطيفة مبطنة. هاتيها".

أخرجت من العلبة خطابًا قديمًا وقدمته لـ"سها". كان مكتوبًا بالفرنسية.

سمعتها تقول هامسة:

- تذكرت هذا الخطاب هذه الأيام وأنا أستعد للانتقال إلى الدار. أشعر أن الذكريات بدأت تذوي.. اقرأيه.

أمسكت ورقاته برقة كأنه سيذوب بيديها أو يحترق. فتحت "سها" الخطاب القديم بتهيُّب. كأنها ستقرأ خطابًا موجهًا لها دون الآخرين. فكرت: "عجيبة أنت يا "سها" ما أسرع ما تتناغمين مع كل فرد في هذه الأسرة".

"وادي الجميلة.

هذا أول خطاب وأنا أعرف أنه آخر خطاب.

لا أعرف من أين أبدأ لكن فليكن اسمي هو البداية لأنني لم أسمع في حياتي قط من ناداني مثلك بكل هذه الرقة والخجل. مسيو أدولفو. هذه الفاء الرائع التي يتكور بها فمك للحظة فكأنك الإله وهو ينفخ الروح في مخلوقاته. اسمعي يا أميرتي الصغيرة.

أسموني على اسم صديق لجدي كان رسامًا مشهورًا في حقبة ما. وقد رسم لأمي لوحة جميلة للأسف تخليت عنها وبعتها بعد الحرب. كل هم الأمريكان خلق تاريخ لهم. فاشتروا بعد الحرب لوحات وتماثيل لا تقدَّر بثمن من كل بلدان إيطاليا. كل واحد أو واحدة ورث لوحة أو جدارية سرعان ما باعها للأمريكان. أبي لم أعرف عنه الشيء الكثير. كان حب أمي الأول ثم انقلبت أحواله وصار منتظمًا في ميليشيا جماعة "القمصان السوداء" على عكس أمي التي كانت ذات لقب عائلة جار عليها الزمن، ولمَّا قُبض على أبي ثم اختفى تمامًا من حياتنا اتخذت أنا لقب أمي.

كان والدي قد تحوَّل ذهنيًّا من كاثوليكية القديس توما التي ترى أن العلاقة الزوجية بين رجل وامرأته هي خطيئة مغتفرة لأن لولاها لانتهي الجنس البشري وانقطعت عبادة الرب، إلى هوى شبه إسلامي يرى أن الجنس متعة بالأربع ومكافأة فردوسية من الحوريات اللاتي لا ينتهين إلا أبكارًا من جديد. ومن امرأة لأخرى ومن معركة لأخرى وقف أمام الموت بهذا التبدُّل فمحاه من الوجود.

قررت أمي أن تنزوي في بيت العائلة في توسكانا. حيث كانت عائلتنا تعرف عائلة "أودلفو بيلمباو" الذي رسم صورًا زيتية لأمي وبنات العائلة. كان أودلفو قد وُلد في القاهرة لعائلة من اليهود السيفارديم. ولما عاش في إيطاليا، خاصة فينيسيا، اشتُهر أولًا برسم أعمال تُظهر معاناة العمَّال مثل لوحة الخروج من المصنع لكنه فيما بعد بدأ برسم الطبقة المتوسطة والعليا. لا يهمني من أمره شيء سوى أنني قد سُميت باسمه واللوحة الجميلة التي رسمها لأمي التي للأسف اضطررت لبيعها.

في ليلة الاستفتاء على تحوّل إيطاليا من الملكية إلى الجمهورية، أصابت أمي نوبة قلبية أنهت حياتها حتى قبل أن تعرف ما الذي حل بالبلد. كانت تدرك أن حياة بكاملها قد انتهت. لم تتأثر بفراق زوجها وثورته على الأوضاع ولا على خيانته لها ولا على القبض عليه أو حتى اختفائه تمامًا، لكنها أدركت أن الحياة كما كانت تعرفها ستذهب إلى غير رجعة. طبقة تنهار وتتلاشى حتى ولو كان هذا في مصلحة البلد. لم تعرف أمي الشكوك التي حامت حول صحة التصويت وهل تم فعلًا تزوير أم لا. كانت تدرك أن الجيلاتي الذي كانت تعشقه قد ساح إلى الأبد. لم تكن أملاك عائلتها كبيرة لكن أسلوب الحياة هو الذي سيتغير. يوم الاستفتاء وليلة

وفاتها كانت العائلـة مجتمعـة في البيـت الكبـير الـذي تحوطـه مـزارع الكـروم البـائرة ومصانع النبيذ المتوقفة. بعدها لم أحتمل المكوث في المكان نفسه، بعت ما أسـتطيع ولم يفِ كثيراً، وكان آخر ما أملكه للبيع اللوحة التي رسمها بيلنباو لأمي. تأملتُهـا كثـيراً ومـا زلت أتذكر تفاصيلها وألوانها. كان مؤلمًا لي أن أتخلى عنها لكن الأمريكاني الذي اشـتراها أغراني وكنت محتاجًا فعلًا وربما لم أحس بلوعة الفراق لأمي قدر إحساسي باللوعـة وأنـا أبيع له اللوحة. كأن الأنسان يعرف أنه لا بدَّ أن يفارق الأحيـاء، أمَّـا ذكريـاتهم فخنجـر مسنون دائم الحز بحشايانا. حملت لقب أمي وتخليت عن لقب أبي الـذي لم أحبـه ولم يبهرني في وقت من الأوقات. لم يبهرني بعلاقاته ولا معاركه التي تؤكد رجولته في الفراش أو الحروب. أردتُ أن أرحل عن إيطاليا وكانت الهجرة في أوجَّها إلى أمريكا لكني لم أشـأ أن أذهب لمن كانوا يشترون تاريخنا ولـو اسـتطاعوا، كـانوا نقلـوا الكولوزيـوم إلى قلـب واشنطن. ثم وكأن هاتفًا هتف لي باسـم سـميّ أدولفـو الـذي أعـرف سـيرة حياتـه مـما حكته لي أمي، جعلني أنطلق بآخر نقود معي كي أرحل للمدينة التي ولـد فيهـا. كانـت القاهرة. اختيار لا يد لي فيه أبدًا، لو كان وُلد في كاتمندو أو كوالالامبـور لكنـت سـافرت إليها. ومـما شـجعني أن عائلـة الملـك فيكتـور إيمانويـل قـد لجـأت لمصر كبلـد المـأوى واستقروا في الإسكندرية. لم أحب أن أستقر في الإسكندرية التي نزلت من المركـب فيهـا. كانت مبهرة وجميلة لكـنَّ شـيئًا مـا كـان يجـرني للقـاهرة. ورغـم أن الجاليـة الأكـبر في الإسكندرية، كانت كلمة القاهرة كما سمعتها من فـم أمـي وهـي تحـكي لي عـن سـميّ حـافزًا لا أسـتطيع الفكـاك منـه. وفي القـاهرة لم أعـرف سـوى تـدريس البيـانو الـذي كنـت بارعًـا فعـلًا في عزفـه. كنـت أرسـم قلـيلًا لكنـي لم أجـرؤ أن أدرِّسـه، لكـن في

الموسيقى كنت موهوبًا في العـزف. لم أكـن عبقريًّـا موسـيقيًّا، لكننـي اكتشـفتُ أننـي مدرس موسيقى مـاهر. ولمـا قابلتـك عرفـت لمَ حـدث كـل هـذا معـي. لمَ فـر أبي، ولمَ افتقرت أمي، ولمَ لم يحتمل قلبها زوال الملكية في إيطاليا، ولمَ رسـمها بيلمبـاو، ولمَ كـان مولودًا بالقاهرة. كل هذا كان كي أراكِ لأحبك. أنت أنت يـا وادي. أن أرى أمـي فيـك. أن تنسخك الأقدار لي. لستُ متدينًا لكني أؤمن بالحب. لكن عندما وجدت في بيـتكم العامر ناريمان كاظم، انقبض قلبي وسألت نفسي هل هي سـماحة بيـتكم تلـم الـذين أخنى عليهم الدهر؟ هل هي مصر الكريمة التي تأوي كل محتاج، كل ناج مـن انهيـار الإمبراطوريات القديمة شرقية كانت أو غربية؟ ناريمان تدرِّس الرسم لك ولأختك ولكـل بنات العائلة. أعرف وتعترفين أنه من ضروريات طبقة طموح. ناريمان التي كنت أراها عجوزًا ذات ماضٍ مبهر وجمال زال. ناريمان التـي بعـد جهـد فهمـت أنهـا كانـت مـن الحريم السلطاني العثماني التي فك أسرها التحول للجمهورية في تركيا منذ ثلاثين عامًـا أو يزيد. ولم تعرف لها أهل ولا ملة ولا شيء فكانت القاهرة أيضًا هـي الملجـأ والمـلاذ. وعملت هي بموهبة يبسـت وضـاعت بـين انهيـار الإمبراطويـات القديمـة كلهـا. نحـن كائنات خفيفة زائلة يا وادي. كلنا. حياتنا كخيوط عنكبوت كبير في لحظة تهد. ناريمان جعلتني أتشكك في مقدرتي وإحساسي. لكن أنت انتشلتيني. أنت يا وادي. جئت لبلـد ملاذ هو مصر من عالم ينهار في أوروبا كلها. ولكن أطاح بالأمان حركة الضـباط وحـرق الأهالي لمحلات الأجانب ومصالحهم. نعم أسمعك تقولين برقة: "الغوغاء غوغاء في كـل مكان، وهذا ما يثبته التاريخ". مرت أربع سنوات عـلى حريـق القـاهرة. رأينـا مجلـس ثورة، اختفى منها الضابط الأول والثاني يهـدد ويربـد ويزبـد. رأيتـك طفلـة صـغيرة في

الثانية عشر من عمرها. ملاك. كأن أمي قد بُعثت من جديد. كأن مزارع الكروم في توسكانا قد ردت إليها الروح. كأن كل مصانع النبيذ قد عادت لتعمل كي تسكر العالم بمذاق "إليزيوم". أربع سنوات أراك تتحولين من ملاك إلى صبية رائعة. قلت إنك دون شك من أقاربي. لا يكون الشبه واضحًا هكذا إلا إذا كنا أقاربَ. تصورت أنك حفيدة أحد قواد أنطونيو أو ربما أنا أحد أحفاد العربي الذي ضم أراضي رومانية لإمبراطوريته. أو ربما كنا أنا وأنت من أرض أبعد كثيرًا.. من القسطنطينية أو حتى من الغال. من الجنة التي جاء منها آدم وحوَّاء. أو من الأولمب حيث يحكم زيوس. أنا غريب وأنت أنقذتني من غربتي. انتظرت بين كل النغمات التي لعبتها أمامك، واختبأت في كل لحن عزفناه معًا حتى تينعي فأورف أنا. مرت أربعة أعوام..

ولكن.. ولكنك اليوم صباحًا كنت صريحة معي. قلت لي. آسفة. وخرجت جريًا بخجل من حجرة الموسيقى. لا أعرف كيف أبين لك كم أحبك. أعرف أن الفرق بيني وبينك يقترب من عشرين عامًا. أنت في السادسة عشر وأنا في الرابعة والثلاثين. وأني لست مسلمًا وقلت لك من قبل. أنا أومن بإله عام ولا أحده في دين. إله واحد وهذا هو المهم. وإنه لا مانع عندي أن أسلم لأن وجهة نظري عن الإله لن تتغير. رغم كل قطع الموسيقى التي عزفناها معًا. في الفصل أو في البيت عندكم لم تشعري بحبي لك. أعرف أنك أقرب للأطفال. لكن لن ألومك على رفضي ورفض قلبي. العالم ينغلق عليَّ من كل جهة يا أحب إليَّ من نفسي. فقدت أمي وبلدي ثم أفقدك الآن.

لعلك تتعجبين من هذا الأستاذ الذي يقص عليك قصة حياته في خطاب كان يود أن يكون غراميًّا. لكنني أردت أن أعزف لك لحني الأخير علَّك تحملين نغمات حبي معك دائمًا حتى ولو رفضته.

كما قلت لك يا وادي. نحن كائنات هشة تعيش في عالم هش نحاول أن نركن في بعض الأحيان على قلوبنا لكن في نهاية الأمر تخذلنا. سامحيني لو ضايقتك اليوم صباحًا أو في أي يوم آخر. وأعتذر لك ولأسرتك كلها عن الدروس فأنا راحل عن بلد ظننت أني سأجد راحة فيه بشكل أو بآخر. سأحاول أن أعود لإيطاليا إلى عائلتي.. أو ربما أعود إلى مكان أبعد... أبعد كثيراً عن..

لك مني كل مودة وحب يا وادي.

أدولفو"



ظلت "سها" تنظر للخطاب بعد أن انتهت منه. كانت ترى بعينيها تداخل أحداث ما بين حروب أهلية إيطالية وقصور رومانية ومزارع لا يحدها حدود ونغمات متراقصة. وكثير كثير من الحب والألم واللوعة.

رفعت رأسها بعد برهة. وهزت رأسها مستعلمة من السيدة "وادي" التي ابتسمت وقالت:

- نعم لم أحبه. كان بالنسبة لي أستاذ الموسيقى الجميل. لم أكن أعـرف أي شيء مـما قاله لي في هذا الخطاب. ولستُ أعرف لو كان ألح عليَّ كنت سأحبه أم لا.

- ماذا حدث له بعد ذلك؟

- لم أره بعدها على الإطلاق. وفي المدرسة سمعنا بعض الأقوال المتضاربة والإشـاعات وصلت إلى انتحاره دون أن نعلم السبب. لا أظن أنه انتحر. لا أعرف ما الـذي حـل بـه. خاصة أنني انتهيت من المدرسة ثم انتقلنا إلى المصيف وهنـاك لحـق بنـا "أمـين" الـذي أعجبني بطريقة مختلفة عن إعجابي بأستاذي. رغم أن مسـيو "أدولفـو" كـان أكـبر مـن "أمين" بسنوات قليلة. تزوجت أمين وأحببته بصدق ومن كل قلبي. أمَّا ما أدهشني أنـه سمح لي بالاحتفاظ بهذا الخطاب عندما أطلعتـه عليـه، لم يكـن يجيـد الفرنسـية، قـرأه سريعًا وأدرك ما فيه ثم ناولني إياه بلا اهتمام أو ربما بتعالي المنتصر. لم يَثُر رغـم غيرتـه التي كانت في أشدها أول الزواج.

همهمت "سها" ثم أعادت المرور بعينيها سريعًا على الخطاب المكتوب بخط جميـل لكن عتيق الشكل. الحروف المائلة المرسومة بحرص وعناية في أول الأمر ثم بدأت تفقـد مرونتها رويدًا رويدًا، وكأن اليأس يحل فيها كدبيب الفناء.

- من "ناريمان كاظم"؟

- كما قرأت. كانت مدرسة الرسم لي ولكل بنات العائلة تقريبًا. أتعرفين "فيكتوريا كوهين"؟

هزت سها رأسها بالنفي.

- "فاكرة فؤاد المهندس في مسرحية (أنا وهو وهي) ويقول للسيدة العجوز لما قالت له: "قل لي يا أبله"، فقال لها: "دا كان قبلَ".

- تقصدين مسرحية (أنا فين وأنت فين)؟

- آه نسيت، نعم هي تلك المسرحية.

- نعم.. نعم عرفتها.

- كانت "ناريمان" في آخر أيامها تشبه هذه الممثلة رغم أنها أرتنا صورًا رائعة لها في صغرها. كان مكياجها الزائد بالروچ الفاقع والحواجب والكحل شديد السواد يزيد من عمرها ولا ينقصه. كثيرًا ما عن لي أن أقول لها أن تخفف قليلًا من مكياجها. لكني كنت أخجل. وفعلًا يقولون إنها كانت من حريم السلاطين في إسطنبول حتى هاجرت إلى مصر حيث لم يكن لها أي قريب. وكانت موضة أيامها تعلم الرسم لبنات العائلات من كل المستويات. لكن للحق لم تكن ماهرة في الرسم. لوحات عادية جدًّا مجرد نقل للطبيعة أو لصور الكارت بوستال. لم أكن ماهرة أنا أيضًا في الرسم ولا أختي "وداد". فقط مايسة ابنة خالتي هي التي تابعت حتى دخلت فيما بعد كلية الفنون الجميلة لكنها تُوفيت سريعًا بعد زواجها.

صمتت السيدة "وادي" ثم تابعت كأنها تحاول أن تتذكر قدر الإمكان:

- عندما سألت أمي لماذا معظم اللوحات التي ترسمها "ناريمان" نضعها لوقت قصير على الحائط ثم نغيرها باللوحات الجديدة ونضع القديم في الصندرة. كانت تسكتني ثم فهمت من كلامها أن العائلة كلها تفعل الشيء نفسه فقط لمساعدة "ناريمان" على المعيشة.

- وماذا حل بها؟

- حل بها ما يحدث لكل الناس يا سها، وربنا يرحم الجميع.

انقبض صدر "سها" وبدا على وجهها، فقالت السيدة وادي:

- لكنها كانت فائقة الجمال وهي صغيرة. "ناريمان"!



9



يعصف بـ"شمس" الخوف ألا تكون من نصيبه في الدنيا. إذًا ما معنى الحياة؟ حياة بلا "هيام".. حياة بلا معنى. ألهذه الدرجة تستطيع الدنيا أن تشظي ذواتنا وتحطمنا هشيمًا بلا مبالاة؟ وهل يمتزج أحباؤنا في هذا الفتات المتناثر أم أن روحه فقط هي التي ستصير هباءً منثورًا في كل فضاء؟ ولكسر من الثانية تراءت له أشكال كليدوسكوبية لألوان مبهرة لشيء تهشَّم وتداخلت سريعًا سريعًا دون أن تترك له فرصة للتأمل لكنها للحق أبهجته وأسرت روحه. ربما الجمال يوحي بتجدد إلى ما لا نهاية! أقرب للأمل في حياة بعد الموت.

لا أعرف أين أجدك يا حبيبتي، القمر يدلني عليك، على وجودك، تنظرين إليه يا تُرى كما أشاهده أنا الآن؟ هل يبثك غرام عاشق ملهوف مثله، عاشق مغبون في حبه، عاشق أبله بحب قاتل.

أهو الشجن الذي يحكون عنه في الروايات وأبيات الشعر؟

خرجت "قمر" من الغرفة إلى البلكون ووقفت بجوار أخيها، تتطلع إلى القمـر الـذي يرنو إليه شمس.

- ما أجمله!

هز رأسه. ولم يتكلم. بعد برهة قالت قمر:

- ألا ترى به شيئًا عجيبًا، كأنه يضحك رغم حزنه؟

التفت إليها منتبهًا. ثم نظر إلى وجهها. هـي هـو. بـالعيون الحزينـة نفسـها والفـم الضاحك. احتضنها قائلًا:

- آه يا قمر. ما أجملك. أنت أجمل شيء في الوجود. أنت أجمل أخت في الدنيا.

ثم بدأ يغني الأغنية التي تضحكها:

"أختي حبيبتي الأخت الأصغر يوم ورا يوم عمَّالة تكبر

وابتساماتها مالية حياتنا

أختي بتكبر وبتْنوّر

أختي أختي".

ثم لضمها بأغنية أخرى:

"يا أحلى أخت في الوجوود يااااا قمر

يا اسم مخلوق للخلود ياااااا قمر

نعيش لقمر ونموت لقمر

قمر قمر أحلى قمر".

اعتصرته بحضنها الدافئ. كان يعرف شعورها دون أن تتكلم. فهو مثلها لا يستطيع أن يقول لها إنه يحبها جدًّا جدًّا جدًّا. يكتفي فقط بالغناء الهزلي. وهي تكتفي بالصمت. لو تكلَّم لانحشر الصوت في زوره، وارتعش. ختمته الطبيعة بهذا الختم.

يُسعده للغاية كلما عرف كيف يضحكها. فقد اكتشف مثلًا أنها تقهقه عندما يحرِّك قدمه سريعًا لو كان يضع ساقًا على ساق أمامها. ما إن يبدأ بتحريك قدمه بسرعة حتى تقهقه مثل طفل يرى لعبته المفضلة. ولو أصاب الخدر ساقها أو قدمها قام سريعًا وانقض عليها كي يدغدغها، فكانت تتعمد ألا تلفت نظره إلى ذلك لكنه كان يعرفها جيدًا من نظرتها؛ فيتم الانقضاض والضحك الهستيري معًا حتى يذهب الخدر.

سمعها مرة تقول لأمهما: "يجب أن يتم الاحتفال بالأب أيضًا مع عيد الأم".

ثم صمتت ولم تكن تراه. ويجب أن يكون هناك عيد كبير للإخوة. عيد غير أعياد ميلادهم.

أفاق من شروده على صوت قمر الرقيق:

- "هل تتذكر الأغاني الثلاث التي علمتها لي عندما رجعت من إسبانيا؟ فاكر يا شاانس؟".

ثلاث أغانٍ أُعجب بها "شمس" لما سمعها من زملائه العرب في إسبانيا. أغنية غناها التوانسة: "لاموني اللي غاروا مني". وأغنية من العراق: "هذا الحلو قاتلني يا عمة". والأخيرة إسبانية: "ابن القمر (إيخو دي لالونا Hijo de la luna)". حفظ "شمس" الأغنيات الثلاث لأنه كان يعرف أنه سيسعد بها "قمر".

ولما درس "شمس" الإسبانية في معهد ثربانتس، سُحرت "قمر" بكلامه عن لوركا، الذي كتب عن القمر أكثر من أي شيء آخر. سريعًا ما لقطت منه مبادئ اللغة الإسبانية وبيسر تام.

دندنت "قمر" الأغنية:

"أحمق من لا يفهم الأسطورة عن غجرية صلت لربة القمر باكية حتى الفجر أن يحبها معشوقها الغجري. وافقت القمر لكن على شرط، أن تهبها الغجرية الطفل الأول الذي ستلده. أتريدين أن تصيري أمًّا يا قمر؟ ألا تجدين من يحبك لتصيري امرأة! ولما جاء الطفل شاهق البياض كالقمر من رجل بلون القرفة، اعتقد الغجري أنه وُسِم بالعار لخيانة امرأته فقتلها طعنًا بسكين. وأخذ الطفل وتركه في عراء الجبال. عندما يبكي الطفل تنحسر القمر هلالًا لتصنع له مهدًا. إنه ابن القمر".

أُخذ "شمس" وبُهت بحساسية قمر الفائقة كأنها ترد على تساؤلاته بالغناء. من أنت يا قمر في أبطال الأغنية الأسطورة؟

أأنت القمر؟ أمن أنت: الفتاة أم الغجري؟

مسكين كل من يقع في الحب. أي نهاية تنتظره.

صمتت "قمر" وبقيا ساكنين يحدقان في القمر الموشك على تمامه.

ناجى "هيام" مرة أخرى في سره عن طريق البدر: "أهواااااك. أهوااااك".



عند التقليب في أوراقه وجد كارت بوستال كان قد أرسله لـ"قمر" من مدريد عنـدما كـان في منحة مدة شهر من المركز الثقافي الإسباني "ثربانتس" في مدريد.

لم تكن الوردة
تبحث عن الفجر:
خالدة على غصنها تقريبًا
كانت تبحث عن شيء آخر".

La rosa
no buscaba la aurora:
Casi eterna en su ramo
buscaba otra cosa.

لم تكن الوردة
تبحث عن علم ولا عن ظل:
حدود من لحم وحلم،
كانت تبحث عن شيء آخر.
لم تكن الوردة
تبحث عن الوردة.
شاخصة للسماء،
كانت تبحث عن شيء آخر!

La rosa
no buscaba ni ciencia ni sombra:
Confín de carne y sueño
buscaba otra cosa.
La rosa
no buscaba la rosa:
Inmóvil por el cielo!

فضفض لـ"سها" في الذكرى الأولى لـ"قمر".

أرسلت لأبي وأمي كارت بوستال من إشبيلية، عليه صورة (ميدان إسبانيا) وسطور بسيطة عن الرحلة حتى لحظتها، لكن على كارت آخر عليه صورة قصر الحمراء، كتبت لها قصيدة للوركا كنا نعيد قراءتها معًا. ولكن بعد عشرة أيام وصل إلى كلية "نويسترا سنيورا دافريكا" حيث كنا نقيم في مدريد كارت من مصر عليه جملة بخطها الجميل. كتبت (la luna buscaba otra cosa). بعد رحيلها فوجئت بالكارتين بين أوراقها الكثيرة. وقتها عندما قرأت الجملة ضحكت لأنها وضعت اسمها ضمن بيت الشعر، فبدلًا من: "كانت الوردة تبحث عن شيء آخر"، كتبت: "كانت قمر تبحث عن شيء آخر". لكن الآن أفكر كثيرًا ما الذي كانت تبحث عنه زهرتي الجميلة قميرتي المنيرة؟ نعم، كان في عينيها السوداوين اللامعتين بحث عن شيء لم تقله لأي شخص حتى أنا أقرب الناس إليها. هل كانت تبحث عن حب حقيقي لم تجده مع حبيب وزوج. هذا البحث الدائم عن شيء مجهول قد يكون امتثال الإنسان للحق والنور والجمال. كانت تحب الرسول وتتمنى أن تكون إحدى زوجاته في الجنة طالما لم تكن في الأرض. ليس حبًا من المنطق الديني لكن لكونه الرجل الكامل من وجهة نظرها. تُكِّن له إعجابًا لا حدَّ له. لكن الرسل في عالم الغيب. لم أفهم كيف يمكن لروح بكل هذه الخفة والرشاقة والضحكة التي لا مثيل لها إطلاقًا أن يضللها بحث دائم عن وهم اسمه "الصح". كم قلت لها إن "الصح" الدائم المستمر لن يكون موجودًا على هذه الأرض إطلاقًا. تعترف: "نعم قد أكون حالمة؟". تقولها ضاحكة. كم أشتاق لضحكتك الجميلة التي ما إن

سمعها أحد معارفنا الشعراء حتى كتب فيها قصيدة قصيرة جميلة تتقاطع كل عدة أسطر بلازمة (يا لضحكتك يا قمر)!

"قمر" التي عندما عرفت أن "نبيل" حبها الأول يخونها، قالت: يهون كل شيء إلا الخيانة". قالت لها عمتي: "أهملي الأمر، كل رجل يخون". قالت وهي مذهولة: "إلا الخيانة يا طنط. أحبه لكن إلا الخيانة". غمغمت العمة: "لا بدَّ أن النصف المصري فيه هو الذي دفعه للخيانة". ردت "قمر": "نصفه المصري نصفه الأوروبي.. المهم إنه خانني". فمصمصت عمتي شفتيها بطريقة مضحكة وقالت: "رجال لا أمان لهم".

ضحكت "قمر" من عمتي وقالت لها: "أم كنتِ تريدين أن أفعل مثلما سمعت عن خالة جدي الصغرى، لما انكشف الأمر في مأتم زوجها، بدخول ضرتها وابنة منه، أنه كان متزوجًا عليها، وتأكدت من الأمر، وقفت وقالت للمقرئ: "توقَّف. شكرًا ومع السلامة". ثم دخلت وارتدت فستانًا أحمر وخرجت للمعزيين وقالت: "انتهى أمره. وشكرًا لكم. الله يرحمه". ثم صمتت للحظة وأكملت: "ويجحمه معًا".

قهقهت أمي التي كانت تسمعهما قائلة: "الله يجازيك يا طنط صفية".

كان "شمس" يحكي وضحكة تشبه ضحكة "قمر" على وجهه.

صمتت "سها" ولم ترد وفكرت: "لكن عمًّا كانت تبحث "قمر"؟ "قمر" التي طارت وأخذت الصبي معها!".



"نبيل" نصف مصري نصف ألماني من جهة والدته. بعد الطلاق، لم تفسد العلاقة بين قمر وحماتها بل ظلت على أحسن وجه، حيث كانت السيدة الألمانية تلوم ابنها دائمًا: "ابني لكنه لا يستاهلك".

كان "نبيل" في المدرسة مشهورًا هو وأخوه الأكبر لجمالهما. طفلان أشقران من الألب. لا يسكن بعيدًا عن بيت "قمر" و"شمس" في مصر الجديدة. هاجر أخوه الأكبر لبلد أمه بعد الثانوية العامة مباشرة واشتغل في شركة سياحية كبيرة، لكونه يعرف العربية مع الإنجليزية والفرنسية وبالطبع الألمانية التي كانت اللغة الأم في البيت. مكنته اللغة العربية في التقدم سريعًا في الشركة السياحية لأن أوان العرب الأغنياء قد بزغ بعد حرب ثلاثة وسبعين. وأصبحت معظم المحلات التجارية في أوروبا خاصة فرنسا وألمانيا وإنجلترا تتلهف على الموظف الذي يعرف لغة أهل الثروة الجدد. أمَّا "نبيل" الذي عمِل مع أبيه فكان لاهي الطبع، طيب دون شك، روحه بسيطة بشعار كثيرًا ما ردده عند كل موقف صعب: "الحياة أبسط من كل شيء". لم يأخذ من طباع أمه الفلاحة الدؤوب التي أتت من أصول بولندية شمال ألمانية أي صلابة أو قوة أو تماسك، رأت بلد أبيها بولندا ثم بلدها هي ألمانيا وقد دمرتهما الحرب تمامًا. وكان أبو "نبيل" هو الفتى المصري الذي ذهب للدراسة في ألمانيا. المنقذ الجميل الذي أرسله المسيح لها كي ينجدها من التقشف إثر سنوات ما بعد الهزيمة والحرب. تزوجا في ألمانيا والعالم كله يحتفل بمرور عشر سنوات على انتهاء الحرب العالمية الثانية. لم يُكمِل دراسته بل عاد إلى القاهرة وهي معه ثم أصبح عندهما ثلاثة صبية. بدأ الرجل في التجارة مثل أبيه الراحل في الميناء بالإسكندرية

ثم توسَّع بمكتب في القاهرة فانتقل إليها هو وأسرته. لكنه قبل أن يكمل الخامسة والخمسين خسر كل أمواله لدخوله شراكة مع صديق غير مؤتمن وانتهى الأمر بوفاته حسرة على غدر الصديق. انتهت الأسرة إلى حد التقشف. تصادف "نبيل" و"قمر" مرة، في لحظة كانت الحياة قد كتبت بزوغ الحب ورجوع الإعجاب القديم.

دخلت "قمر" كلية التجارة في القاهرة تأثرًا بـ"نيهال" صديقتها الأقرب في المدرسة التي سرعان ما وضح أنانيتها ونرجسيتها العالية وغيرتها بعد إعجاب "نبيل" بـ"قمر". فكانت صدمة "قمر" في صديقتها واستغراب هذه المشاعر السلبية التي تجابهها يوميًّا مما جعل "قمر" لا تثق كثيرًا في صداقة البنات. اعترض "شمس" على دخول "قمر" هذه الكلية حيث يرى أنها ستستمتع أكثر في كلية فنون جميلة أو آداب قسم اللغة الفرنسية. لكنها صممت وعاندت لأنها بدأت تشعر بأنها لا تريد أن تكون نسخة من أخيها. بدأت مرحلة الأنا والانفصال عن توءمها الروحي. أيامها قالت له بضحكة: "لا تنصحني بكتب جديدة، أو أفلام مهمة، أستطيع أن أختار". وفي الكلية بدأت قصة حبها مع نبيل.

لم تحكِ "قمر" لـ"شمس" عن هذه العلاقة البادئة رغم الصداقة القائمة بين توءمي الروح، ربما خجلًا، ربما احتفاظًا بخصوصية، وعلى الأرجح لكونها كانت تدرك أن "نبيل" ولد عينه زائغة ولعوب. ولكنَّ عينيه تختلف معها كلما تقابلا، فتشعر بالحب يطل منهما ويصبح صوته أكثر رقة وربما تزداد بحة صوته المميزة له. ترى حبها ينمو في عينيه خطوة خطوة. تراه مع غيرها لكن تعرف أن في قلبه مكانًا واحدًا فقط. لم

يصارحها لكنها تعرف. وأيضًا تعرف أن هذا الحب لـن يحتمـل الإخـلاص. خُلِـق هكـذا وساعدته الطبيعة. لكن ماذا تفعل لقلبها هي؟ أفضل شيء أن تبتعد عنه لكن في يـوم كتابة الرغبات في استمارة الكليات كانت كليته هي ما انكتب. كان "نبيل" يكبر "قمر" بسنتين. ولما دخل الكلية بدأ في الرسوب ربما لتغلب طبيعته غير المحبة للدراسة وحبه للمغامرة على كل ما عداها. حصلته "قمـر" في سـنته. وخـلال الـثلاث سـنوات الباقيـة عرفا أنهما لبعضـهما بعضًـا رغـم المشـاجرات التـي كانـت تقـوم كـل فـترة. وفي هـذه السنوات التزم "نبيل" قدر استطاعته بالبعد عن الخيانة، أولًا حبًّا في تلك الرقيقة التـي تحبه، وثانيًا خوفًا من تلك الحادة التي لا تـرى سـوى فعـل الصـواب حتـى ولـو عـلى رقبتها. بعد فترة اكتشفت "قمر" أن "نبيل" شـكلًا يكـاد يكـون النسـخة الشـقراء مـن أخيها. لهما ملامح مشتركة، والبرج نفسـه. وربمـا الطريقـة العجيبـة نفسـها في الحـب، صحيح كل واحد فيهما له نمط إلا أن الحـب مغمـوس في روحـيهما. لم يكمـل "نبيـل" الكلية مللًا وفشلًا وبدأ في رعاية مصالح أبيه في الإسكندرية، حيث أعاد افتتاح مكتـب جده التجاري من الميناء. ابتعد "نبيل" عن قمر مدة سنتين بعد شجار عنيـف بيـنهما، ورأى كلاهما أن الابتعاد أفضل حل، أصبح يعـيش في الإسـكندرية لكنـه لم ينسـها، ولم يتمتع بأي من علاقاته التي أقامها هناك ثم تُوفي والده وأمسك هـو العمـل والمكتـب، مكتشفًا أن شريك أبيه خدعه وهو ما أدى إلى وفـاة والـده. انـزوت "قمـر" في الكتـب والروايات والرسم. وفقدت اهتمامها وطموحها في الدراسة بعـد الاحتكـاك بسـخافات الحياة العامَّة وكثرة منافقيها، بل بدأت في مرحلة من الاكتئاب. فقررت الابتعاد نهائيًّـا عن كل ما يؤذيها وتفتح أتيليه للرسـم تعـرض فيـه أعمالهـا وأعـمال آخـرين تعرفـت

عليهم في المجال نفسه. في نهاية السنتين أعاد الاتصال بها قائلًا إنه سيأتي هو والدته للخطوبة. رغم فرحتها الغامرة قالت له: "أمتأكد أنت؟ "نبيل" أنت تعرفني، الحب عندي معناه الإخلاص". هز رأسه كأنها تراه في التليفون لكنها رأته بعين المحب وعرفت.

تقدم "نبيل" وحده للدكتور "أمين". وفي زيارة رد من الأسرة لأسرة "نبيل" في بيتهم في القاهرة قالت السيدة أوتا بصراحتها الألمانية التي لم تنسها في مصر إنها لا تضمن ابنها. ضحك هو محرجًا وقد احمر حتى اقترب من لون الطماطم. هو طيب لكن غير مسؤول. وقالت بما معنى الكلام إنها غير مسؤولة عن تصرفات نبيل. لكن قمر كانت تحب "نبيل"، وكان "نبيل" جميلًا. وعلى رأي سعاد حسني، "جربنا الحلو المتعايق أبو دم خفيف". ويبدو أن "شمس" ظل صامتًا طوال المقابلة عند "آل نبيل"، فشعرت "قمر" أنه غير محبذ لارتباطها بـ"نبيل" وكان رأيه يهمها لكنها لم تكن للتنازل عمَّن تحب. في نهاية الأمر وافق الدكتور "أمين" والسيدة "وادي" على الزواج. ورغم الظروف التي أطاحت بثروة والد "نبيل" وبدايته مرة أخرى في العمل من قرب الصفر، فإن نواياه كانت واضحة للعمل والاجتهاد أمام أسرة "قمر". قال: "سنستقر في الإسكندرية حيث عملي". ولأن السيدة "وادي" لم تستشعر استمرار الزواج طلبت من زوجها أن يمنحهما شقة المصيف في الإسكندرية حتى يستطيع "نبيل" أن يوفِّق أوضاعه كما أنها تكون معززة مكرمة في بيتها وليس في بيته. رقة قلب الدكتور "أمين" ساعدت على الموافقة لسعادة ابنته المحبوبة.



كانت "قمر" تحب أن تلعب مع "نبيل" لعبة: "صفني في عينيك وأنت مغمض". وكان يحاول وكلما حاول زاغت منه ملامحها. وظهرت ملامح فتيات أخريات أحبهن وأوقعهن في شباكه. كانت بالنسبة له ضوءًا قويًّا يكاد يعمي. لم يحتمله كثيرًا. حن للغابات التي كان جده يحرسها. في ليالي المتعة كان يعيد لها حكايات أمه عن جده وصباها في الغابات التي لم يكن قد رآها من قبل. وهي تكلمه عن الشاعر "ريلكه" الذي لا يعرفه وحبه للفتاة المصرية الجميلة نعمت علوي. ثم تكمل بأسى لكنها كانت السبب في موته أيضًا. يحتضنها ويقول: "دعك منه ومنها. ومن ألمانيا ومصر، ومن الشعر والعمل. ما لنا سوى الحب يا حبيبتي".

في اليوم التالي يتحول إفطارهما العادي اليومي من جبن وعسل إلى عسل وعسل وعسل. غير أن الأيام لا تخبئ في جعبتها غير نوع واحد من العسل، أسود اللون حتى ولو كان حلو المذاق. عسل يمحو الأمل ويخفيه إن لم ننتبه. الحب حوَّل "نبيل" الصبي الجميل إلى رجل يحاول أن يتحمل مسؤولية لم يُخلق لها. وحب أكبر من قلبه الصغير وامرأة أكثر إعصارًا من روحه البسيطة غير المركبة.

أما هي فكان الحب حتى تخوم المستحيل هو الحل الوحيد والأمثل لها.

ولكن هي سنة واحدة كانت "ريما" الجميلة قد عادت لعادتها القديمة. تعرَّف "نبيل" على امرأة أخرى ورأته قمر ولم تغفر. لم يستطع رحمها أن يحتفظ بطفل منه. أجهضت في الأسبوع السابع من لوعة القسوة والخيانة. ألهذا لم تستطيعي الرجوع إليه رغم الحب؟ قررت أن تخلعه قبل أن يعرف ما الخلع في مصر. كانت تقول ضاحكة كنت أول خالعة.

كان تألمها لأنها تطلب طلاقًا من شخص تحبه حبًّا شديدًا. كان "نبيل" يعرف أنها تحبه وأنه في داخله يحبها. تم الطلاق برد الشبكة.

(البنت ذات الإبهام اللين الذي ينثني للخلف بطريقة زائدة. كم أكرهها). كانت "قمر" تفكر من وجهة نظر جمالية. شعور مقزز عندما رأت الإبهام وهو ينثني ويحول صاحبته إلى كائن هلامي ولون بشرتها تتحول إلى جيلي فاسد. كان هذا أول تعليق يصل إلى مخ "قمر" وهي ترى "نبيل" يجالس فتاته في نادي اليخت. ثم توالت الإشارات إليها: حجابها القميء ولون بلوزتها ونوع بنطالونها. وتفاهة كلامها التي أعطت بعض العذر لنبيل. فماذا كنت تظنين يا "قمر" إن جلس رجل متزوج مع صديقة أو حبيبة أو عشيقة: سيتكلمان عن قصائد "تيد هيوز" و"سيلفيا بلاث" أم الفرق بين سينما أ"نطونيوني" و"جودار"؟ كلام بسيط يبث لها ما يعتمل في قلبه الأبيض الخائف، أما حوارها هي فغثاء تام. وجهة نظر زوجة محبة عاصفة الروح في فتاة تافهة.

ما الذي سيدفع "نبيل" إلى خيانة "قمر" في نهاية سنتهما الأولى للزواج؟ أليست الطاقة المدمرة التي فطرنا عليها كي نطيح بكل شيء جميل حولنا. رغبة الموت وربما رغبة القتل المخلوقة فينا منذ أيام الصراعات البدائية. أنا أو الآخر حتى ولو كنت أحبه. عندما غيبها الموت بكاها كثيرًا كثيرًا ليس كزوجة رغم شعوره أنها لا تزال نصفه المكمل، لكن كحبيبة ضائعة وصديقة لا مثيل لها.

ما الذي جعل علاقة الحب بين "نبيل" و"قمر" لا تستمر وقت الزواج؟ الأصل في الموضوع هو الفرق بين شخصيهما. "قمر" الحالمة ذات

شخصية مركبة لا تريد إلا الصحيح الصحيح. عندية ولا تميل مع المائلين. لا مرونة عندها خاصة في المشاعر. عكس كل أصدقائه البسطاء مثله لا تشغلهم أفكار مثل وجود العناية الإلهية من عدم وجودها ولا.. ولا.. ربما جعل هذا "نبيل" غير مطمئن في علاقته بها. لم تكن هي على علم بذلك، لأن هذا لم يخطر ببالها نهائيًا. هو يغير عليها وفي بعض الأحيان منها. يفتخر بها ويغتاظ منها، وهي ليست هنا، هي في وادٍ آخر اسمه الحب الذي لا يرى سوى ما تراه. لم تكن ترى سوى حبه ولا رجل سواه. كانت تتصور أن الجنة كان بها عدة أوادم لكن حواء لم ترَ غير آدمها حتى ولو عبر كل الأوادم أمامها. أما هو فكان يتخيل وجود حواءات أخريات رغم عدم وجودهن. أهكذا خلقهما الله أم..؟

عندما انفصل "نبيل" و"قمر" انقطعت العلاقة بينهما مدة عامين ثم ما لبث أن عادت من جديد لكن على قاعدة جديدة وهي الصداقة. هاجر "نبيل" بعد الطلاق بسنة وتزوج ألمانية ثم طلقها وعنده منها بنت وولد وبنت أخرى من علاقة غير شرعية. أصبح تليفونه إلى "قمر" شبه أسبوعي وإن لم يتكلم هو هاتفته هي. يحكي لها عن كل علاقاته وللعجب لم تشعر "قمر" بالغيرة على الإطلاق من تعدد علاقاته النسائية هناك. كان يستشيرها أيضًا في عمله الجديد، حيث كان يجلب أثاثًا وتحفًا، خاصة النُحاسية من مصر ويعرضها في المحل الذي استأجره في ألمانيا. طلب الرجوع إليها لكنها قالت: "ألا ترى أننا أفضل حالًا كأصدقاء؟ أتقبل ما أنتَ فيه وأحبك أيضًا". رد قائلًا: "لماذا لم تكوني بهذه البساطة عندما كنا زوجين؟". فتجيبه: "الصداقة شيء والزواج شيء آخر". يرد: "ليتني لم أوافقك على الطلاق وليتني لم أهاجر".

ألح عليها في الرجوع إليه قائلًا وهو يكتم ضحكة: "حتى طلاقك مني كان رائعًا يا قمر. لو تعرفين ماذا فعلت زوجتي الألمانية، أخذت أكثر من نصف ما أملك. أنت حتى أرجعت لي الشبكة. هه. ما رأيك؟ ألا نرجع لبعض يا حبيبتي". لكنها ضحكت ضحكتها ويااااا لضحكتك يا قمر. فهم "نبيل" أن الأمر انتهى رغم بقايا الحب.

لما تم الطلاق رجعت قمر للمعيشة مع أبويها في القاهرة حتى توفي الوالد. اتصل بها من ألمانيا يعزيها وكان حزنه لوفاة حميه السابق صادقًا وحقيقيًا.

حاول "نبيل" أن يجعل "سها" تقنع "قمر" بالعودة له. تضحك "سها" ولما تحكي لـ"قمر" تضحك "قمر".

ولما أصابه مرض السكري كان انشغال "قمر" على صحته كبيرًا. واتصالها به يكاد يكون يوميًّا. أصبحت علاقتهما أكثر حميمية وأكثر صراحة خاصة لوجود المسافة الكبيرة بين ألمانيا ومصر.

ولما رحلت "قمر" ظل ساعة على التليفون يبكي لـ"سها" ويقول إن "قمر" هي الوحيدة التي أحبها بصدق وأنه قد أضاعها بغبائه. تواسيه "سها" مشفقة على حاله وحالها. ولمرتين ثلاث هاتف "سها" كأنه يتطلع لقمر عن طريق صديقتها ثم خفتت مكالماته حتى غاب مع الغائبين.



يجلس "شمس" يفكر: تكالبت عليك الخيبات يا "قمر". غيرة صديقتك المقربة. طلاق طلبته وصممت عليه من حبيبك، ثم مرض أبيك ووفاته - أبوك المتعلقة به إلى آخر حد - ثم إغلاق الأتيليه لعدم احتمالك

كل سخافات وطلبات موظفي الضرائب والمحليات ووو.. أصابك المرض رغم أنك بـدأت تشعرين ببعض الميل لواحد من الذين كانوا يخطبون ودك. شعرتِ أنه أكثرهم جديـة. مرضت وما إن عرف بإصابتك بالمرض حتى ذاب بعد مـرتين حـاول أن يتماسـك فـيهما. قلتِ لي: "لا لوم عليه. لا يستطيع أن يحتمل. ليس لكل الناس القدرة على المواجهة".

دائمًا ما كان "شمس" يكرر هذه الحكاية: "أحبها؟ أنا اختلست من أجلها".

عندما كان أي شخص يلاحظ مقدار حب "شمس" لـ"قمر" كان يقـص الحكايـة. في المدرسة في عيد الأم جمع الأطفال بعض المال كما طلب المدرسون لنشتري هدية للمير سوبريور مثلما سنهادي أمهاتنا. ولأني كنت طفلًا هادئًا محببًا لمدرسة الموسـيقى التـي كانت تجلسني جوارها على كرسي البيانو خـلال عزفهـا، قـررت أن تـترك النقـود معـي حتى نقرر ما هي الهدية. أصبح معي في جيبي مبلغ خمسة جنيهات كاملة. أمي أتت لنا بطفلة من السماء كما قـال لي أبي. وأصـبح عنـدي أخـت صـغيرة. اسـمي "شـمس" وهي اسمها "قمر". أنا قررت أن أهاديها أيضًا. ووجدت معي الخمسـة جنيهـات، مـع العلـم أن مصروفي كـان خمسـة قـروش تكفينـي وتزيـد. ذهبـت إلى كـانتين المدرسـة وناولت للرجل الجنيهات وقلت له: "أريد بها بومبوني وشوكولا". – "متأكـد بالخمسـة جنيهات كلها؟" هززت رأسي بنعم. وإلا ما معنى أن يكون معـي نقـود؟ عـلى الأرجـح لسـهوي أني لا أمتلـك هـذه النقـود ولا أعـرف معنـى الملكيـة. تعجـب بـائع الكـانتين وأعطـاني كيسًـا ممتلئًـا بمـا لـذ وطـاب ولم يخطـر لي إطلاقًـا أن آخـد منهـا أي شيء. خرجت من المدرسة. وجـدت أبي يقـف في انتظـاري ليأخـذني مـن المدرسـة لأن أمـي

كانت في إجازة لأنها أهدتنا القمر. وجدني أحمل شنطتي المربعة وكيس الحلوى. سـألني ما هذا قلت له هديـة منـي لأختـي. ربمـا كـان عمرهـا سـاعتها شـهرين أو شيء. سـأل متعجبًا: "من أين أتيت بالنقود؟" قلت: "كانت في جيبي؟".. "مـن وضـعها في جيبـك؟".. "مدام سونيا".. "لماذا؟".. "سنشتري هدية للمير سوبريور". ثم سألته مستغربًا مـن عـدم علمه ألم تعطني البارح نقودًا كما طلبت السير؟

فهم أبي كل شيء. وتناول الكيس مني. ورجعنا وحكى لأمـي مـا حـدث فأخـذتني في حضنها بجانب البيبي الجميل.

أفهمني أبي أن الفلوس ليست لقمر وأنها أمانة وما معنى الأمانة. وأعطاني بدلًا منها خمسة جنيهات أخرى كي أعطيها لمدام "سونيا".

وهكذا بمجرد أن جاءت "قمر" أصبحت أنا مختلسًا ولصًا والحمد لله أن مستقبلي لم يضع بسببها.

فتقوم "قمر" وتقبلني وهي تقول: "حبيبي أنت والـلـه يا شمس".

يكمل حكاياته عن "قمر" لـ"سها" التـي تسـمعها مسـتمتعة لمـرات ومـرات وكأنهـا تشاهد فيلمها المفضل في التليفزيون.



لما كنا نقف صغيرين متجاورين أمام المرآة، كانت "قمر" تقول لي من أنا ومن أنت؟

كانت ماما تصنع أقنعة من الورق الملون كشمس كبيرة أضعها على وجهي وقمر جميل لـ"قمر". وفي أحيان كانت "قمر" تصمم على تبادل الأدوار. فتلبس هي الشمس وتعطيني القمر.

ولما وصلت إعدادي قالت لي: "في الفرنسية أنا مؤنث وأنت مذكر لكن في العربية العكس". فأذكرها بإصرارها صغيرة أن نتبادل الأقنعة فتضحك. فأزيدها ضحكًا كي يتردد في روحي صدى ضحكتها الرائعة.



احتضنت السيدة "وادي" ابنها "شمس" وقالت بصوت مشروخ بين لوعة حزن على "قمر" وخوف جارف من فقد "شمس" الذي ظل يردد: "راحت وأخذت روحي معها"، وبين إيمان عظيم لتخفف عنه وتعزيه:

- ربما يكون من الحب أن نترك أحباءنا يرحلون في ميعادهم. فلندعها تغادرنا بهدوء.

لم يكن يعي ما الذي تقوله السيدة "وادي"، حاول الانتباه لكلامها أيضًا لإشفاقه عليها لفقدها ابنتها وصديقتها. حاول أن يحتضنها لكن خذله ساعداه. جسده كله محلول لا قدرة له عليه. كأنه لا يتبعه. هذه الوحدة التي تطبق عليه، هذا الفراغ الكامل الأسود. الانمحاء التام. كيف يكون وهي ليست معه؟ كيف يهون عليها أن ترحل قبله؟ ألم تكن أخته الصغيرة، كيف واتتها الجرأة أن تغادر؟ حبيبتي يا أختي. آآه.

اهتز جسده كله بنشيجه فاتَّحد بنشيج أمه. من لهما الآن؟ من يضبط الحياة وهي كانت بُصلة العائلة؟ من يجعلها معقولة؟ من يجعل للشمس

قيمة، وللنسيم رقته، وللضحكة حلاوتها وللكلام طلاوته؟ من سيناقشه ويحتد ومن سيناقشه ويبتسم؟ من يجعل للأسماء مدلولاتها وللأشياء وجودها؟

لم يبقَ مني أي شيء.

"أنا من مات".



في دولاب الأم ملابس سوداء كثيرة. بأشكال مختلفة، أنيقة جميلة، وكثيرًا منها بها خطوط بيضاء بسيطة، أو كرانيش دانتيل سوداء رقيقة على الياقة أو الأكمام. كأنها تستعد دائمًا لمجاملة في عزاء ما. ولكن عندما حدث ما حدث لم تحتمل لبسه لفترة طويلة. هكذا هن السيدات يعرفن الحقيقة ويتعايشن معها. ما إن انقضت الأربعين حتى بدأت تلبس على استحياء ألوانًا خافتة ولم تكن عادة تحب أحمر الشفاه لكنها بدأت تضع قليلًا من الأحمر المكتوم يزداد تألقًا شهرًا بعد شهر. ومرة قالت لابنها الذي كان يشجعها بلا تلبسي الأسود: "الأسود خادع. لو أن ارتداءه يرجع من فقدنا للبسناه إلى أبد الآبدين. الأسود للآخرين ولا يهمنا في حزننا الآخرون حزنًا وشفقة عليهم".



ليلتها حلم "شمس" بامرأة لم يعرفها في الحلم وقفت أمام دولاب بمرايات كبيرة في غرفة نوم تشبه غرفة نوم جدته في مصر الجديدة. كانت غادة هيفاء جميلة لكن حزينة. عرف أنها فقدت أختًا لها. وأنها في الحلم قررت ألا تلبس الأسود، لكن الأبيض. همس شخص لا يعرفه: "كما في

الإسلام. ثلاثة أيام بيضاء". كان الشخص الذي همس هو "أليكسي" أحد الإخوة "كرامازوف". ثم سار مقتفيًا أثر "زوسيما" الكاهن الراهب. رجع للمرأة التي تقف أمام دولابها. كانت الآن ترتدي ثوبًا أبيض ناصع البياض. تخيَّل أن جناحين سيظهران لها لكن لم يحدث. كان الفستان الأبيض ذو كسرات طويلة متتالية كأنه من الكوريشة. تحول المشهد كأنه على شاشة سينما وهو يتفرج على الفيلم. كان في ذهنه دائمًا أنها حزينة من تعبيرات وجهها حتى لقد قال لنفسه إن المخرج ممتاز حقًا فلقد أوصل لنا حزنها دون كلام. ظل يشاهد ما تفعله على مدى أيام من حياة عادية طبيعية لكنها كانت في كل لقطة تزداد شفافية والأبيض يخف ويشف حتى كانت مرة تتنزه في المنتزة قبالة القصر العتيق ثم أصبحت لا تُرى وتلاشت. لحظتها أشعرنا المخرج أنها أصبحت سعيدة وليست وحيدة. هبَّ من نومه يردد بارتعاش: "حتى الأبيض حتى الأبيض". هدأ رويدًا رويدًا واستعاد امتلاك حواسه لكن بشعور مختلج بين فرح وانتظار فرج وبين شجن بحزن أسود.



قال "ساهر" مادًا يده يعزيه:

- هكذا هي الأشياء الجميلة، فهي لا تحيد أبدًا عن مسارها. إنها الطريقة التي يُسَيّر بها الكون.

هز "شمس" رأسه موافقًا.



كان اليوم هو عيد ميلادها الثالث بعد رحيلها. كلما أحس "شمس" أن اليوم يقترب تشتد الغيوم في حياته ويصبح اليوم الذي كان فيما قبل ملتقى الأحبة يومًا يخاف منه.

هاتفته "سها":

- اليوم اتصل بي "ساهر".

- "ساهر" من؟

- زميلي الذي عرفتك عليه. كان معنا في المدرسة. في فصلي نفسه. كان يعرف "قمر". تكلمنا قليلًا ثم سألني مالك؟ صوتك مخنوق. قلت دون أن أعي: اليوم عيد ميلاد (ولم أستطع أن أقول "قمر") فقلت عيد ميلاد سعاد حسني. وأنا أعرف أنه يدرك تمامًا أنه عيد ميلاد "قمر" طبعًا. فوجدته يقول يااااه. اليوم السادس والعشرون؟ الحمد لله. ثم ضحك عاليًا ممَّا غيَّر مزاجي وجعلني أنا أيضًا أبدأ في الضحك. قال أنت تدركين طبعًا مقدار حبي لـ"قمر" لكن اليوم ذكرى لا بدَّ أن ننبسط ونتفاءل بها وننضحك لضحك "قمر" الجميلة. رددت وقلت: آه يا "قمر". "ساهر" عنده حق يا شمس. قمر جاءت للعالم وجعلت كل من يعرفها يحبها ويحب الحياة. كانت تهب سعادة لكل من حولها.. إلى أي شخص رآها ولو مرة واحدة ورأى ابتسامتها أو سمع ضحكتها. ربما لم يكن ليناسبها عمر أطول تتغير فيه وتتبدل وترى العجز بأشكاله المخزية والمحزنة متحكمًا بها. رحلت في أوج جمالها وعنفوان حياتها. كانت في حزنها رقيقة يغلفها نبل غير أرضي. نبل من ينتمي لعالم أكثر روعة وإجلالًا.

رد "شمس" مختنقًا رغم إعجابه بما قاله ساهر:

- لكن حظها كان....

قاطعته "سها":

- لا يا "شمس". "قمر" حظها جميل لأننا كلنا نحبها.

بدأت نبرة السعادة والصدق التي تتكلم بها "سها" تؤثِّر في شمس. وفكَّر.. نعم يوم مولدها ينفصل تمامًا عن يوم رحيلها. يوم الهبة الإلهية يجب أن نحتفي بها.

وهتف هاتف له: "إذا احتجبتك عن الرؤية بالعين فبعين روحك لا بدَّ وأن تراها".



في الإجازة بين سنة ثانية وثالثة طب، مرت أشهر الصيف الثلاثة كعالم من أحلام لـ"شمس". غابت فيها شمس حياته "هيام" في رحلة بعيدة مع أسرتها في سويسرا. لكن قمرها كان منيرًا ومزدهرًا ومشبعًا للروح. قضى معظم الأشهر الثلاثة في بيتهم في القاهرة. كانت عائلته قد أوحشته جدًّا، خاصة قمر التي أصبحت صبية رائعة الجمال والخفة قد تعدت الخامسة عشر من عمرها بقليل. كان الفستان الجميل الذي تنتظره به في البلكون يجعلها تبدو كأميرة صغيرة. الفستان الأبيض بنقطة الحمراء المتناثرة عليه كأنها تتلاعب على مرعى من ثلج. أشارت له فأشار لها من بعيد. كانت تعرف ميعاد القطار وانتظرته في البلكون.

في الليل كان ينظر للقمر. من المؤكد أن القمر سيوصل حبي إلى هيام، حيث تكـون لو نظرت إليه من مكانها. كما سافر "شريـف" إلى أبيـه في العـراق في الإجـازة. فأصـبح "شمس" متفرغًا لعائلته.

عزف البيانو مع أمه ومع قمر التي تفوقت عليه كثيرًا لتوقفه عن العزف.

في رحلة الأقصر وأسوان التـي سـتكون في السـنة المقبلـة سـيعزف أمـام هيـام عـلى البيانو الموجـود في بهـو فنـدق "أوبـروي أسـوان" المنتصـب في جزيـرة رائعـة في النيـل. سيعزف A time for us ليذكِّر "هيام" بـ"روميو وجوليـت" لكـن الأمـر لـن يزيـد عـلى ابتسامة شاحبة على وجهها. تَحَلَّق كثير من زملاء الرحلة حـول البيـانو الـذي مـا إن رآه "شمس" حتى بدأ في العزف عليه. كانت القاعة خاوية تقريبًا بلا سائحين. وقفت هيـام معهم ثم انسحبت في هدوء كأن الأمر لا يعنيها.

في تلك الإجازة، حضرت الأسرة كلها حفلة "داليدا" في نادي الجزيرة بالقاهرة. وغنت فيها أغنية:

(أخي الشمس)

mon frère Le soleil

فأصبحت هذه الأغنية من أغنيات "قمر" المفضلة. تبدأ بغنائها ما إن ترى "شـمس" داخلًا بيتهم بالقاهرة.

"آه يا "قمر" لو كنت أعرف أن هذه الأغنية تتكلم عنك".

نعم لم يكن "نبيل" سوى مسافر لا مبالٍ، خطف قلبك ليـذهب إلى بـلاد اللامبـالاة ، بلاد تتناسى الشمس أوقاتًا طويلة.

وأن داليدا في نهاية الأغنية يتلون صوتها بالعذاب والأسى:

Je mourrais au soleil couchant

Quand il s'en ira de la route

Laissant derrière lui le doute

Même s'il est en noir et blanc

Je mourrais au soleil couchant

Je me coucherais avec lui

Dans le lit profond de la nuit

"لكأني أردت الموت في الشمس الغاربة النائية عن الطريق

تاركة وراءها شكًّا من سواد وبياض.

لكأني أردت الموت في الشمس الغاربة والرقاد في الفراش المهول لليل".

"فذهبتِ أنتِ يا قمر هناك كي تنامي في الفراش المهول لليل الأسود".



10



كان للحضن الخفيف جدًّا سعادة لا حد لها. لم يكن حضنًا بالمعنى الحقيقي للكلمة. ما أحسه "شمس" كان إدراكه الحاد أولًا بملمس الملابس التي وضع يده اليسرى عليها على كوع "هيام" والنتوء البسيط للمرفق، ثانيًا يدها اليمنى تحتويها يده اليمنى في سلام لثانية واحدة مع ضغطة خفيفة، ولمسة على خده تكاد تكون لثانية من خصلة مارقة لشعرها وهي تلتفت سريعًا للخلف ربما من خجل أو حرج.

الرائحة التي غمرته! هذا الفوح من أرائج كثيرة لا يحددها، لكن أكثرها طيبًا رائحة المانوليا التي ذكَّرته على الفور بشجرة المانوليا ببورفؤاد التي كانت تطرح مرة في السنة بزهرتها الرائعة وفاكهتها العجيبة.

سعادة لا حد لها. كأن حلم الوصل كله تحقق. كأن الحب تركز في تلك الضمة البسيطة التى تمت أمام أناس كثر لا يرون فيها سوى سلام عابر بين شخصين.

كان بعض الزملاء قد أتوا للتعزية في وفاة والدة زميلة لهم في الدفعة اسمها "سارة". وكانت "سارة" محبوبة صديقه "هاشم" ولم يكن لها أي أقرباء بعد موت أمها. كانت وحيدة وحزينة. ذهبت شلة من الأصدقاء إلى بيتها للتعزية... تذكَّر الراحلين خاصة جدته التي كان مرتبطًا بها بشكل خاص. لما رأى "سارة" مريضة في فراشها وحولها مجموعة من الدفعة ولا أحد معها على الإطلاق من أقارب أو معارف، ازداد ألمه وبدأت عيناه – لرهافته - في التلألؤ بالدمع، واحمر وجهه. ووقف على باب الشقة كأنه هو من يتلقى التعازي في امرأة لم يرها من قبل في حياته. وقد ظن بعض الزملاء أن قرابة ما تجمعه بـ"سارة" تجعله يتلقى العزاء. البنات انحنين بأجسادهن نحوه برقة. حتى "هيام" ذات الطبع المتباعد، والتي تتعامل معه بحرص لما بدا من غرامه بها، لم تتمالك نفسها وبدافع من الوقوف الوجِل أمام مواجهة العدم المجهول ولمواساة شاب يحبها ويتألم أمامها، مالت إليه بنصف انحناءة ووضعت يدها على كتفه كأنها تسنده وهمست له: "البقية في حياتك". فبدا الأمر له كأنه وصال لحظي، تماسي. غير حقيقي في نظر الآخرين لكن بالنسبة إليه كان احتواء الحياة له رغم سخرية الموت.

بالنسبة لـ"هيام"، كان جزءًا من هذا السلام المخطوف كاختبار لحقيقة مشاعرها تجاهه. أربكها بوجوده في المكان ووقوفه لتلقي العزاء،

يشتت فكرها ويضطرب فؤادها بطريقته، تكاد تُجزم أن به عرق جنون ثم ترجعه إلى العشق التي لا تؤمن بوجوده بهذا الشكل. لم يعد هناك مجانين هكذا. الوله مشاعر سقطت بقدم الزمن. عندما كان يقص لها ذكرياته عنها في ابتدائي ولما حكَّى لها عن رؤيتها في القاهرة. ولما كان يراقبها هي ووالدها في سيارتها. وكيف كان كثيرًا ما يمشي من سموحة حتى بيتها في جليم ويجلس في الحديقة الصغيرة في ميدان نصف الشارع بجوار العمل العجيب لمركب فسيفسائية عملاقة. تبتسم بعيون منتشية؛ فالأمر في جزء منه كان القطة التي تحب اللعب. لكن اللعب ليس حياة.



كان الشمسان يحتفلان ببعض التطور الإيجابي في العلاقة بـ"هيام". الصغير فرِح ويشعر أن توصيات الكبير هي التي ساهمت في هذا القرب.

نزلا محطة الرمل لأكل الأيس كريم وسندويتشات فول وفلافل من محل جاد البنوك في شارع السلطان حسين، ثم الذهاب إلى سينما وفشار.

وقفا أمام بائعي الكتب في الميدان يرميان عيونهما على الكتب المعروضة، ويلحسان الأيس كريم بلذة.

كان الكبير يفكر في الفخ اللولبي الذي وقع فيه. أي ثقب أسود سلمه إلى واحد من الممرات الدودية التي تصل بين عالمين. الآن هي كذكرى لآدم بعد سنين من السقوط أرضًا من جنة بدأ يشك في حقيقة وجودها. طعم الأيس كريم. النكهات نفسها على اللسان نفسه في الجسم نفسه، لكن أما

زالت الروح نفسها؟ كان "شمس" الكبير في كامل شروده عندما فاجأه الصغير بالتوقف ثم جره للدخول إلى السنترال العمومي وسمعه يردد رقم تليفونهما في القاهرة.

انغرست شوكة بعنف في رقبة الكبير. الصغير يحميه الجهل. يحميه تفتح الورود. الكبير يقتله العلم وذبول الحياة.

هل سيستمع لأصوات أحبائه الراحلين؟

حاول الابتعاد قدر الإمكان لكنَّ قدميه لم تسعفاه، أتى صوت "قمر" عبر السماعة ضاحكًا رائعًا مفعمًا بالحياة.

- آلللوووه.

شعر بالدوار. كان عنده عدة تسجيلات جميلة لها وهي تتكلم وتغني، لم يكن رغم اشتياقه وحنينه يجرؤ على الاستماع إليها. مرة أو مرتين ثم قرر ألا يستمع أبدًا لأي تسجيلات من عائلته. كان عنده أيضًا تسجيل بصوت جدته لكنه لم يستمع له منذ أن رحلت.

وجد "شمس" الصغير يغلظ صوته مداعبًا:

- أريد أن أتكلم مع أجمل بنت في الكون من فضلك.

- "ههه. شاااانس ، شموسي. حبيبي. أوحشتني".

- عرفتني؟ كنت أظن أني سأخضك.

- "خضتني للحظة لكني عرفت صوتك فورًا. مع من فضلك"!

- "بابا وماما عندك"؟

- "لا. بابا في العيادة كما تعرف. وماما عند طنط وداد".

نظر إليه كأنه يتحسر أن "شمس" الكبير لن يُتاح له أن يستمع إليهما.

- طيب. أنت ما أخبارك؟

رغم أن الكبير يريد ألا تفوته أي نأمة من حديث "قمر"، أو يهرب منه أي حرف؛ لكنه بدأ يشعر بألم يفوق احتماله. وبدأ قلبه يتقلص وصدره يتحول إلى خزانة من الصلب تضيق وتضيق.

عدة جمل لم يعها الكبير جيدًا. ويبدو أن وجهه بدأ في الشحوب لأن "شمس" الصغير وباندفاع قدَّم السمَّاعة إلى "شمس" الكبير كي يتكلم. لكن الآخر رفض بهلع وابتعد. فأكمل الصغير حديثه. راقبه الكبير من بعيد. وجهه مشرق بالبهجة والطمأنينة وانهمك في الهزل مستمتعًا بالكلام مع أخته. أعطى "شمس" الكبير ظهره للصغير كي لا يُظهر أيًّا من المشاعر التي توجعه وقد تربك الصغير. الألم والحسرة والاشتياق. رغمًا عنه لم يستطع الابتعاد كثيرًا، بل استند بظهره على عمود بالسنترال وأذنه مائلة تجاه السمَّاعة وروحه فيها.

هل يستطيع أن يُجازف ويسافر معه إلى القاهرة ويراقبهم من بعيد؟ أو ربم يتكلم معهم ويلامسهم. لا إنه عذاب ما بعده عذاب. لن أذهب أبدًا، لن

أثبت هذا الكون الذي وقعت فيه رغم المنح التي وهبت إليَّ. لكن ماذا عن الفرصة التي تتيح له أن يحذِّر أباه ويحذِّر قمر من المصير، هل كل التحليلات والمعامل والأدوية قادرة أن تحميهما أم أنه سيجعل حياتهما جحيمًا لا حد له في انتظار الوقوع في المرض. هل لو كانا قد رحلا في حادثة كنت سأستطيع أن أجنبهما ذلك. تذكر فيلمًا قديمًا شاهده. حاول بطله بكل جهده تغيير حادثة مرت به في الماضي تسببت في مقتل أبيه وأمه. فكانت النتيجة أن كل ما فعله في هذه المحاولة هي التي أدت إلى وقوع الحادثة وموتهما. يظن البعض أن المرض غير الموت المفاجئ لكنه كطبيب يعرف أن المرض أمكر من هذا. عدو غدار. بدأت ضربات قلبه تتسارع وتهزه. أي اختيار يختار؟ حاول استعادة التحكم في نفسه. هل فقط ما يبحث عنه هو محاولة استعادة حب فُقِد؟ فرد جسده واستدار مرة أخرى وواجه وجه "شمس" المشرق بالحبور. ماذا لو انهار هذا الجسر الهش الذي يربط بين العالمين. هذا الجسر الذي يكاد يكون في هشاشته مثل الهشاشة التي تمسك الروح بالجسد. هل سيستطيع أن يحتمل الخسارة مرة أخرى بل والأَمَرّ، هل يستطيع أن يحتمل الوجود مرة ثانية. ربما كان الحل الأسلم للكل هو سقوطه الآن ميتًا وينتهي كل شيء. ينتهي كل العذاب.

ضاق صدره مرة أخرى، وقلبه نفر كأنه سيخترق صدره لينفجر فيه. رفع يده ليضغط على مكان الألم ولعجبه وجد "شمس" الصغير يرفع يده هو الآخر ويضغط متألمًا على صدره دون أن ينتبه له، ثم أنهى المكالمة بعد كلمات قليلة. فأنزل الكبير يده سريعًا عن صدره ، لكن الصغير بادره:

- رغم سعادتي اليوم، لكني أشعر بألم حاد في صدري. لم تكن "هيام" أقرب لي من هذا اليوم. آه.

ثم كأنه يعترف دون إرادته.

- أنا أحب.

قبل أن يكمل كلامه ظن الكبير أنه سيقول "هيام".. لكنه أكمل....

- أنا أحب "قمر".

فقال الكبير وقد أحاطه بذراعيه يحتضنه:

- وأنا أيضًا أحب "قمر" جدًّا.

كانت الجملة كأنها بلسم. مجرد ذكر اسمها رغم الألم، أطاحت بفراغ الصدر وخوائه وأعادت لهما الحياة من جديد.

ردد مرة أخرى وهو يشدد حضنه للصغير الذي ترك نفسه له تمامًا:

- نحن نحب "قمر" جدًّا يا "شمس".

خارج السنترال، كانت السماء تودِّع آخر شعاع من الشمس. بدأ الليل يزحف بهدوء وتؤدة وربما بخبث.

سأله الصغير:

- هل أعجبك الأيس كريم؟

هز رأسًا بالموافقة دون أن يتكلم.

في هذه اللحظة، فكَّر في "سها". هي أيضًا تحب الأيس كريم. تحب الزبادي بالتوت. ليس منتشرًا للأسف. ستأتي مساءً من القاهرة.

لمح عن بعد "هيام" وصديقتها ذات لقب الحارس كل واحدة تمسك بالبالطو الأبيض ومتجهتان إلى محطة الرمل. اندفع ليشير لـ"شمس" إليهما. لكنه كتم الأمر. خاف أن يرى رد فعل "شمس" على مرآها. خاف من نفسه. وأيضًا خاف للحظة عليها منهما. أي لحظة هذه؟

همس هاتف في أذنه: "ماذا لو أتاح لك القدر هذه اللحظة يا سيدي؟ تحوط كل ما تريده بل تكون أنت ما تريد".

أنت في حضرة نفسك وفي حضرة من تحب؟ سمع قهقهة عالية. وخطرت على باله "سها".

نحن ندور في الفلك نفسه لكن في اتجاهين متعاكسين وهذا هو القانون مهما فعلت وقررت. تدور في الفلك في اتجاه عقارب الحب أم عكسه. كوارك يا أصغر ما في الكون... كوارك.

يذكرك برودك تجاه "سها" ببرودك تجاه الفتاة المسكينة "نور" التي كانت تحبك في الدفعة أيام الدراسة. عاملتها بسخف، بل ولعبت معها الدور القاسي نفسه الذي كانت "هيام" تلعبه معك معكوسًا. دائرة لا تنغلق أبدًا. التفت مرة أخرى للصغير ثم همس: "لا تعامل نور بقسوة".

بان الأسى على وجه الصغير كأنه يؤنَّب من والده على ذنب اقترفه دون قصد. احتضنه الكبير مرة أخرى مواسيًا. وظلا لفترة يسيران متلاصقين.

باحتضانه لـ"شمس" الصغير تغشاه رائحة البرفان المفضلة، ويفكِّر أشم فيه رائحة الماضي. اقترب أكثر، ليست رائحتي اليوم. اختلف العطر والجسد والروح.



في بعض الأحيان ينتاب "شمس" الصغير الارتباك والحيرة، رغم تعوده إلى حد ما على رؤية الكبير والحوار معه.

للتسهيل يقول له الكبير ما قاله الفيلسوف الروماني "سينيكا": "الشمس تنعكس صورتها في ملايين قطرات المطر على آلاف أوراق الشجر عن طريق سحابة تعكس الضوء. كل قطرة مياة تحتوي على شمس صغيرة".

فيرد عليه:

- نعم لكنها ليست الشمس الأصلية دون شك، شموس صغيرة تعيسة كاذبة بل وممسوخة ومشوهة.

وتساءل عمَّن منهما معكوس الآخر.

فيحاوره الكبير قائلًا:

- ألا ترى أنه من الممكن اعتبارها كلها، تلك الشموس الصغيرة المنعكسة، صورة واحدة لا نهائية متصلة بسيل من الوجود مع الأصل.

فغلظ الصغير متحديًا:

- إذًا من الممكن أن أتركك الآن لتبحث عن شموس أخرى مسكينة معكوسة في كون آخر تستعملها في تجربتك الـ...

صمت وقد كان يريد قول "السخيفة" لكنه شعر بالخجل. فأكمل:

- أنت تعرف أن نقط الماء قادرة على حرق ورقات الشجر لو كانت الشمس حامية لذا لا يسقي البستاني النباتات في الظهيرة أبدًا.

فكَّر الكبير:

- نعم ربما نحرق العالم كله في لحظة قيظ. هذه نهاية تليق بنا.

لكن الصغير أكمل متسائلًا:

- ومن يا ترى هي السحابة التي تساعد على هذا الانعكاس؟ أهي سها؟

فقال الآخر:

- أو هي "هيام".

11



- سلام يا "ساهر". سلِّم لي على زوجتك.

وضعت "سها" سماعة الهاتف. ساهر صديقها منذ الطفولة. كان جارها في بيت عمتها في مصر الجديدة وزميلها أيضًا في الفصل نفسه بالمدرسة. في أولى إعدادي عندما التحق ساهر بمدرستها، أدركت فورًا "سها" الفطنة الحادة الملاحظة، وبمراقبتها شبه الدائمة لقمر، إعجاب "ساهر" بـ"قمر". كانت "سها" تسكن في الدور الخامس في البيت المقابل لبيت "قمر" و"شمس"، أمَّا "ساهر" كان يسكن في الرابع في العمارة المجاورة لها. لم يعرف هو أن "سها" تراقبه، ولكن "سها" استمتعت بالمراقبة وفي المدرسة تقربت منه وصادقته دون أن تقول له شيئًا سوى أنهما جيران في الحي نفسه. وفي ثانية إعدادي استدرجته وراوغته بخبث الأطفال وذكرت اسم "قمر" أمامه. بالطبع كان يعرف أن الفتاة التي يحبها من بعيد لبعيد

ومعهما في المدرسة هي "قمر" الجارة. دكُن وجهه الأسمر بحمرة الخجل في محاولته البائسة في ستر داخله. باغتته: "أنت تحبها".

كانا يجلسان على العتبة الرخامية لمدخل مبنى صالة الطعام المهولة تظللهما شجرة تين بنغالي شاهقة.

"ساهر" الذي لم يعتد أن يتكلم عن "قمر" وكاد أن يخاصم "سها" عندما اقترحت عليه أن تتحدث عنه مع "قمر" نظر إلى "سها" بوجل، وقال بين أمل حارق لاذع وخوف جاثم: "تتحدثين معها عني؟ ما الذي ستقولينه؟". هممهمت سها ببعض الخبث وقالت: "أي إنك مثلًا تحبـــ...". وقبل أن تكمل الكلمة، انفعل "ساهر" وهب عن جوارها مزمجرًا: "إيَّاك. إيَّاك يا "سها". آخر يوم في صحبتنا".

ثم أكمل كاتمًا انفعاله: "هي في ثالثة ثانوي ونحن في ثانية إعدادي. ماذا ستقول؟".

أمسكته من يده وأجلسته برقة. صمتا لدقائق ثم ربتت على يده بأمومة: "آسفة. لم أقل لها سوى أنك صاحبي وزميلي.. وأيضًا جارنا. وأنك طيب. هه ما رأيك؟ وأنك صديقي الصدوق".

ابتسم وهز رأسه موافقًا.

كانت "سها" تتفهم مشاعره وتعرف معنى الحب من بعيد.

مرت السنون وكبرا معًا. هو كما هو صديق هادئ أسمر له عينان واسعتان وفم دقيق وجبهة عريضة يعلوها شعر شديد السواد كالتاج.

وكالعادة في هذا السن نضجت هي أسرع منه. وفي ثانية كلية صارحها بأنه يحبها، ولكن "سها" الأفطن تيقنت لحظتها أنه يحبها انعكاسًا لحبه لـ"قمر". وهي تعرف أنها تقلِّد "قمر" قدر استطاعتها ورغمًا عنها، حبًّا وإعجابًا وربما سخطًا أيضًا. إنه ينظر إليها كأنها تشبيه. ويريدها كاستعارة من الحقيقي. إشارة تدل على شيء. لم تحزن للأمر، بل تعالت على شعورها الملتبس بالزهو كونها تشبه "قمر"، وحيرتها بكونها لا تعرف لنفسها شخصية منفردة. كانت في صراع أن تكون "قمر" وألا تكونها، لم تكن تجد داخلها إنسانة تعجبها، أرجعت هذا لعدم وجود عائلة حقيقية مثل عائلة "قمر"، فمن أسباب إعجابها بـ"قمر" رسوخ عائلتها. أزاحت يده التي كانت تمسك بيدها وقالت ضاحكة: "ساهر! اكبر.. نحن إخوة".

ضايقه الرفض، لكن لم يؤلمه لأنه كان يدرك لاشعوريًّا فهمًا لما يحدث. أما هي فضايقها شيئان، أولهما كان بساطة كلمتها... (اكبر). لأنها حملتها دون قصد بعنف. كانت تريد أن تتكلم بشكل أكثر قربًا معتمدة على صداقتهما. ولأنها قلدت ضحكة "قمر" التي تتقنها تمامًا دون وعي. ثانيهما تقبله السريع لرفضها له. لم يلِّح ولم يكرر.

إذًا كانت تغيظه وترأف به في الوقت نفسه. تراجع فورًا.

المرة الوحيدة التي دخل فيها بيت "قمر" عندما كان في أولى ثانوي. كانت في البيت في القاهرة وحدها ثم دخلت حشرة فرس النبي أو أبو دقيق كبير داكن اللون، وكيف أنها ارتعبت وحاولت تنادي البوَّاب ولم تجده، ثم اتصلت بـ"سها" مستنجدة والتي أتت بعد ثوانٍ ومعها جار لها يوافقها في السن وهو الذي هش الحشرة خارجًا ثم استأذن منهما للرجوع للبيت،

حيث يكمل ما عليه من واجبات للمدرسة. لكنه قبل ترك البنتين معًا اندفع قائلًا: "تخافين من الفراشات وأنت منها؟". ثم استدار سريعًا بين اندهاش قمر وخبث "سها" الساذج وهي تلمِّح: "يبدو أنه معجب بك من زمان".

أصبح "ساهر" ضابطًا في الجيش على غرار أبطال "يوسف السباعي"، مستقيمًا حازمًا لا تنقصه حدة ولا جدية. تزوج في بيت أهله فظل جارًا لهما. زوجته طيبة مريحة تعرَّف عليها عن طريق معارف والدته. أحبها وأخلص لها. لم ينسَ قط صداقة "سها". كانت "سها" هي نافذته على العالم كما كان يسميها.

لما عادت "قمر" تعيش مع أبويها، رجع بلا تعمُّد لمراقبتها من نافذة بيته. ترتدي طرحة الصلاة وتصلي في مواقيت الصلاة ربما بسرعة أكبر ممَّا يصلي هو. وعرف من "سها" أن "قمر" تتم قراءة القرآن كل شهر. لكن تعجَّب كثيرًا عندما عرف من "سها" أن "قمر" قررت أن تصلي سرًا ألف ركعة زيادة عندما شُخِّص والدها بالسرطان، على أمل أن هذا فيه شفاء.

لكن عندما تُوفي الدكتور "أمين" قال ربما لم تكن "قمر" صادقة تمامًا في صلاتها.

اعترضت "سها" وقالت: "أنا أعرف قمر تمامًا. "قمر" صادقة في كل ما تفعل، حتى في طلاقها كانت صادقة في إحساسها. كانت ترتدي فستانها وتتزين بالصدق نفسه الذي تصلي به".

وللعجب صلَّى ساهر ألف ركعة، عندما عرف أن "قمر" قد أصابها المرض، رغم أن صلاتها لم تنقذ أباها، كما أن صلاته لم تنقذها.

ولما أتم ساهر الألف ركعة، عرف أنها صادقة، صادقة قدر صدقه هو وحبه لها. وآمن أن الوفاة قد حدثت لأنها وفت بما كان يجب أن تقوم به في هذا العالم. أسعدت كثيرين. تمت المهمة.

كان "ساهر" هو الوحيد الذي زار "قمر" في مثواها الأخير أكثر من مرة. لم يرضَ "شمس" أن تزور أمه المقابر رأفة بها. ولم يزرها هو قائلًا: "قمر ليست هناك".

بعد الوفاة، أدرك "ساهر" أن تعلُّقه بـ"قمر" تعلُّق غريب، ليس للحب فيه اليد العليا كما كان يظن، لكن به شيئًا من الانجذاب الصوفي غير المفهوم.

حكى لـ"سها" أن "قمر" تأتي له بعد تجربة عجيبة مر بها، واستمع فيها إلى كلام شيخ قابله في الصحراء ارتاحت إليه نفسه، فقال له أنت مرتبط بأرواح كثيرة، دع روحك صافية كي تتحاور معهم. صدقَّه "ساهر"، وبدأ بروح أمه التي شِبه وبَّخته بضحكة جميلة، ثم تلاها بروح "قمر" التي أسعده أنهما أصبحا أخيرًا صديقين، كأن فيه رابطة بينه وبينها لم تشعر بها هي أبدًا إلا بعد الرحيل. كان مقتنعًا جدًّا بهذا. لقد كان يشعر بأن روحها هي التي تحل له المشكلات التي يقابلها بشكل ما، تلهمه الحل في حلم أو رؤيا أو شرود. ولمَّا أوحت له أنها تتألم لألم "شمس" لفراقها.

قال لـ"سها" قبل أن يتركها:

- "شمس" أناني، لا يريد إلا أن يتغذى على أحزانه، التي تُحزن "قمر".

ثم استوقفها مرة أخرى وطلب منها أن تأتيه بإحدى لوحات "قمر" التي كانت ترسمها بعد استئذان السيدة "وادي". ولمَّا تسلم اللوحة علقها

عنده في المكتب. لوحة الراقصة. أحب هذه اللوحة كثيرًا منذ أن رآها أول مرة في أتيليه "قمر"، عندما اصطحبته "سها" إليه. فتاة ممشوقة تقفز في الفضاء وساعداها لأعلى. لا يرى وجهًا لكن خمَّن أنها "قمر" دون شك.

ولما خرجا من الأتيليه بعد أن أمضيا وقتًا رائعًا مع "قمر"، قالت له سها ببساطة صدمته متلاعبة بالكلمات ومعانيها: "طبعًا أنت الساهر تصادقني وتحب قمرًا. وتكاد لا تعرف شمسًا أيها الساهر".

شرد وقال: "أوتظنين أن الصدفة هي التي جمعت "قمر" و"سها" و"ساهر"، أم أنه قدر نـُختـَبر به؟".

أضافت وقد لاحظت أنه قد أوقع "شمس" من حسابه:

ـ و"شمس"؟

صمت ولم يعلق.

تضايقت "سها" لما تذكرت هذه الجملة بعد ارتباطها بـ"شمس". لأنها ترجعها لما قاله "شمس" لها يومًا عن العناية الإلهية التي يتشكك في وجودها. كأن فكرة "ساهر" تضع "شمس" في أتون جهنم وتحكم عليه بالعذاب الأبدي.

عندما تخطر "قمر" على بال "ساهر" في لحظات الصفو... يقول متكدرًا: "انفض السامر يا قمر. ما طال النوم عين الساهر بعدما غبت عنا يا قمر".

لما واجهت "سها" "شمس" بكلام "ساهر" عن حزن الموتى لحزن الأحياء عليهم. فكَّر: "كان طبيعيًّا جدًّا أن يكره كل الناس بعد غياب "قمر" حتى نفسه

وتصبح الشمس التي تشرق كل يوم خسـارة لـه". ويفكـر بمـرارة مـاذا لـو اختفـى كـل الجـنس البشري. انتهى.. تلاشى. هل من خسران؟ يا للوهم والغرور!

ثم قال لها:

- بماذا يواجه الإنسان الموت كل لحظة.. يواجه عدمًا أم حياة؟

فحكت "سها" لـ"شمس" عن صلاة الألف ركعة التي قامت بها "قمر"، لم يكن يعرف عنها شيئًا. ولم يكن ليقتنع أن ألف ألف ركعة كانت ستغير من الأمر شيئًا.

قال لها بألم يشبه اللامبالاة:

- لم أكن لأقوم بها.

ثم أضاف بعد صمت قصير:

- كانت تؤمن بالعناية الإلهية وكم تجادلنا في هذا.

- ربما ساعدتها على تخطي المحنة.

هز رأسه:

- ربما.



قبل أن يكمل الدكتوراه، عرف أن أباه قد أصيب بالسرطان. رجع إلى مصر في الحال.

داخله كان يريد أن يغيظ أباه، أن يؤلمه بأي شكل. كان هذا اليوم دائم التفكير فيه. ولما حدث قال لنفسه إذًا هكذا تكون النهاية التي أخافها منذ أمد طويل. عندما شُخِّص أبوه، انتابته نوبة غضب منه. كيف تجيء بنا إلى هذه الدنيا السخيفة ثم تتركنا؟ أي نظام هذا؟ لكن لأن الموت علينا حق، وأن القديم يسلم للجديد كان التقبل البطيء.

عندما أنبأ أطباء الأشعة "شمس" قبل أبيه بخبر انتشار السرطان في عدة أماكن، شحب تمامًا فبادره أحد الأطباء:

- اجلس. لقد هرب الدم منك. تماسك من أجل أبيك. أنت طبيب وتفهم هذا جيدًا.

كلاهما طبيبان، الأب والابن، ويعرفان ما معنى الانتشار. جلسا متجاورين في انتظار كتابة التقرير.

قال أبوه:

- النهاية.

ومن خوفه ردد بحدة حاول يسيطر عليها غير مدرك هل يقولها لأبيه كي يزيد آلامه أم أنه يسأل نفسه هذا السؤال:

- أين الإيمان إذًا؟

قال الأب هادئًا:

- الموت لا خوف منه. هو الحق. "لكن المرمطة في المرض أي هوان"!



أمَّا العجب أن والدته أصبحت فجأة بعد رحيل "قمر" تحب كل شكل يشبه الفراشات. فامتلأ البيت بفراشات كتوك الشعر، حلى ذهبية في سلاسل، زخارف مطرزة بخيوط حريرية ملونة على أطراف مخدات، سيقان ورود بلاستيكية تطرح فراشًا بنفسجي اللون بدلًا من زهور البنفسج. مفارش مطعمة بفراش ذهبي. ولهذا السبب أهداها "شمس" في عيد ميلادها بروشًا من الفضة وقعت عيناه عليه صدفة، مصنوعًا في تايلاند رقيقًا وبه فصوص من العقيق الأحمر والزبرجد الأزرق. كل هذه الفراشات انتقلت معها إلى غرفتها في بيت المسنين.



"قمر" تضع أحمر الشفاه بدقة فنية وترتدي ملابسها بتأنق ولكن ببساطة كأنها ستذهب إلى حفل، لكنها تستعد للخروج إلى الأتيليه الخاص بها. محل صغير تعرض فيه منتجات فنية ومشغولات يدوية، وفي عمقه غرفة تستعملها للرسم. بدأت "سها" تعمل مع قمر في تصميم الحلى وصناعتها. ولشغل نفسها أكثر التحقت قمر بدورة في الجزويت لصناعة الأفلام المستقلة. شجعت "قمر" "سها" للالتحاق بالدورة معها. ومنها أصبح الأتيليه كأنه صالون أدبي وفني ومزار وملتقى لمعظم مجموعة الجزويت، بل قد تم تصوير فيلمين من أفلام التخرج في محلها. كانت قد كتبت السيناريو لواحد واشتركت مثل الآخرين في آخر. وفيه تدور مناقشات وحوارات لا تنتهي.

قال لها "شمس" عندما حضر مرة هذا التجمع: "ولا مي زيادة يا قمر". ضحكت وقالت: "لا تنسَ العصفورية". قهقه.

بدأ الحوار عن إحدى المعروضات من سيوة، ومناطق الجمال بها. ثم فكرة الجمال في حد ذاتها، حتى وصل الحوار إلى فلسفة يابانية أصيلة

اسمها الوابي سـابي، نتيجـة لوجـود زميـل لهـم في دورة الجيزويـت نصـف مصري ونصـف ياباني. أصبح "هايكو" (كما تدلله قمر وحبًا في شعر الهايكو الياباني) صديقًا لـ"قمر" في لمح البصر رغم فرق السن فقد كان أصغر منها بتسع سنوات وتكلم "هايكو" عـن الفـرق بـين الحس الجمالي عند الإغريق وفكرة الوابي سابي اليابانية.

قال: "هي فلسفة ترمي لتقبل الأشياء كما هي وعـلى طبيعتهـا بعيوبهـا وبشـوائبها. هي أقرب لإيجاد الجمال في عدم الكمال أو الاكتفاء بعدم الاكتمال. وهي مسـتقاة مـن الفلسفة البوذية التي تنادي بالعلامات الثلاث للوجود وهي، واحد: التغير أو استمرارية تبدل الحال وعدم التماثل. اثنان: المعاناة.. الحدة.. الخشونة، ثم ثلاثة: الفراغ أو غيـاب الطابع الذاتي أو البساطة والتقشف، والتواضع. تربينا على الإقرار بـأن لكـل شيء أصـيل ثلاث حقائق بسيطة: لا شيء يدوم، لا شيء يكتمل، ولا شيء كامل أو مثالي.

فعلقت "قمر": "نعم. طالما كنا على الأرض فهذا أفضل تعريف للجمال. كل ما نقص يفتح المجال للنقاش والتناقض مع الآخرين فهو كدائرة مفتوحة. أمَّا الكامل المطلـق فمخفـي، ومـن ثم له وضع آخر لا تصل له سوى وحدك".

رد "شـمس" سـاخرًا وهـو يفكـر في حبـه لــ"هيـام": "عـلى العمـوم كـما يقولـون. "perfection is boring".

شردت "سها" في "شمس". وكادت تقول له: "من معرفتي البسيطة بـك يـا "شـمس" أظنك لا تؤمن تمامًا بهذه المقولة".

لكن "هايكو" قطع شرودها وأكمل:

- المفردتان وابي وسابي لا يُترجمان بسهولة. "وابي" وبالرجوع للطبيعة، أو العيش بمنأى عن الناس وقد ترمز للعزلة أيضًا. بينما "سابي" تعني السكون، الوهن والذبول.

كان "هايكو" بالسكينة المرتسمة على وجهه ونظرة البوذا المطلة من عينيه الآسيويين قد قال لـ"قمر" ذات يوم متحصنًا بالسنين التي تفصل بينهما: "يحوم حولك كثير من الخُطاب والمريدين ما شعورك وأنت تمثلين "السكسي لايدي" أو "الفام فاتال" لكثير من الرجال؟". أنكرت عليه قوله هذه الصفة لكنها أسعدتها وأعطتها بعض الثقة التي فقدتها بفقدها لزوجها وجنينها من قبل. وبميزة مغروسة فيها تعرف جيدًا كيف تجعل كل من حولها أصدقاء مقربين. تضع حدًا خاصًا بها بالضحك والمحبة لا يتعداه من يعرفها من الرجال. لم تكن تثق كثيرًا بصداقة البنات منذ أن أيقنت أن صديقتها المقربة منذ أيام الدراسة لا يهمها سوى نفسها ومصلحتها فقط. وبقيت "سها" هي الصديقة الوحيدة التى تأمن لها وتثق بها تمامًا. ترد "قمر" على "هايكو": "لو رآك أحد مع أمي سيظن أنك أنت ابنها وليس أنا. قصرها وشعرها الأسود وبياضها يجعلها شبهًا لأمك". فيومئ موافقًا وهو يقول: "ربما لهذا السبب أسعد كثيرًا برؤية طنط وادي". يقولها وتعرف أن سبب حزنه أن والده بعد قصة حب قوية بدأت في لندن وقت دراسته، تعرف على طالبة يابانية ووقعا في الغرام معًا. تحديا أسرتيهما وتقاليد بلديهما وديانتيهما. وتزوجا. عاشا سعداء مدة خمسة عشر عامًا ولما استقرا في مصر بدأ في التغير تجاه زوجته وقد هاجت عائلته على البوذية التي تزوجها وبدأت المشكلات التي أبعدتهما وكان الولدان هما الضحية لا يتقبلهما أسرة أبيه على الإطلاق. تفكر كيف تنتهي

قصة حب عاصفة هكذا ببرود واستحرام مؤجل؟ همس "هايكو" لـ"قمر": "وربما كان زواج أبي وأمي إتمامًا للوابي سابي. فلا شيء يدوم". ردت تواسيه: "تزوجا كي يهديا للعالم شاعرًا جميلًا مثلك يا هايكو".



تذكرت "سها" حوار الوابي سابي وفكرت في الفرق بين قمر وشمس. "شمس" المتمسك بالمطلق الجاري وراءه المنذهل به، و"قمر" التي تمثل الوسط المتغير الرقيق المتقبل. لكن لا "قمر" تقبلت نقص "نبيل" ولا "شمس" تقبل غياب "قمر" في المطلق. كلنا معقدون أكثر مما نعتقد. ربما عبد الناس الشمس لأنهم أدركوا أنها مصدر حياتهم الحقيقية لكن القمر أكثر تأثيرًا في روح البشر. لم يكتب البشر الشعر إلا لما رأوا القمر. ربما فلحوا وزرعوا ورعوا الماشية بل وبنوا معابد وأهرامات لكن لم يبدؤوا في كتابة الشعر إلا برؤية هذا العجيب الذي اسمه القمر، حتى ولو كان هذا الشعر وهذه الأناشيد عن الشمس ذاتها.

قالت في محاولة لمواساة "شمس":

- قرأت اليوم أن بعض قبائل أفريقيا - أظن الماساي - ما إن يُسجن واحد فيهم حتى يموت. لأنه يظن أن هذا الوضع نهائي. كأن الزمن يتوقف ويجمد المستقبل في هذه اللحظة فيموت. الأشياء تتغير يا "شمس".

- حزني لا يموت.

سخرت قائلة:

- كلنا سنموت، فما بال الحزن.

انقبض قلبه.

12



عندما طلب الكبير من الصغير أن يسمح له بزيارته في المبيت لم يعلق الصغير وانتابه قليل من الوجل. فمن النادر أن يزور أحد المبيت من أهل الطلاب. تفكر فيما سوف تسببه هذه الزيارة من توابع له. وكيف سيقدمه لزملائه.

صعدا لغرفته رغم التعليمات من قبل الإدراة لكن كليهما كان يعرف كيف يتحايل على هذا المنع. عندما دخل د. "شمس" غرفته القديمة انزاح ربع قرن من وجوده، لم يختفِ لكن ترجرج وتحرك جانبًا تاركًا فراغًا يملؤه الآن التمتع بالمرور على ما كان له في يوم من الأيام خاصة صورة الإمبراطورة فوزية الموضوعة بجوار فراشه.

دخل بعد قليل زميل الغرفة عليٌ الطالب في سنة (تالتة) بكلية الصيدلة. قدم الصغيرُ الكبيرَ بأنه عمه. تبادلا التحية وكان رد فعل د. "شمس" قويًا بإحكام قبضته بالسلام بل كاد أن يحتضن عليًا، ليس لأنه كان صديقًا مقربًا

منه لكن مرور الوقت جعله في هذه اللحظة قريبًا قربًا لا يصدق. تمالك نفسه وسأله عن أحواله، ثم سأله عن "شمس" كأنه يطمئن على سلوك ابن أخيه الذي يزوره، كما يفعل ولي الأمر. فيما بعد قال زميله له: "نعم. عمك يشبهك قليلًا". هز "شمس" الصغير رأسه وهو مندهش هل من الممكن ألا نشبه أنفسنا إلى هذه الدرجة حتى لا يعرفنا أقرب الناس إلينا.

بعد فترة قصيرة اعتذر عليٌّ وانسحب بحجة أن لديه مشوارًا وقتها، فقد شعر أن زميله يريد بعض الخصوصية مع عمه.

جلس د. "شمس" على سريره وأمسك بكراسة محاضرات كانت موضوعة على مكتبه. وقبل أن يفتحها استأذن الكبير في تصفحها. أومأ له "شمس" موافقًا فما الذي لا يعرفه هذا الشخص حتى يخفيه عنه، ربما كان هو من يخفي عني أشياء.

تصفح د. "شمس" الكشكول وتفاجأ بخطه الجميل باللغة الإنجليزية، حيث فقد جمال هذا الخط مع الزمن. كان لحرص المدرسة الفرنسية في الكتابة بخط جميل أثر كبير عليه. أما خطه باللغة العربية كان أقرب لخط الأطفال. حروف غير متساوية الحجم، مختلفة الميل مهما حاول ضبط إيقاعها لكن هيهات. كانت أمه تقول له: "عجيب أمرك، طالما خطك في الفرنسية جميل لماذا يبدو خطك بالعربية أقرب لنبش الكتاكيت".

رفع رأسه عن الكراسة وقال:

- خطك جميل.

ضحك "شمس" ورد:

- أشكرك. اتفضل.

هز د. "شمس" رأسه مبتسمًا وأكمل تصفح الكشكول الضخم. كان على الهوامش أشكال هندسية ووجوه مرسومة بعناية لبعض زملاء الدفعة. كان الشمسان يحبان الرسم بالقلم الجاف. خطوط معبرة تأتي بالروح والشكل. كانت هذه الوجوه الصغيرة المنثورة في كل كراريس "شمس" مصدر إعجاب كل من يطلع عليها من زملائه خاصة "عليًا". وطبعًا كان يوجد عدة رسومات لـ"هيام" بالخطوط الأساسية لوجهها. الشعر الأسود الفاحم بهيئتين مختلفتين كانت هيام تبدل بهما تصفيف شعرها، ذيل الحصان أو الانسياب مع لفة للداخل على كل جانب على كتفيها تمامًا، العينان الكبيرتان شبه المندشهتين اللتان يطل منهما تباعد رقيق، والأنف الرفيع المنتصب، والشفتان الرفيعتان اللتين يرسمان فمًا أقرب للسخرية.

- ورسمك أيضًا.

- طبعًا، طالما تنظر إلى هذا الوجه.

ببطء رفع رأسه مرة أخرى تجاه "شمس" الذي جلس على سرير عليٍّ أمامه. بقيا ينظران إلى بعضها لفترة دون كلام ثم قال د. "شمس":

- إياك أن تكتب في أي من كشاكيلك: "أريد أن أقتلها".

عبس الصغير مندهشًا وقال:

- لِمَ أكتب هذا؟ أنا أقتل نفسي قبل أن أفكر في هذا.

هز د. "شمس" رأسه عدة مرات كأنه يؤكد لنفسه ما قيل. ثم قال ضاحكًا:

- هل ما زلت تسير على أسوار البلكونات؟ أنا نسيت متى كانت آخر مرة.

قام "شمس" وفتح علبة ملبس وقدمها إلى د. "شمس" الذي تناول واحدة منها سعيدًا. يعشقان الملبس ويستمتعان بذوبانها تحت اللسان بحلاوتها الخام.

- أشكرك.

قال "شمس" وهو يجلس مرة أخرى:

- طالما أنت أمامي الآن أفهم من هذا أنني لم أسقط في أي من نزوات السير على أسوار البلكونات.

رفع د. "شمس" ذقنه، وقال:

- لكن لا تثق في أي شيء ولا تطمئن له، لا الماضي ولا المستقبل، وأكبر دليل ما نحن فيه الآن. أكنت تتصور أن هذا قابل للحدوث؟

نفى الصغير الأمر بهز رأسه سريعًا يمينًا ويسارًا وقد زم فمه فتكور.

مد د. "شمس" يده لتناول حبة ملبس أخرى فهب "شمس" قائلًا:

- إذًا أنت لم تستطع أن تمتصها للآخر مثلي، طحنتها سريعًا.

ضحك د. "شمس" وقال:

- يبدو أنك ستظل تحارب ولن تنجح.

لم يرد شمس. قلّب د. "شمس" وريقات الكشكول مرة أخرى فوجد بيت شعر:

"يا أخت هانية لو تدرين ما فعلت عيناك بي تولى قلبك التعب
غيرتني فأنا كالريح تحملني إن اتجهت إلى أحيائك السبل".

مكتوبًا بخط واضح معقول الحجم بين فقرات المحاضرة. حاول قدر جهده أن يكون الخط جميلًا متزنًا. بيت الشعر في ثلث الصفحة كأن اللغة العربية تزيِّن باقي الصحفة المكتوبة بالإنجليزية.

تنهَّد وصمت.



تردد في سمعه ما قاله "شمس" منذ قليل (لم أكتب هذا؟ أنا أقتل نفسي قبل أن أفكر في هذا) وفكر أتكون يا "شمس" لم تحب سوى ذاتك، لذا رحل عنك كل من أحببتهم؟ أكنت ترى فيهم كلهم انعكاس ذاتك فعاقبتك الأقدار بأن تقابل نفسك لتؤكد عليك خسارتك لأحبتك؟

- خطرت على بالي فكرة.

بادره الصغير مبتهجًا ومنيرًا.

قام د. "شمس" ووقف بجواره ووضع ساعده على كتفه ووقفا أمام النافذة يتأملان شجر البونسيانا والأكاسيا الممتد أمامها في سموحة، وقال:

- قل يا بطل، ما الفكرة التي خطرت لك؟ هل تقترح أن نسير نحن الاثنين على سور المبيت الآن. ههه.

تململ "شمس" من تحت ساعد د. "شمس" فأنزل ساعده. التفت إليه "شمس" وقال:

- واللـه فكرة! لكن لتكن مرة ثانية ليس اليوم. قل لي: ماذا لو بدأت في كتابة مذكراتك عسى أن نفهم ما يحدث لنا.

فيقترح د. "شمس" العكس ويبرر ذلك:

- لا نستطيع أن نكتب الماضي من المستقبل لأنه سيكون مجرد ذكريات قد نتخيل معظمها أو حتى نختلقه لكن لو كتبت أنت، الأصغر سنًا، حاضرك، سأجدها وأقرؤها أنا. ومنها سنفهم أنا وأنت الماضي والمستقبل.

وفعلًا تحمس الصغير لوقت قصير لكتابة يوميات في مفكرة جديدة لكنه فقد التركيز بعد فترة وجيزة وبدأ الملل يتسرب إليه فابتعدت أيام تدوين المذكرات حتى توقفت.



فكر د. "شمس" أن يقدم "شمس" الصغير للدفعة على أنه ابنه. قال لنفسه: "يشبهني دون شك". ضحك للمفارقة. ربما الأفضل أن يقول ابن أخيه، لكن بعضهم يعرف أن لا إخوة له غير شقيقته. ماذا لو قال إنه ابن "قمر"؟ لو تزوجت صغيرة جدًّا مثل أمها لكان من الممكن أن تكون أمًّا لهذا الشاب. لكن الفكرة جعلت قلبه يخفق بشدة، أن يصير هو "شمس" ابن أخته... كأن قدرًا ما يسخر منه.

كانت الدعوة التي وصلته للاحتفال بمرور عشرين عامًا على تخرج الدفعة هي العامل المسبب للتعرف على قدرته على التحكم في الأمور التي بدأت تتشابك حد الجنون؛ فأصبحت اللخبطة كشَلة خيط متداخلة.

ففي الحفلة قد تحضر "هيام" من القاهرة حيث تعمل في مستشفى حكومي شهير. احتمال رؤيتها بعد كل تلك السنوات العجاف تصيبه بالتوتر.

ماذا عن الحب؟ ماذا عن علاقته بـ"سها"؟ والأدهى والأنكى علاقته بشمس الشروق. ثم خطرت على باله فكرة عجيبة ماذا لو حضر الحفلة ومعه الاثنان؟

يقابل "هيام" وبيده زوجته "سها" (زوجته كلمة أدهشته). ثم ماذا عن "شمس"؟

تقريبًا لم يقابل أحدًا من دفعته منذ زمن طويل، حتى المؤتمرات التي يحضرها بعُدت عن مجال الطب البشري كثيرًا وارتبطت أكثر بالتطبيق التقني. سيقدِّم للدفعة زوجته وابنه. الوحيد الذي يعرف معظم تفاصيل حياته هو "شريف" في إنجلترا، وهو لن يستطيع أن يحضر الحفل لعدم ملائمة الميعاد مع عمله.

لكن قبل الحفل بيومين اتصل به "شريف" وقال له إنه سيحضر وحده دون زوجته. وقع "شمس" في حيص بيص لكن في نهاية الأمر سعد داخليًّا وقال إنها ستكون صدمة لـ"شريف" بكل المقاييس. لمَّحت له فقط بقصتي مع "سها". سيصاب بالسعار في أمر "شمس" الصغير. "شريف" لا يؤمن بأي انحراف ولو طفيف عن أرض الواقع ولا يؤمن إطلاقًا بأفكار مجنونة صوفية وينعت كل الصوفيين بالكذب ولا دخل له بنظريات العلم تحت الذرية. يتعامل مع مرضى مزمنين بالقولون ولا يرى أبعد من طرف أنفه. ابتسم "شمس" شماتة في شريف، فليواجه "شمس" الصغير ونرى. اختمرت الفكرة أكثر بوجود "شريف". سيتركه يصطدم. لكنه قد يخسر "شريف". "شريف" صديقه الوحيد لو عرف أن له زوجة وابن لم يقل له عنهما سيلتبس عليه الأمر. لكنه يشعر أنه سيخسره على كل حال في يوم من الأيام. ألا نفقد جميعًا أصدقاءنا في وقت ما؟ يعرف

"شمس" أنه أصبح أكثر عصبية وبلا مرح منذ أن رحلت قمر. ولو رحل الآن كل الناس لما اهتزت له شعرة. ألم تتحجر كل مشاعره؟ لمَ إذًا يبحث عن طريقة للرجوع لحب قديم حتى ولو استعاده في عالم آخر.

لكن الأكثر أهمية الآن، كيف سيقنع كل من "سها" و"شمس" بالحضور وتمثيل هذه التمثيلية. يعرف نفسه جيدًا، الصغير رغم خجله وكسله يحب الألعاب، والحدود غير ذات اليقين. كان وهو يافع يسير على أسوار البلكونات، عند "شريف" في الدور التاسع وفي بيت الطلبة على السطوح حتى هدده زميله في الغرفة بفضح أمره. وفي البيت في القاهرة في الدور الخامس، دون أن يعلم طبعًا أي من عائلته. لكنه فوجي بأن "سها" تعرف هذا الأمر وأنها لم تبُح به مطلقًا لـ"قمر"، ربما خوفًا عليها أو خوفًا عليه. كانت تُعجب بجنونه الذي فقده الآن. ربما تغلب فضوله برؤية حبيبته ومعبودته بعد عشرين عامًا من عمرها على خجله. يقولون إن الابنة للأم. وهو لم يرَ قطُّ والدة "هيام".

يعرف أن "شمس" سيوافق على حضور الحفل. خبطته فكرة أنه يعرف مشاعر الصغير قبل أن يعيها والتي تختبأ داخليًّا وتحركه دون أن يعرف. تكتشف نفسك حتى تصبح أقرب للعري التام. وهذا شيء يكرهه الشمسان تمامًا. أن تكون مكشوفًا عاريًا. كلاهما كاتم أسرارٍ ولا تمثال محمود مختار الموضوع في حديقة الشلالات أمام كلية الطب. كم توقف "شمس" أمام التمثال يتأمل الجالسة للأبد منكفئة على سرها الدفين الذي لا يعرفه أحد. من أنتِ؟ وما سُركِ يا ترى؟ أأنتِ الروح التي تطل علينا من عهود بائدة ساخرة.. متعالية.. بعيدة..

بدأ يحضِّر للحفل. فكر ما الذي سيرتديه وما الذي سيرتديه "شمس" الصغير. تذكر ملابسه التي كان يرتديها من عشرين سنة تقريبًا.

كانت البدلة التي اختارتها له والدته لحضور الامتحانات الشفوي في نهاية الدراسة رائعة. وكان أنيقًا فيها جدًّا لدرجة أن الدكتورة المساعدة بدأت بمغازلته. أناقة ورثها عن أمه. اختارت له الموديل واللون ونوع القماش، وطبعًا بالنسبة له لا يعلو على ذوقها.

لما قال "شمس" الكبير للصغير أن يرتدي البدلة الجديدة التي يحضِّرها لامتحانات الشفوي اندهش للحظة ثم وافقه ضاحكًا.

استعد وكأن ما سيحدث في حفلة اليوبيل سيغير الكثير. ولكن ربما تعتذر "هيام" عن حضور الحفل. أو ماذا لو كانت التي ستأتي ليست "هيام" بل هي أخرى ظهرت لها، كما ظهر له "شمس". لا. أستبعد الفكرة تمامًا.

رفع السمَّاعة وطلب رقم "سها" وأنبأها بالحفل بطريقة تبدو عابرة بلا اهتمام. لكنه في نهاية المكالمة لم يستطع ألا يقول لها، "أريدك أن تكوني أجمل امرأة في الحفل".

صمتت وسمع صوت تنفسها على الجانب الآخر. يعرف أنها تعرف قصة حياته كلها وتفاصيلها بقصة حبه القديمة. لكن هل تعرف أن عالمه اهتز وارتج لمجرد احتمال حضور حبه القديم. أراد أن يعدل المائل، فقال لها:

- أنت بالفعل أجمل امرأة في العالم. أنت جميلة يا "سها".

ضحكت بسعادة بدت على نبرة صوتها. تعرف أن هذا الإطراء آتٍ من طرف آخر من العالم وربما ليس تام الحقيقة لكنه حنون وطيب. ورجل بلا حنان لا يستحق التفكير به.



ليلة الحفل، ظهر "شريف" قبل أن يحضر "شمس" الصغير و"سها". أتى مباشرة من الطائرة إلى الحفل. "شمس" الكبير كان ينتظر خارج القاعة. كانت الحفلة في واحدة من القاعات الجديدة التي على الترعة التي تخترق الحديقة الدولية. سلَّم "شريف" على "شمس" قائلًا:

- جئت كي أغيظك.

ضحك "شمس" وقال له:

- أتظن أن هيام ستحضر الحفل؟

- ألا يوجد قائمة بها أسماء الحاضرين. عندنا في البلاد المتقدمة وفي أمريكا، عندما....

قاطعه "شمس" قائلًا:

- "اتنيل أنت وبلادك المتقدمة".

- "لا. اتنيل أنت بحبك العبيط".

ضحك الاثنان.

- هيَّا نسجل اسمينا بالداخل.

ثم.. دخلت "هيام" وكأن الأيـام لم تمـر، عشرون سـنة مُحيـت في لحظـة، وبجوارهـا صديقتها ذات اللقب وشبه المهنة المسماة الحارس، الطلة الجميلة نفسـها والترفـع عـن التفاهات المحيطة. خجل متحفظ. رآها "شـمس" في لحظتهـا وهـو يضـع إمضـاءه عـلى دفتر الحاضرين ويستلم بطاقة الحضور الخاصـة بـه بعـد أن تسـلم "شريـف" بطاقتـه. شعر بها على الفور ورآها في نهاية الممر الطويل المـؤدي إلى القاعـة. تتهـادى.. تتهـادى. تحوطها سنون من غياب ووحدة وجود. "شريف" الذي كان يناقش زميلًا عن الفرق بين الهجرة للولايات المتحدة والمملكة المتحدة، استدار ليـدخل "شـمس" في الحـديث لكنـه شاهد الاضطراب على محيـاه فنظـر حيـث يتجـه نظـره فـرأى "هيـام" والحـارس وقـد توقفتا للحظة للسلام والأحضان على زميلة لاقتهما. أرجع بصره إلى "شمس" ووجده بدأ في الارتعاش فاحتضنه وهمس في أذنه ضاحكًا بشدة: "يا نهار أسود! أنت ما زلت تحبها كل هذا الحب. كأن لم تمر كل هذه السنين. الرعشة نفسها التـي كانـت تنتابـك ونظـرة الذهول. يخرب بيتك.. عبيط صحيح". هذا الحضن القوي جعل "شريف" يلف "شمس" يمينًا ويسارًا فكانت "هيام" تبدو وتختفي للحظات بندولية سريعـة تجعلـه متذبـذبًا في تصديق وجودها الواقعي. كانت ترتدي بدلة سـوداء تزيـد مـن أنوثتهـا. وبلـوزة حريـر بيضاء بفيونكة صغيرة أمام الرقبة وتضع بروشا فراشة ذهبيـة عـلى الجانـب الأيسر مـن الياقة الطويلة. شعرها منهدل بعناية حتى يصل إلى كتفيها. والأهم أن فورمة شـعرها لم تتغير على الإطلاق.

ترك "شمس" نفسه في حضن "شريف" يهزه حتى قرب أن يدوخ فتملص منه وقال:

- نعم. لا أزال أحبها.

كانت "هيام" والحارس قد اقتربتا من منضدة التسجيل. ابتسمت لهما. قال "شمس" وقد أشرقت بعد غياب روحه:

- كيف حالك يا "هيام"؟

- الحمد لله.

أمَّا ما تعجب منه كثيرًا هو اندفاع "شريف" للسلام عليها بكل مودة حتى إنه قال لها بصوت عالٍ:

- جميلة أنت يا "هيام". ما زلت كما أنت.

هزت له رأسها بخجل وابتسمت وهي ترنو بسرعة لـ"شمس" كأن "شمس" هو الذي يجاملها. لم يكن ليمد يده للسلام لولا أنها مدت يدها برقة إليه. كان يريد أن يبقي يدها في يده إلى آخر العمر، لكنه تركها تنسحب سريعًا. سخر من نفسه ومن مشاعره. ها هي اليد تنسحب منه وتسحب جزءًا من روحه معها. أأبله أنت يا "شمس" أم أن الحب هو الأبله؟

هذا الكائن الجميل ليس لي، ولم يكن نهائيًّا لي. هذه الجنة أنا أبعد منها عن إبليس ولو تاب. هذا الإشراق لعالم آخر، لمجرة أخرى. هذه العين اللوزة بندقية اللون، كأنها لم تره ولا تراه ولن تراه. سواء منحت له الأقدار عالمًا جديدًا أم لم تمنح. كل العوالم مغلقة عنه. هذا كله وهم.

في تلك اللحظة تأكد أنه لم يـرَ "شـمس" الصـغير. وأن عقلـه قـد اخترعـه لـه، وخلقـه ليكيده ويجعله يحيد عن طريق الصواب، وأنه قد أُصيب بلوثة أكيدة وفي حاجـة سريعـة لعلاج ناجح، أو الأفضل قاتل، كي يشفيه من هذا الشقاء. أحنـت هيـام رأسـها عـلى ورقـة التسجيل لتوقع اسمها بعد صديقتها الحارس.

سحب "شمس" شريف مـن يـده وقـد أراد أن يبـوح لـه بتوهماتـه، لكـن لمـح نظـرة الإعجاب نفسها التي التصقت بعين صديقه وهو لا يزال ينظر إلى "هيام"، فانتابـه غضـب مبهم، من "شريف"، ومن العالم. تمالك نفسه ثم قال له هامسًا:

- منذ متى إعجابك الشديد بجمالها؟ كم أسمعتني فيها.. من سخرية.. تمثال شمع.. ألا تتذكر؟

رفع "شريف" حاجبيه وهز رأسه قائلًا:

- للحق جمالها لا يعلو عليه، كأن الزمن زادها بهاءً.

- "طيب. اخرس واحترم نفسك. كأنك كنت تعاكسها وليس تجاملها".

- "خلاص"!

كان "شمس" مرتبكًا، ود لو كان هو من قال لها هذا الكلام. ولكن هل كان سيعرف، هل كان سيحتوي من القوة ما يدفعه لقول أي شيء كان. فكر أن شريف كثيرًا مـا هـزء من هيام ونمط جمالها، كان يراها جمالًا بنمط قديم. ترى كيف يراها الآن بل ترى هل ما زال يرى أميرة موناكو جميلة في هذه السن؟

جلسا في المكان المخصص لهما وتابعا بعينيهما السلامات والتحيات والقبلات المتناثرة بين هيام وباقي الزملاء حتى وصلتا إلى منضدتهما. لاحظ "شمس" الكعب العالي الذي تنتعله "هيام". كل خطوة منه تنغرس في قلبه كأنها تمشي على حشاشه.

كثير من الزملاء أتوا بالأزواج وبعضهم أحضر الأبناء أيضًا. ما زال متأكدًا أنه قد توهم وجود "شمس" الآخر.

مال "شريف" على "شمس" وقال له:

- أنا وأنت أحرار اليوم.

فكاده "شمس":

- ليت "جيهان" كانت هنا اليوم لتشاهد بعينيها تغزلك بـ"هيام" وزوغان عينيك الفارغة.

- "يا شيخ اتنيل".

- اسمع. "سها" ستأتي بعد قليل.

اندهش:

- حقًّا؟

- زوجتي.

- إذًا أنت تزوجت فعلًا كما قلت لنا في لندن. لا أعرف لمَ لم أصدقك وقتها. زوجتك.. زوجتك أمام "هيام".

- لا. أمام الـلـه ونفسي والعالم.

- طيِّب.

صمت "شمس" قليلًا ثم أضاف:

- ومعاها "شمس".

ابتسم "شريف" ساخرًا:

- ستجيء مرة أخرى معها.

هز "شمس" رأسه:

- نعم.

رنا إلى "هيام" من بعيد. كانت تضع يـدها البضـة الجميلـة عـلى شـنطتها الصـغيرة، ملقياها بإهمال.

التفتت إليه بهدوء وتلاقت الأعين.

سرى تيار بارد بينهما شعر بزمهريره وتمنـى أن تقـع السـماء، أن ينشـق السـقف أو يقع عليه. في لحظتها انشق العالم فعلًا عن ظهور "سها" و"شمس" معًا، تأكيـدًا لجنونـه المطبق، على وقوعه بين عالمين يتمسان بسخرية عالية، وإن امتزجا لبرهة.

دخلـت "سـها" مصـطحبة معهـا "شـمس" الصـغير. أول مـن لمحهـما كـان "شريف" الذي ذُهل للشبه الكبير بين صـديقه وهـذا الوافـد مـع "سـها". قـام "شمس" لملاقـتهما. كـان الارتبـاك واضـحًا عـلى "شـمس" الصـغير، وبـدا كمـن سـيدخل في عـش للـدبابير، يلتفـت شـمالًا ويمينـًا كأنـه تحـت مجهـر هائـل

الحجم مهول. تمشي سها عارفة باحتمال رؤية "هيام" ذات قصة الحب الشهيرة. لم تكن تشعر بالغيرة لكن بتيار من الغضب الموجَّه لـ"شمس"، ليس لحبه لـ"هيام"، ولكن لحبها هي له. تيَّار صافٍ على السطح لكن في أعماقه دوامات من الطين والطمي المتداخلة النافرة المتنافرة. طبعًا هي تعمدت أن تبدو أكثر أناقة. لم تكن تعرف أحدًا من الدفعة لكن خمنت أنها لن ترى أناقة في مجموعة هرمة من الأطباء والطبيبات. وكانت مصيبة في اعتقادها إلى حد كبير؛ فلقد بدا الجمع لها وكأنه مجموعة من الناس المرهقين، أكثرهم متشح بالبدانة والبلادة. لكن وككل مجتمع تبرز فيه شخصيات ذات لمع وبريق جذاب. وفي نقرة عين كما الديوك الشركسية عرفت أن التي تجلس هناك في المنضدة البعيدة هي هيام.

كانت "سها" ترتدي فستانًا بسيطًا يناسبها، تعمدت فيه أن ترجع أقرب ما يكون لأسلوب وذوق قمر في الملبس والطريقة. "شمس" الصغير لم يكن ليلاحظ الشبه بينها وبين أخته الصغيرة التي لم تكن قد أينعت وأصبحت امرأة كاملة النضج، بالنسبة له "قمر" لا تزال صبية جميلة ذات ضحكة تساوي سعادة العالم كله. أمَّا بالنسبة لـ"شمس" الكبير فكان الشبه واضحًا وفي ذهنه دائمًا. وقف "شريف" ليسلم على سها. وقال لـ"شمس" وهو يسلم على "شمس" الصغير:

- ما أشبهه بك. كأنه ابنك.

هز "شمس" رأسه وقال:

- نعم هو ابني.

- لا تهرج.

فمال "شمس" عليه وهمس:

- لا تحرج الولد. هو ابني وتعامل معه على هذا الأساس. تزوجت عرفيًّا وطلقت بعد سفرك مباشرة واختفت أمه به ثم عرفت بالصدفة أن لي ابنًا وقد أسمته أمه "شمس" أيضًا؛ فأرجوك لا تفتح هذه السيرة مرة أخرى. وتعامل مع الأمر كأنك تعرف منذ زمن.

جلس "شريف" مندهشًا. فكَّر "شمس" الكبير لماذا لم أقل هذه القصة الساذجة لـ"سها" أيضًا. كان الوضع سيصبح أكثر سهولة. ابن له حقيقي من زواج سابق. كيف كانت ستتعامل معه؟ ألم يكن هذا أكثر عقلانية؟

أراد "شمس" أن يغيِّر الموضوع مع "شريف" لأنه شعر بشروده وحيرته فسأله:

- ماذا تقرأ هذه الأيام يا "شريف"؟

- لا شيء على الإطلاق. لا وقت لديَّ. الله يخرب بيت "مارجريت تاتشر"، النظام الذي فرضته يخلخل المنظومة الطبية. ولا يعجبني توني بلير.. مجرد دلدول.

تململ "شمس" لا يريد أن يخوض في آراء سياسية.

- أي إنك لا تقرأ على الإطلاق. هل تتذكر حبك العجيب لـ"هيمنجواي"؟

هز "شريف" رأسه قائلًا:

- وما زلت مغرمًا به. هل تتذكر أيام الكلية كنت أنت مغرمًا بـ"دي إتش لورانس".

- لم يكن يعجبني أسلوب "هيمنجواي" الصحفي.

- البساطة لا مثيل لها.

- أنا معك. لكن شتَّان بين أسلوبه وأسلوب "لورانس". كنت لا أجد الطلاوة وعمق وصفه للمشاعر المستترة.

- أنت تعجبك المشاعر العنيفة المتقدة. ألا يعجبك أن "هيمنجواي" قد شارك في الحرب الأهلية الإسبانية بشجاعة، كما كان قناصًا عظيمًا. عافر الحياة وعافرته. مقاتل وصيَّاد. ألا يستطيع أن يكتب عن المشاعر البشرية بصدق وعمق.

ثم قهقه "شريف" مكملًا:

- أتتذكر أنك جئت لي تعتذر عن رأيك هذا؟

نظر إليه "شمس" غير متذكر، فغمز بعينه "شريف" وقال:

- "هارولد روبينز".

أطلق "شمس" ضحكة صافية متذكرًا ما ينوِّه عنه صديقه. في السنة الأولى لكلية الطب تعرف على زميلة لهما وكانت فتاة قوية الشخصية معتزة بنفسها، أُعجب "شمس" بشخصيتها. وصادف أن تكلم معها عن القراءة فقالت إنها تعشقها وخصوصًا الروايات. فقال لها "شمس" إنه يقرأ الآن "نساء عاشقات" لـ دي إتش لورانس". فبدا عدم معرفتها به

مما تعجب له "شمس". فمن لا يعرف "لورانس" وخاصة إن كان محبًا لقراءة الروايات. فقال لها إنه سيسلفها الرواية ما إن ينتهي منها كي تقرأها. فقالت: "أنت تعرف طبعًا هارولد روبينز". فقال لها: "لا لم أسمع عنه من قبل"، فقابلته هي بالنظرة المستنكرة نفسها، وقالت: "كيف لا تعرفه؟". فخجل من جهله وتعجب فهو يقرأ كثيرًا في الأدب وإن لم يكن قد قرأ لكاتب ما؛ فعلى الأقل يعرفه أو تعرفه قمر أخته وتحدثه عنه. أكملت قائلة: "قربت أنتهي من الرواية التي أقرؤها. اسمها كاربت باجرز". فترجم الاسم قائلًا: "متسولو السجاد!". ضحكت وقالت: "لا هذا مصطلح أمريكي". فانتابته موجة خجل أخرى. "سنتبادل ما إن ينتهي كل منَّا من قراءة روايته". ولما بدأ في قراءتها، انتهى منها سريعًا جدًّا. فهي مسلية للحق لكن ما معنى الأدب إذًا؟ كان انتهى من قراءة كثيرٍ من أدب روسيا القيصرية منبهرًا به ولم يكن يعرف روايات ما يسمى بـ"الأكثر مبيعًا". ولما أرجعت له زميلته "نساء عاشقات" قالت إنها لم تعجبها وإن أسلوبه صعب وغير ممتع والعلاقات معقدة. لاقى "شريف" بعدها فاعتذر له قائلًا: "أنا آسف، لم يكن يعجبني أسلوب "هيمنجواي"، تعال واقرأ هارولد روبينز ههههه". وحكى لـ"شريف" الحكاية فسخر منه "شريف" قائلًا: "تستاهل".

فكَّر "شمس": "نعم أنا أستحق كل ما يجري لي".

تنهَّد وعاد لحواره مع "شريف":

- نعم. لكن طريقة التعبير عنها. أتعرف أنني أقرأ الآن له "حكايات نك آدمز" لـ"هيمنجواي".

- قرأتها من زمن. أتذكر أنها شبه سيرة ذاتية.

- نعم هي بالفعل. تذكر يا شريف لما قلت لي إن "هيمنجواي" انتحر خوفًا من الشيخوخة فسألتك كم كان عمره لما انتحر قلت لي في سن الستين. قلتُ متعجبًا: أي شيخوخة فقد وصل لها بالفعل. ها نحن عبرنا الأربعين والعشرون سنة الماضية مضت كلمح البصر رغم ما حققناه في حياتنا وأظن أن لو كان لنا عشرون سنة أخرى فبالطبع نخاف من طيرانها. من كان يتصور أن نصل إلى الأربعين وهي كانت أبعد في ذهننا عن السراب، ويبدو أن العمر لحظة كما كتب السباعي. هه. ومن العجب وأنا أقرأ "نك آدمز" أنني أفكر كثيرًا في نفسي. فأبو "هيمنجواي" كان طبيبًا كما كان أبي، ولكن أبي لم يكن صيادًا ولم يكن يمتلك مسدسًا. أفكر أنني لو انتحرت فلن أنتحر مثله بالرصاص. هو يحب القنص والصيد لكن يوجد طرق أخرى أرق...

هز "شريف" رأسه كأنه يعترض على ما اتجه إليه الحديث. أكمل "شمس" هامسًا كي لا يسمعه كل من "سها" و"شمس" الصغير.

- هل تتذكر مسلسل Upstairs Downstairs؟

قال "شريف":

- أعرفه لكن لم أتابعه.

- كل ما أتذكره منه أن الابن لما أراد الانتحار، فعلها في غرفة بفندق كي لا يلطخ سجاجيد بيت العائلة بدمه. في بعض الأحيان أتصور أنني قد وصلت إلى سن الستين وأني غيرت رأيي وأتجه إلى محل السجلابي للأسلحة لشراء مسدس سهل الاستعمال. الحمد لله أنا لا أفكر في الانتحار.

أمسك "شريف" بيد "شمس" قائلًا:

- "فضنا سيرة من الانتحار يا شمس".

ثم التفت إلى شمس الصغير سائلًا:

- أتحب القراءة يا "شمس"؟

انشرح وجه الصغير قائلًا:

- انتهيت من قراءة كل أعـمال "دوستويفسـكي". رائـع. وأقـرأ الآن "أبنـاء وعشّـاق" لـ"دي أتش لورانس" في أوقات الفراغ. وأضع جواري "الحرافيش" كل حين أرجع لقـراءة جزء منها.

هز "شريف" رأسه ونظر يائسًا إلى الكبير كأنه يقول: الولد نسخة منك.

بدأ زميل لهم في الكلام فصمتوا جميعًا. تكلَّم عن إنجازات بعـض الـزملاء، مـن أصـبح في مجلس الشعب، ومن ترك الطب نهائيًّا وأسس شركة مقاولات، ومن أصـبح روائيًّـا شـبه معروف، ومن هاجر ويعمل أستاذًا في جامعـة كـذا أو كـذا في بلـدان الـدنيا كلهـا. حـاول "شريف" أن يتحدث مع "شمس" الصغير عله يفهم ما خفي عنـه لكـن "شـمس" الصـغير كان شاردًا ومتحفظًا في الحديث. لم يكذب لكن تملـص بخفـة مـن أسـئلة "شريـف"، كـما أوصاه "شمس" الكبير من قبل. لا ترد على أسئلة عنك أبدًا. تكلم عن نفسـك كـما تحـب. لكن لا ذكريات. ولا دفعة كم. نحن الآن في عالم مخلوط بين عالمينا، فلـنكن مـن الحكمـة بأن نستغل هذا.

أمسك زميل آخر بالميكروفون، مُرحبًا بالكل وتكلم عـن نفسـه ومـا قـد حققـه وفي نهاية الأمر قال:

- الكل تغير لكن فينا من لم يتغـير قـط. كلنـا كبرنـا لكـن "هيـام النـاظر" و"شـمس الدين" و"حورية سليمان" و"خالد علم" و"سليمان داوود"، "هاشم الصادق".... لا.

غرز "شريف" أصبعه في بطن "شمس" الكبير قائلًا:

- يا سلام! وهذا الكرش. والكذا كيلو المضافة إليك.

ضحك "شمس" وقال:

- اخرس. وماذا عن المليون كيلو المضافة إليك أنت.

فكَّر "شمس" الصغير أنه من الرائع أن يقال إنه لن يتغير بعد مرور هذه السنين ولكنـه لم يعرف نفسه بل لم يعرف أي واحد من دفعته، ولو من بعيد، وإن وجود شبه ما فكما لـو قال لك شخص هذا أبو فلان زميلنا تبحث لاشعوريًّا في الملامح المشـتركة وقـد تجـد وقـد لا تجد. حتى "شريف" ليس "شريف" صديقه، فقط "هيام" هي من ينطبق عليها هـذا. فعـلًا تغيُّر ضئيل جدًّا كما لو كان غيابها لفترة قصيرة. كما لو أن إجازة نصف العام مرت فازدادت شحوبًا أو إجازة صيف فازدانت بلمعة شمس الشواطئ. كأنه في فيلم ثلاثي الأبعـاد يرتـدي نظارة تجسِّم له واقعًا غير موجود. يراقب "هيام" بدقة أكثر فـيلاحظ لأول مـرة أنهـا تشـبه والدته رغم اختلافهما.

جالت في باله فكرة مضحكة فسأل الكبير:

- أنت تعرف درجاتي في الكلية. طبعًا. طمئني.

هز الكبير كتفيه بعدم اهتمام فوصل للصغير هذه اللامبالاة واكتشف أنه لم يخطر على بال أي منهما أن يعرف ما يفيده في المستقبل مثل أسئلة الامتحانات، ما الحصان الرابح في سباق كذا مثل الأفلام، رقم يانصيب الجائزة الكبرى، أي أسهم في البورصة ستعلو أو ستهبط، لسبب بسيط.. عدم اهتمامهما بهذه الأشياء.

فقرات الحفل. ثم البوفيه المفتوح. قام شمس وهو يقول لـ"سها":

- فلتبقي بمكانك. سأحضّر لك طبقًا، هيَّا معي يا "شمس" أنت و"شريف".

وفي طابور الأكل تلكأ "شمس" الكبير رغمًا عنه حتى أصبح قريبًا جدًّا من هيام. ووقف بجوارها ممسكًا بطبقين.

- كيف حالك يا "هيام"؟

التفتت إليه وكانت نبرة صوته كطنين قديم يوصل بين فؤادها وأذنها. ضايقها كالقدر الأسود الذي لا فكاك منه. لم تعرف هل هذا السواد كان لعدم ارتباطها به أم لكونه ما زال يحبها إلى الآن بهذه الدرجة السخيفة، الخادعة. رغم صوته الهادئ كان يتردد في مخيلتها أشكال من العنف، تعرف تمامًا أنها لم تتعرض له معه. عدا حادث السيارة الأساس في نهاية العلاقة.

جرحته النظرة التي واجهته. عيون تقول: (يااااه. أما زلت تحبني؟ حبك لي للآن في حد ذاته عنف بل هو أقرب للتحرش).

هو لم يستقبل غير الجزء الأول: (ياه! أنت لا تزال تحبني).

رغم أن عنفه باخ واستقر كحزن دفين لم ترَ ولم تـرِد أن تـرى غـير ذكريـات العنـف. التفتت إلى "سها" التي كانت تراقبهما عن بعد.

أكملت العيون: (أنت معك امرأة رائعة، دعني أرجوك. فك نفسك وفكني من غرام مجنون. وتعلُّق مرضي).

اعترضت عيونه: (حبي لك تعلق مرضي! يا للأسى)!

لم تعلِّق.

هي تفكِّر أن الرجل العاشق يتخلى عن جزء من رجولتـه. خلـق اللــه آدم مكـتملًا تامًا فخدعته وحدته فاستعطف الخالق فحـن عليـه الـرب الإلـه وخلـق لـه منـه جـزءًا يستكين إليه. الرجل الصياد في الحياة الغابة، وحيدًا ينازع الموت حتى لا يغلبـه في آخـر الأمر، لا يركن أبدًا إلى وجـود الجـزء الضـعيف فيـه. لكـن مـا إن يصـيب العشـق هـذا الكائن، يفرغه الحب من القوة ويجعله رخـوًا رغـم صـلابته. فيحـاول جاهـدًا الرجـوع لحالته الأولى من القوة والاكتمال فيرديه هذا في حالة من الهياج الـدائم نحـو الحـروب والمشاحنات بل وحتى إلى القتل كي يخلص نفسه من الجزء الذي بَرُء منه والذي يـذكره دائمًا بخدعة خلقه تامًا كاملًا. مذكرًا إيَّاه بنقصه المهين.

مسكين أنت يا "شمس".

لستُ مسكينًا. أنتن اللاتي تسعين دائمًا لقلـب الأمـور. مـاذا لـو نحـب ونعشـق ونـَقتل ونـُقتل حتى نفنى؟ وتبقين أنتن كما تتجه النظريات الحديثـة إلى أن الرجـل سـيختفي مـن على وجه الأرض لتظل الإناث، المخلوق التـالي للرجـل الـذي احتـال عليـه حتـى قضى عـلى جيناته واستعمر الأرض دونه.

تفكِّر في جنونه الذي ما زال يبدو في ومضات من بريق عينيه.

يرد صامتًا: "نعم. عالم يناسبني، عالم يظهر لي فيه أنا آخر، مجنون مثلي، خجول مثلي، طيب مثلي، شرس مثلي، ملعون بتشابك كمي. قد يمنح سلوانًا دائمًا أو عذابًا يترجرج بين أزل وأبد".

ردت عليه: "ليتني لم آت. أنا لست تعسة أنا امرأة سعيدة مرتاحة. تبًّا".

بدا التبرم فجأة على وجهها ثم انزاح سريعًا. ومالت على أذن الحارس تهمس لها بشيء.

نظر إلى "سها". هي التي حكت له عن خطاب "أدولفو" لـ"وادي". كأنها تقول له: اختارت "هيام" الحب العاقل ونبذتك. كما اختارت والدتك الحياة الرصينة الهادئة مع والده. أنا الحب الحقيقي يا "شمس".

لم يستطع أن يلوم أمه على اختيار أبيه. كيف يلوم "هيام" الآن؟

قال "شريف" وهو يودعه بعد انتهاء الحفلة:

- هاه؟ ماذا ستفعل؟

اندهش "شمس" وقال:

- فيمَ؟

أرجع "شريف" رأسه للخلف كأنه يستعجب السؤال.

- لماذا لا تخطط للإنجاب؟ قلت لي إنك مع "سها" منذ ثلاث سنوات. ما هي خططك. ثم من هذا الشمس الجديد؟ رغم التشابه المذهل لم أبتلع قصة زواجك القديم، أم هو حقيقي؟ أي صداقة بيننا إذًا؟

هز "شمس" رأسه ثم أمسك بيد "شريف" يودعه قائلًا:

- في المؤتمر الذي حضرته أخيراً عندكم في لندن قال لي زميل هندي وهو عالم عظيم في مجال الكوانتم. إن أردت أن تُضحك "بجوان" قل له عن خططك.

عبس "شريف" مستفهمًا:

- "بجوان"؟ من؟

- كما سألته تمامًا. فرد كأنه بين الاعتراض والضحك: "بجوان".... الإله.

ترك يد "شريف"، الذي لم يرد.



13



نظر إليهاباندهاش. كان "شمس" الصغير يجلس بجوار "سها" في سيارة د. "شمس" العتيقة. لثاني مرة بعد أن أقلَّته بها من قبل إلى حفل يوبيل التخرج.

لا يزال الإحساس بالتوتر مثل أول لقاء بينهما وحدهما موجودًا وإن كان متواريًا. تمر عليه في المبيت بمدينة الطلبة. يريحها أنها لا تصلُح أن تكون أمه. تأنقت بشكل أثارها. قبل أن تنزل من البيت وقفت أمام المرآة تفكِّر: "أتأنق لمن؟ لـ"شمس" أم لـ"شمس"؟ شمسين يا ربي!".

تفكر "سها" وهي تلتقط كلمات إعجاب من الشباب من شبابيك المدينة الجامعية. "كيف يرونني؟ هل يرونني فعلًا؟".

في هذا العالم الهجين لم يكن "شمس" الصغير يعرف "سـها" بعـد. أمَّـا هـي فتتـذكره عندما كانت تراه من البلكون لما يرجع إلى بيت أسرته في القـاهرة. كـان يكبرهـا بـعشر سنوات. ها هي تكبره بعشرٍ أخرى.

أعادت النظر إلى نفسها في مرآة السيارة كأي امرأة تتأكد من انضـباط تأنقهـا. هـذا التحول والتحور يربكها. بدأت تقلق من قدرٍ آت، بل بدأت تقلق عـلى حـب بـدا كأنـه يتلاشى.

تتـذكر أول مـرة اصـطحبتها قمـر في سـيارتها. صـارحتها: "أشـعر أني أطـير في السـماء". ضحكت "قمر" وقالت: "كلام كبير جدًّا يا سها". ثم احتضنتها.

في السيارة ظل "شمس" الصغير صامتًا لفترة حتى نكشته هي. وبعد عـدة جمـل غـير متسقة وكأنه وجد أخيرًا من يستطيع أن يبـوح لـه بأشـياء عـدة، سـيقع في حكايـة قصـة غرامه بـ"هيام" لها. ثم سيحكي عن "قمر" دون أن يعرف أنها كانت صديقتها. ولمـا ظلـت صامتة لكن مبتسمة تؤيده كل فترة بنظرة مرحبة من عينيها، سيأخذ رأيها فيما يقـرره لـه "شمس" الكبير لإنقاذ الموقف مع حب حياته "هيام". ولا يلاحـظ أنـه بـذلك يهـد حياتهـا هي. لو نجح "شمس" في الارتباط بـ"هيام"، أين هي منه إذًا؟

لم يصرِّح "شمس" الكبير بخطته لهـا. لم يكـن مـن الممكـن أن يقـول لهـا أنـا أصـلح أخطاء علاقتي بـ"هيام" كي أكسبها.. فتنمحين أنت.

تتهادى السيارة عـلى الكـورنيش. أخـذت "سـها" إجـازة مـن عملهـا منـذ اللحظة التـي عرفـت فيهـا بتـوتر د. "شـمس". لم يكـن عملهـا يهمهـا كثـيرًا،

ربما كانت تعمل فقط كي تبتعد عنه أطول فترة ممكنة لأنها تعرف أن القرب سيهد العلاقة.

ابتسمت لـ"شمس" الصغير وقالت:

- أنا أعرف كل تفاصيل علاقتك بـ"هيام".

انتبه وشعر بغصة في حلقه. يعرف أن "سها" هي رفيقة د. "شمس" وربما حكى لها كل شيء. لكنه للآن لا يستطيع أن يتصورها رفيقته هو في المستقبل. يفكر هل معنى هذا أن المستقبل كما حدثه د. "شمس". أي إنه خسر "هيام" إلى الأبد؟ لكن قلبه ينكر هذا ولا يتقبله. لن يحبها أحد كحبه لها. ولكن هل الحب كافٍ؟ لا! أين العدل إذًا؟ ثم تصور أي وحدة كئيبة وهوة لا قرار لها يسقط فيها. تباعد دون إرادته عن "سها" كأنها هي السبب فيما سوف يحدث. من يثق في أي شيء الآن. خبله "شمس" الكبير بما يحشو به عقله من نظريات. ثم برجفة يد مد أصابعه إليها ولمس رسغها. كانت حقيقة. أنت المستقبل أم أنت الوهم؟ ركنت السيارة أمام الطاحونة القديمة في حي المنتزه. ثم ترجلا من السيارة. كان الكورنيش كعادته في هذا الوقت من العام يبدو وكأنه مهجور. كل فترة تمر سيارة. وقفا أمام البحر.

جلسا صامتين لفترة على سور الكورنيش. يراقبان تلاحق الأمواج والأفق الساهي بعيدًا. للحظة خافت أن يزل لسانها فتقول له أي شيء عن المستقبل.

أحست أنها تريد أن تمسك يده. فأمام هذا المشهد المتغير للبحر أرادت أن تؤكد هي أيضًا وجوده. المشهد ثابت ومتغير في الوقت نفسه. مَن مِن الشمسين الثابت لها ومن الطياري؟ من يكون بثقل البحر ومن يكون بحركة أمواجه؟ أو ليست هذه الأمواج اللاهية ذهابًا وإيابًا جزءًا من اليم الكبير، أليس هذا البحر نفسه جزءًا من مياه الكوكب. لعجزها عن ربط أيٍّ منهما بالثبات ارتَدَّتْ فكرتها إلى نفسها. مع من ستكون أكثر ثباتًا في موقفهم العجيب؟ ماذا لو بقى الوضع هكذا بشمسين؟ لن تستطيع ولن تحتمل. ربما كان وضعًا أسوأ من طلاقها وترملها السابقين. أهو "شمس" الكبير أم الصغير؟ وهذه المشاعر التي بدأت تفور داخلها تجاه "شمس" المجاور لها. التي كانت تعرفه وتُعجب به من أكثر من عشرين عامًا متصلة. رأته شابًا ثم رجلًا ثم كهلًا. وقبل أن تفكر أن تفرد خنصرها كي تلمس به يده كان أصبعه يقرب ليلمسها. أخذت نفسًا لتريح جسدها المشدود عضلاته وتركته يلمسها، وفكرت ما القوة التي جعلته يقترب لها في وقت تفكيرها نفسه.

كان "شمس" الصغير في احتياج للضم. أن يؤخذ في حضن. هيام أبعد ما تكون. منذ أن تعرف على د. "شمس" وهو يشعر بأن كارثة ما ستحلق فوق رأسه. يراها في عين د. "شمس".

صممت "سها" أن يناديها باسمها مجردًا.. سها. فكَّر دون أن يتكلم: "رغم فرق السن!". قالت له:

- افهم يا بني، الألقاب تبعدنا. احترمني لكن من دون ألقاب. أشعر أنني عمـري مئـة عام لو قلت لي أي لقب. لا ينقص سوى أن تقول لي تيزا. هه.

وببساطتها وخجلًا من أن يحرجها نداها "سها".

أمام البحر، قلَّب الأمر في رأسه: "أناه العجوز تواجهه. حبيبته لا تأبه به. وامرأتـه في المستقبل التي لم يعرفها بعد يتوق أن يرتمي في حضنها".

التفت إليها وقال:

- أنا ألخبط في الكلمات. في بعض الأحيان أدمج كلمتين معًا فأقع في مشكلات.

هزت رأسها موافقة، طبعًا من يعرفه أكثر منها. أمسك يدها. وأكمل:

- "ساعات أقول كلمتين وأدمجهما معًا فتصبح كلمة جديدة مضحكة، وكثيرًا ما تكـون محرجة. للضيوف أقول وأنا أودعهم: شوّرت، بدلًا من شرفت ونورت".

ضحكت "سها" لأنها سمعت هذه القصة من قبـل. حاولـت أن تتـذكر متـى لخـبط أمامها "شمس" في الحديث أول مرة. منذ مدة طويلة من دون شك، عند بـدء التقـارب بينهما. في بلكونة مصر الجديدة. كان عيد ميلاد "قمر". وكان هذا بعـد ترملهـا السريـع لموت "عاصم" وقبل زواجها وطلاقها الأسرع من "عـلاء". كانـت لا تـزال ترتـدي السـواد رغم مرور عـام عـلى وفـاة "عاصـم" الـذي لم تتزوجـه سـوى لأيـام، أصرت "قمـر" عـلى

حضورها وهي طبعًا لم تكن تمانع فما تطلبه أوامر. وقف "شمس" أمامها ثـم قـال شـيئًا أضحكها: "البقية في حياته". ضحكت وقالت: "حياتـه خلصـت". رفـع حاجبيـه محرجًـا: "قصدي ربنا يرحمك". ضحكت وقالت: "آمين. يرحمنا كلنا". ضحك ورفع يده مستسلمًا ناظرًا إلى "قمر" كي تنقذه. ربتت "قمر" على يـدها ضـاحكة. يـااه يـا "قمـر". ضـحكتك حياة. ضحكتك الدنيا.

"قمر" تحب الحياة مثل أبيها، وتحب معرفة النـاس مثلـه وتحـب الحفـلات والغناء والرقص. ولما خُطبت لـ"نبيل" كانت سـعادتها أنهـا تسـتطيع أن تـرقص مع شخص آخر غـير أخيهـا. أن تغنـي كـاريوكي، وأن تضـحك مـلء كيانهـا. ولمـا تزوجت قررت أن تدعو كل شهر مجموعة من أصـدقائها وأصـدقاء زوجهـا بـل وأصدقاء أخيها إلى سهرة منزلية تـحضِّر لهـا جيـدًا وتسـعد كـل مـن يحضرهـا. رفضت أن تقدم خمورًا إكرامًا لأبيها ولقناعتها الشخصية رغم أن "نبيـل" يشرب في بعض الأحيان. ومرتين اقترحت عليهم إحياء فكرة الحفلات التنكرية مرة أول الشتاء ومرة أول الصيف. ولهذا كان عنـدها صـور مضـحكة وجميلـة كـما قـال المصور الذي حمض لها الأفلام: "ذكرتني بالأيام الجميلة الماضية". تُخـرج "سـها" الصور كل فـترة لتتفـرج عليهـا. تعلمـت "قمـر" قـراءة "التـارو" وتمرسـت فيـه معتمدة عـلى طاقـة داخليـة تفـتح لهـا أسرار الأوراق. قـرأت لهـا الطـالع مـرة وقالت: "يا سها أمامك ثلاثـة رجـال. واحـد يطـير والثـاني يهـرب والثالـث عـلى حافـة جـرف". ثـم أضـافت: "واحـد دمـك والتـاني دمـه والثالـث دمـي. وأنـت

لست مع الثلاثة. واحد اتجاه الريح منه إليك والثـاني عفـرة وغبـار والثالـث نسـيم عليـل لكن للأسف فيها عطر سموم. حياتك ربيع أسود يا سها".

هزت رأسها غير مستوعبة الكلام. كانت لم تزل في الثانوية العامة وتريد أن تـتخلص من بيت عمتها. فيما بعد توقفت "قمر" عن قراءة "التارو" عندما شـاهدت فيـه مـرض الوالد والوفاة المتوقعة. أقسمت ألا تفتح هذه الأوراق مرة أخرى.



- "هيييه! أين ذهبت؟"شورتينا" يا ست "سها". فيم تفكرين؟".

ضحكت سها ورجعت تتأمل البحر أمامهما:

- في "التارو". أستطيع قراءته.

- حقًّا؟ لا بدَّ أن تقرأي لي مكتوبي.

تفكر في سخرية الأقدار، هو من أتى بأول مجموعـة أوراق مـن إسـبانيا ثـم أهملهـا واهتمت بها "قمر" وتعلمتها سريعًا وبانت قدرتها عـلى قـراءة الأوراق وعلمتهـا قلـيلًا. يريد أن يعرف مستقبله من أوراق وهي رأتها عين اليقـين. ولكـن مـاذا عـن مسـتقبلها هي؟

- لستُ ماهرة جدًّا.

ضغط "شمس" على يدها.

- "إيه البحر أمامنا. كم هو جميل".

- هل قرأت رواية يوسف السباعي "فديتك يا ليلى"؟ الطاحونة التي خلفنـا ظهـرت في الفيلم.

- نعم. قرأتها. "قمر" أعطتها لي كي أقرأها.

تمسك نفسها عن قول الـلـه يرحمها.

تشع عيناه بالحب ويقول ضاحكًا:

- في عيد ميلاد "قمر" السابق. أحضرت لها هدية ساعة يـد. ولكنـي في الوقـت نفسـه كنـت اشتريت كتابًا قديمًا مجلدًا فخمًا من مكتبة تراثية اسمه "الفرق بين الملل والأهواء والنحـل" لابـن حزم. فخطر في بالي أن أشاكسها. غلفت الكتاب بـورق هـدايا جميـل. ودخلـت غرفتهـا وكانـت تذاكر مع صديقتها نيهال. فقلت لها: "كل سنة وأنت طيبة يا ماراميرو. هديتك". تقبلتها سـعيدة. ثم وضعتها على المائدة وفتحتها وأخرجـت الكتـاب. نعـم هـي تحـب القـراءة لكـن مثـل هـذا الكتاب!! نيهال نظرت لي غير مصدقة. هي لا تقـرأ عـلى الإطـلاق ليسـت مثـل "قمـر". التفتـت "قمر" إليَّ وقبلتني قائلة: "وأنت طيب. ميرسي يا شانس". تصوري. بان على وجهي الضحك فـورًا. ههه. وقبلتها ثانية ثم أخرجت الهدية الحقيقية من جيبي. ههه. لكِ أن تتصوري مقدار الضـحك الذي ضحكناه يومها.

ابتسمت "سها". تريد أن تقبله الآن لكن بمنتهى الأمومة. طفل يحكي عن مغامرة في المدرسة. هذه الابتسامة الساحرة وهذه النظرة هي خليط بين "قمر" و"شمس".

يعيد ضاحكًا منشرحًا بذكرها:

- آه يا "قمر".

تكاد تجتاح "سها" نوبة بكاء. "قمر" ليست موجودة؟ تغشاها من البحر موجة ساحرة تشكك في هذا القول: هي موجودة. ألا تشعرين بوجودها؟ أليست حية حقيقة بالنسبة للذي يجلس جوارك، ولك أيضًا. تأخذ نفسًا عميقًا كي تسحب الدموع من روحها.

قالت بقلب شجي:

- سلِّم لي على "قمر".

تتذكر "سها" الأحداث وتصمت. ما الذي ممكن أن تقوله لهذا اليافع الذي يجاورها. أي إحساس عجيب ينتابها. تشفق عليه من اليتم والوحدة كأنها أمه. عندما ارتبطت به منذ ثلاث سنوات بعد انزواء آخر فرد في العائلة لم تشعر بهذا الشعور رغم معرفتها بوحدته وعذابه. لكنها الآن تجرف مع رياح عاصفة عاتية تحرق قلبها قلقًا عليه. تركت يده من يدها ثم لفت ذراعها كله حوله واحتضنته. فخاصرها هو كرد فعل وتلاصقا أكثر. ساعتها بدأت المسألة تتحول وتتبدل وشعرت أنها تريد أن تضع رأسها على كتفه تحتمي فيه ممَّا تعرف أنه سيأتي، من السنوات المقبلة بقحلها، تحتمي من د. "شمس" النتيجة النهائية التي تزوجته. تحتمي بـ"شمس" الغرير الصغير ذي التسعة عشر عامًا الذي ما زال عالمه مشرقًا بأبيه وأمه وأخته. الذي يشع نورًا حقيقيًّا ليس مزيفًا مثل "شمس" الآخر

المطفأ المسرنم، من يعيش وهو ينتظر الرحيل، من حاولت أن تأجج ضياءه فلم تفلح. لكن ربما كان هذا الصغير هو المشعل للحياة مرة أخرى. فيصبح الأمر اشتعالًا ذاتيًّا. كأنه العنقاء كما قال لها مرة. العنقاء في آخر إحياء حقيقي لها ثم الهباء والاندثار الأخير.

شعر "شمس" الصغير بأنه قد تمادى في احتضانه لها. فمهما يكن هي امرأة... ثم لم يعرف كيف يضع المضاف إليه. امرأة مَن تلك التي يحتضنها؟ فبكلام د. "شمس" الذي لا يعرف كيف يناديه حتى الآن هي زوجته هو في المستقبل. أي عته؟

ولعوجة عموده الفقري لفترة طالت عن المعتاد، شعر ببداية الآلام التي تهاجمه في بعض الأحيان. اعتدل قليلًا فابتعد عنها. فرد ظهره وحاول التمطي لكن أتت اللحظة التي يخافها. ركلة قدم عنيفة أسفل ظهره فأطلق صرخة حاول كتمها لكن لم يستطع. صرخة أجفلتها لكنها تعرفها جيدًا عندما يتألم بها "شمس" الكبير. أول مرة ترى هذا اليافع يعاني منها. هو يعرف أنه ورث الظهر الضعيف من أبيه، فكم من مرة كان أبوه يدعوه هو و"قمر" فيستلقى على بطنه كي يدلكا له ظهره، فكانا يأخذان الأمر كلعبة وتجلس "قمر" الصغيرة على ظهره كما طلب الوالد ويأخذ "شمس" في الاتكاء والتدليك لعضلات الظهر والسلسلة الفقرية. ها هو يبدأ في المعاناة من ضعف ظهره. حاول أن يتجنب الجلوس لفترات طويلة في الوضع نفسه، أن يمارس بعض الرياضة التي لا يميل إليها سوى المشي. كان "شريف" صديقه يسخر أن جسده ممشوق رغم كرهه للرياضة: "خسارة فيك تناسق جسدك وقوته". فيقول له: "ظهري

انقصم من نقك وحسدك. حرام عليك". فيذكره "شريف" عندما ذهبا لشراء حذاء فقال لهم البائع: "هذه السمانة الرائعة وعلو قوس قدمك يدل على مهارتك في لعب كرة القدم". فأمَّن "شريف" ضاحكًا: "طبعًا هو في فريق الكلية لكرة القدم". وغمز لـ"شمس" فضحك. لم تلمس كرة القدم قط ويقول لك هذا. حظ! ولما يؤلمه ظهره فجأة ولا يستطيع المشي إلا ببطء وانحناء، يسخر "شريف" منه: "كأنك وصلت لسن المئة. ههه". فيضحك "شمس" رغم ألمه.



قال الصغير لـ"سها" معتذرًا:

- آسف. ظهري يؤلمني.

فابتسمت مطمئنة:

- أعرف. كم دلكته لـ"شمس" الكبير. لا تتحرك حتى يذهب الألم.

فقال:

- أبي مثلي، أو بالأصح أنا مثل أبي.

مرت ببطء على ظهره مدلكة بضغط. شعر رغم ألمه بلذة وببعض الدغدغة تسري في كيانه. فبدأ في الضحك فازداد ألمه فأطلق آهه بين الألم والسرور، فضحكت معه وأوقفت التدليك. حثته على القيام:

- سنرجع البيت. أدهن لك الكريم وأدلكك تدليكًا تحلف به طول عمرك.

خجل لثوانٍ لتصوُّر نفسه معها وهي تدلكه. ثم حاول القيام فتألَّم أكثر وتحمَّل قدر استطاعته، فاستند عليها حتى السيارة وساعدته في الدخول. في الطريق ظلا صامتين لكنها كانت تسترجع ذكريات تأتي كانهمار وابل مياه في يوم مطير.

قبل أن ترتبط "سها" بـ"شمس" وبعد رحيل "قمر" أعطت له سلحفاة كي يستعيد الاتصال مرة أخرى بالحياة. تقبَّلها ساخطًا لكنه لم يقل لها. قالت لم ترد أن تأتي له بنباتات أو قطة لاحتياجها للعناية الدائمة، أمَّا هذه السلحفاة المسكينة يكفيها بعض أوراق الخس أو الخيار كل فترة. أخذها معه في السيارة إلى الإسكندرية. نثر لها بعض قطع الخيار والخس على أطباق في البيت. وللحق لم تزعجه السلحفاة في شيء لكن بعد شهرين ونصف الشهر، أعطاها لابن الجيران الذي سمعه في المصعد مرة يطلب من أمه تربية حيوان ولم توافق. رن جرس الباب ثم استأذن من السيدة قبل أن يعطي ابنها السلحفاة وقال لها ما قالته له "سها" عن السلاحف. ولما تقبلتها الأم وفرح به الطفل شملته سعادة لا توصف كأنه تخلص من كارثة. لكن ما غص في حلقه عندما سأل الولد عن السلحفاة بعد فترة فقال له إن أمه قد ألصقت على ظهر السلحفاة فصوصًا ملونة فأصبح شكلها جميلًا جدًّا. اتصل شمس بـ"سها" وحكى لها ما حدث مع السلحفاة وضايقه أن المرأة قد زينت درعها؛ ففكرت على الطرف الآخر من الهاتف: "وماذا عن التي أعطتك السلحفاة!".



لما وصلا تحت البيت قال لها:

- لم لم تتكلمي طوال الطريق؟

قالت نصف كاذبة:

- أشفق عليك من الألم.

استند عليها حتى وصلا إلى الفراش فارتمى عليه. تجلس جواره بهدوء. يلفت نظر "شمس" دبلة تلبسها "سها" ذات نقوش. فقال لها:

- هل لي أن أقرؤها؟

خلعتها وأعطته إياها وهي تتنهد. بدأ في قراءة الكلمات بصعوبة.

- "إن غبتَ لم ألق إنسانًا يؤنسني".

تقول "سها" لـ"شمس" الصغير بنبرة حزينة:

- نصف البيت الثاني على دبلة "شمس". ألم ترها؟

هز رأسه نفيًّا. فأكملت:

- عندما قررنا أن نرتبط بعد غياب "قمر"، وطلاقي.

عبس "شمس" وكأنه يستوعب مسألة معقدة فتوقفت عن الكلام وقد ظنَّت أنه فوجئ بكونها مطلقة.

لكن صوته خرج مستفهمًا:

- غياب "قمر"؟

في لحظة حتى قبل أن يلتقط عقلها الأمر قالت:

- بعد زواجها من "نبيل" وسفرها إلى الإسكندرية وغيابها هناك.

ثم بلهفة كي تسيطر على نبرات صوتها الذي بدأ يرتعش:

- لا تقاطعني حتى لا أنسى من أين اشتريت هاتين الدبلتين.

هز رأسه وأكلمت سريعًا وقد رأته لم يتوقف أكثر من هذا على زلة لسانها القاتلة:

- رأيت هاتين الدبلتين في محل فضة في الزمالك، أعجباني جدًّا. فاشتريت الدبلتين. وفعلًا كان هذا شعوري تجاهه ولا يزال. فهو الوحيد الذي يؤنسني في هذه الحياة الموحشة. أنا مقطوعة من شجرة تقريبًا يا "شمس". وهو حبيبي ورجلي.

مط "شمس" الصغير شفته السفلى فتصورت هذه الحركة عدم تصديق.

- هو رجلي فعلًا يا "شمس". أحببته وأحببت كل من كان من طرفه.

ثم أطرقت وقد احمر وجهها خجلًا وغضبًا وهمست:

- حتى أنت يا "شمس".

تنهَّد ولم يرفع رأسه عن الدبلة وظل يديرها بين أصابعه. ثم رفع عينيه إليها:

- وما المكتوب على الدبلة الأخرى؟

شدت زاوية فمها اليسرى وقالت:

- "وإن حضرتَ فكل الناس قد حضروا".

- الـلـه الـلـه. لمن بيت الشعر؟

- لا أعرف.. يومها بعد أن لبسنا الدبلتين كدليل على الارتباط. لم يهتم كوني لا أنجب بل استحسن الأمر وكان هذا سبب طلاقي من زوجي الثاني. ولم يكن يهتم بكتابة ورقة عرفية كانت أو رسمية. هو ارتباط وكفى. وأنا لم يكن يهمني أي نوع من أنواع الأوراق، ولا أهل لي ليعترضوا. وعمتي لا تعرف شيئًا. لكنني غيرت رأيي فجأة.. خوفًا.. فرحًا.. لا أعرف وصممت على عقد القران عند المأذون. فوافق فأحسست بالعار كأني لا شيء. كأنه لا يهمه أن يرتبط بزوجة.. بعشيقة.. برفيقة. كأني أجبره على هذا رغم أنه هو الذي طلب مني الارتباط. صحيح كان صريحًا وقال إنه يريد شيئًا آخر. شيء لا دخل للجسد ولا حتى بالروح فيه. لم أفهمه ساعتها. وما إن وافق على الذهاب للمأذون وإذا بي أسبه

وأتركه وأخبط الباب خلفي لشعوري بالخزي والحزن. تركني يـومين ثـم اتصـل بي وقـال: "هل نذهب للمأذون؟". كنت قد رقت ولم يعد يهمني ما يشعر تجاهي. هو يحتاج إليَّ سواء عرف هذا أو لم يعرفه... وأنا... أحبه. وافقت، ويومها عقـدنا القـران بشـاهدين لا نعرفهما.

يعرف نفسه ويرتعب مما يراه ويرى قسوة بلا سبب، هبـاء مجـاني. وخـزه ضـميره. أمسك بالدبلة التي كانت لا تزال في كفه. وألبسها إياها. ثم قال بمرح كاذب:

- لا تزعلي. أتتزوجينني يا "سها"؟

ابتسمت. هز رأسه:

- لا تنسى فأنا هو وهو أنا. ما فات يُلحق ببساطة.

اقتربت منه وقبلته من خديه قبلة حنون ممتلئة بعرفان.

- أشكرك يا "شمس".

هز رأسه مرة أخرى:

- تقصدين في المستقبل أم تقصدينه هو.

قامت وقالت:

- دع عنا كل هذا. ألم تجع؟ أنا جعت جدًّا. هيَّا. أما زلت موجوعًا؟

- سأتحسن بعد قليل. أنا أعرف. اذهبي أنت لتأكلي.

- كلا. أطمئن عليك أولًا. سأذهب لآتي لك بأنبوبة الكريم. فهو عند "شمس" دون شك.

وفعلًا وجدت الكريم على الكومودينو بجوار فراش "شمس".

- هيَّا يا بطل كي أدهن لك.

تقلب على الفراش ببطء ورفع طرف قميصه فعاونته كي لا يزداد ألمه. كان جسد "شمس" مكتسبًا لونًا برونزيًّا لتعرضه للشمس طويلًا عكس جسد د. "شمس" الذي فقد اللون الحيوي وصار البياض هو المتمكن عدا الوجه والذراعين. أمَّا المكان الوحيد الذي لا يزال محتفظًا بلون الجلد الأبيض الشمعي كان المقعدة كأنه يلبس مايوها شاهق البياض يكاد يشع نورًا وهذا ما أثار "سها" أكثر. تعرف جسد "شمس" الكبير ولكن هذه الفتوة لم تلحقها. صحيح أن جسده لا يزال متناسقًا، امتلأ دون شك، عدة كيلوات زائدة لكنها لم تفسده، خاصة وسطه الضامر وصدره العريض وسمانتي ساقيه. فرد الصغير نفسه أكثر على الفراش. وبدأت في المرور برقة وخفة على الظهر. دفن هو رأسه في المخدة وبدأ يشعر باللذة والخدر يسريان في جسده كله.

- هذا يكفي.

قالت وقامت مفزوعة وبرعشة وابتعدت عنه. ركنت إلى مكانها المفضل في البلكون تدخن. التفت إليها يتأملها. كانت منحنية على سور البلكون.

ورغم المسافة التي تفصلهما شعر وكأنه ملتصق بها وفي تماس مع كل نقطة فيها. كأن جسديهما قررا دون إرادة منهما أن يتحدا عندًا وتحديًا وربما عشقًا. من يعرف؟ خطر على باله "البريلود" في المتتابعة الأولى للتشيلو لباخ. يعشق صوت التشيلو، وحاول تعلمها في الكونسيرفاتوار مع دروس البيانو. دخل الفصل وكان ظهر المدرسة له، جالسة على كرسي دون ظهر، وقد انحنت محتضنة الآلة الجميلة بين ساقيها. وبالأنغام التي تصاعدت شعر بخفة تأخذه لسموات علا وحنان يناديه، كوليد ينزع إلى حضن يحتويه، أراد أن يرتمي بدلًا من التشيللو في حضن المدرسة الجميلة ويحتضنها بكل شدة ويبكي. الآن هذا الجسد السهاوي يتداخل فيه جسد المدرسة وآلة التشيللو. تململت "سها" قليلًا في وقفتها فغيرت من الضوء الآتي. أدار رأسه بعيدًا عنها وأغمض عينيه لما شعاع شمس قوي اخترق الغرفة وكأنه موجه إليه. ولدهشته رآها وسط اللون الأحمر الأرجواني الذي خلق للتو أمامه، نفس الوقفة والانحناءات والقوام. فتح عينيه مرة أخرى ونظر في اتجاهها. خطفته انحناءة رقبتها وقد تعرت وبدا الخط الأمثل لعنقها وانزاحت خصلات شعرها على جانب واحد. والكتف التي تفاجئك بحنو تعلن عن حنان داخلي. وبروفيل جانبي للوجه الشارد، طرف الأنف الذي يكاد يبان من الخد وطرف السيجارة الذي يشتعل كل حين كأنه فنار يرشد السفن البعيدة التائهة للمرافئ الدافئة. نعم أنا هنا يا "سها". تائه أنا يا "سها" ومنارتي هيام تضن عليّ بالنور. مثلما الإسكندرية كلها، وهم تام، تاريخ طويل عريق ثم لا شيء. كل ما كان من الممكن أن يكون آثارًا محته الرطوبة. فكر أن السيدة العظمى للإسكندرية والربة الأساسية ليست "إيزيس" ولا حتى "هيباثيا"، بل ربة الرطوبة، "هيوميدتي سيدتي". ههه

ضحك "هيوميدتي يا سيدتي"، وجودك هو اللاوجود الحقيقي للأشياء. وداعًا. أغمض عينيه ثم فتحها سريعًا ليعيد النظر إليها. يبين حد الفستان النحر وجزءًا ضئيلًا جدًّا من منبت الثدي المنهرس تحت الساعد المسنود على سور البلكون. نادى عليها: "سها". فخرج صوته كهمس مبحوح. أول مرة يناديها باسمها مجردًا بتلك الأريحية، طبيعية جدًّا، مجرد "سها" حقيقة عارية دون أن تتغطى بحضرتك مخبأة. بدأت الشمس خلفها في توديع النهار، فأشعلت السماء بدرجات النار كلها كمهرجان لعيد وثني معربد.

- "سها".

وصل إليها صوته مغلفًا بأمواج من الاشتياق والغربة والدهشة. نداء أشبه بالـSOS الشهير. دون أن تستدير كانت تشعر به. بدأت تشعر بالشفقة على "شمس" الكبير. وتقارن بينه وبين الصغير. رحا بشقيها يا "سها". رحا ثقيلة تطحن قلبك، روحك بين فكيها الشمسين. نثار روحها وجسدها يتسرب من بين فكي الرحا وتنداح وتتناثر وتتباعد من بينهما. هل سيكون لك حياة بعد هذه الليلة يا "سها" يا بنت "ثريا" التي لم تعرفيها.

في هذه اللحظة تشعر أنها أقرب لـ"شمس" الكبير؛ لأنها لم تعد تحبه كما من قبل وكأنها صارت أكثر حكمة في التعامل معه وأكثر احتمالًا له. كما لو كان يأسُها من حبه أراحها، وأن القدر يعوضها الآن عنه بطريقة مبهمة.

دخلت من البلكون وجلست بجواره على السرير. وضعت يدها الصغيرة برقة على جبينه كأنها تتحسس حرارته ثم بدأت تمسد شعره المنسدل.

وتمسك خصلة خصلة حتى نهايتها فلتفها ببطء حتى تنفلت من بين أصابعها. كانت تهدهده كطفل تاه عن أهله.

قال:

- كنت أود صغيرًا أن أعزف على التشيللو، أو أن أتحول إلى آلة تشيللو تعزف عليها امرأة أحبها.

لم تعلّق وظلت صامتة تكمل ملاطفته وتمنت لو كانت تعرف العزف على البيانو لعزفت له، لكنها لم تتعلم مطلقًا رغم محاولة قمر في تدريبها. كل ما أتقنته أغنية "آه يا زين العابدين".

تنهدت ونظرت إلى "شمس" المضجع أمامها، ساكنًا هادئًا حالمًا، وجاهلًا برحيل "قمر".

بعد رحيلها لم يعد هو نفسه يعزف أو يغني على الإطلاق. كم سنة مرت على رحيلها؟ ثم فكرت كم سنة باقية لـ"شمس" الصغير للتمتع بوجود روحه معه؟

أي شيء يقترب من ذكرى لـ"قمر" يقتل شمس. أكثر من خمس سنوات مرت على الرحيل دون أن يستطيع أن يسترد نفسه.

منذ عام تقريبًا كان يجلس بجوارها في هذا البيت نفسه. علّقت بشيء لا تتذكره. ربما دندنت بأغنية "وطني حبيبي" سمعتها في الراديو قبل مجيئه. استأذن فجأة ودخل الحمام. بعد برهة استشعرت بحزن يعتريها،

فتسحبت حتى باب الحمام ووضعت أذنها عليه وتصنتت فسمعت نحيبًا مكتومًـا. دقـت برقة على الباب متوجسة وخائفة. لم تسـمع أي اسـتجابة فتحـت البـاب بهـدوء ووجدتـه يجلس على حافة البانيو منكفئًا على ذاته وجسده كله يهتز بعنف. لا يسـتطيع أن يبـدي ألمه وفقدانه لـ"قمر" أمام أي أحد حتى ولو كانت زوجته "سها". كان يحـب أن يبكيهـا كي يستعيد بعضًا من رباطة جأشه. البكاء على فقد الأحبة يريح. جلست بجـواره واحتضـنته قائلة:

- أنا أيضًا ما زال الحزن يقتلني على فراقها، لكن..

رفع رأسه محمر العينين:

- أعرف يا "سها"، لكن لم ترحل روحك معها.

آلمها ما قال. هي فقط أقدر على التعايش عنه. انفطر قلبها كـما انفطـر قلبـه. اسـتعادت نفسها من الحزن سريعًا، ربما لأجل "قمر" نفسها. قلما يظهر "شمس" حزنه للغـير وقـد غلـب على أمره. يذهب يوميًّا إلى عمله كأن الدنيا ما زالـت تـدور في فلكهـا وكـأن الشـمس لا تـزال تشرق والناس ما زالت تعيش.

فكرت كيف تخرجهما من هذا الموقف. ماذا لو فتحت الدش البـارد مـرة واحدة وأغرقته فيفيق، فينـزع عنـه الآلام حتـى ولـو مؤقتًـا، سـيقول عليهـا مستهترة ولا تهتم بآلامه. فليكن. لكنها لم تسـتطع أن تنفـذ مـا فكـرت فيـه. فقط جلست ساكنة جواره على حافة البـانيو حتـى هـدأ بعـد نوبـة البكـاء.

وسحبته حتى السرير فارتمى عليه وراح في النوم بعد أن اعتذر لها. وظلت تمسد شعره حتى راح تمامًا في النوم.

ها هو الآخر ملق أمامها أيضًا على السرير نفسه و هي تمسده كما مسدت الآخر.

شعر "شمس" الصغير بشرودها فأمسك بيدها وبدأ في تقبيلها. راق له برودتها بسبب وقوفها في البلكون لفترة. فقبلها عدة مرات متتالية قبلات خفيفة سريعة كأنه خائف أن تسحب يدها منه، مستمتعًا بليونة بشرتها ونداوتها.

التحما في لحظات فكان العنف الذي بداخله قد آن له أن يتحرر من حب إلى حب آخر. وكانت هي في حاجة لشمس حامية حارة، شمس غير شمس الصقيع الذي وقعت في هواه.

أنفاسهما كأمواج مد وجزر تغسل شواطئ وجهيهما. تحيي فتوة عشق وصهدة غرام، ثم تميته لتحييه مرة أخرى.

هدأ البحر ولم تهدأ الأنواء. رقد "شمس" على ظهره فتتابعت الصور في مخيلته. "هيام" وهي تخرج من الكلية، "هيام" وهي تدخل المدرج، "هيام" وهي تناقش ثورة "الخوميني". لِم لَم تكن "هيام" امرأة حقيقية، يشتهيها بحق؟ لم تضع روحه حاجزًا أمام جسده معها، فيتحول إلى عنف داخلي يطمح لدمار العالم كله. "هيام" بالنسبة إليه امرأة من هواء بارد،

ريح عاتية ونسيم خجول، لكن هواء هواء، كجن الحكايات الشعبية الذي يمسك بـأطراف الأصابع في الأيام الزمهرير وقت النوم.

أمَّا "سها" فهي أول امرأة حقيقية لجسده، امرأة رجل سـيكونه بعـد عشريـن عامًـا. بهاؤه كان أقوى مما يتصور، وجسده أتون صهرا فيه وبه.

العنف الذي يكتنزه بلا روية عنف حقيقي، بدا مع "سها" عنفًا جسديًّا فائرًا، علقـه معها بخيط حريري من دهشة وأمل. أما عنفه مع "هيام" عنف داخلي مستتر كإعصـار مجنون عاتٍ في قمقم لا يستطيع منه الفكاك، فلا سبيل له إلا تدمير نفسـه أو القمقـم الذي يكنه. تكاد تقتل الرجل داخله، فلا اقتراب ولا أحلام شبقية ولا جسد.

التفت مرة أخرى إلى "سها"، ومد رأسه ليقبلها هذه المرة بحنـان وامتنـان. غـير أنـه وهو يرجع رأسه ببطء فكَّر أن هذا إثم كبير سيعاقبه الرب عليه بحرمانـه مـن "هيـام" إلى الأبد. وبدأ اليقين الذي كان يمتلكه أنهما – "شمس" و"هيام" - لـبعض مهـما طالـت الأيام قد تفتت بهذا العشق الجديد الذي لا يعرف أين يضعه في خريطة حياته.

سيحل عقله هذه المعضلة بمحوها. الجُنحـة الأولى لا تسـجل في سـجل الجنـاة. أول مغامرة جنسية حقيقية في حياته. وفعلًا هي أول قبلة، أول راحـة، أول جسـد حقيقـي. أول ولـوج في شـفاه تـؤدي إلى جنـة أو إلى جحـيم. لا مطهِّـر سـوانا نحـن الاثنـين الآن. والتعقُّل نقيصة في مثل هذا الموقف.

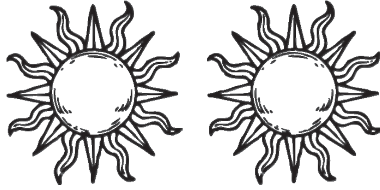
لم تعد "سها" تعرف إن كانت متعتها الآنية مع "شمس" الصغير نتيجة لأنها تخبر الكبير خبرة كبيرة. فكل حركة وهمسة مفهومة وإن كان شدتها أكبر كثيراً، كأن بذور الماضي المطروحة بينهما قد أزهرت ولكن في شجرة أخرى في أرض أخرى في بلد آخر، أم أن جِدَّة الصغير عالم مفعم في حد ذاته.

هل ترى نفسها عاهرة؟ عاهرة تنام مع الشخص نفسه!

تتذكر قصة حكتها "قمر" لها لـ"ستيفان زفايج" عن ملك مل من زوجته التي تحبه حبًّا فوق الحدود فلما تركها وأهملها خطرت لها فكرة التنكر كجارية مختلفة كل يوم كي تنعم مرة أخرى بالوجود معه والغرق في بحر ملذاته.



14



بدأ "شمس" الصغير يعتاد على بيت الكبير رويدًا رويدًا، شاعرًا بمتعة منعشة كمن يخاطر في مغامرة كبيرة. اشترط عليه د. "شمس" شرطين فقط:

- اعمل ما بدا لك؛ فالبيت بيتك لكن لا تمشية على سور البلكون مهما كانت المغريات. ثانيًا: لا تعبث بالأدراج أو الأوراق. دولابي بما فيه حق لك.

فقال "شمس":

- لكنك أكثر سمنة مني وملابسك ستكون واسعة عليَّ.

أومأ "شمس" الكبير برأسه موافقًا بحسرة. واساه الصغير قائلًا:

- لا تحزن. ربما امتلأ الوجه قليلًا لكن في جسمك لا بروز في أجزاء ولا نتوءات معوجة.

يتعجب "شمس" الكبير من جنونه صغيرًا وحبه للتمشية على سور البلكون. نظر إلى الكبير كأنه يقول له: "ألا تفعلها أنت الآن؟".

فرد الكبير:

- لا. أفهم نظرتك. لم أعد أفعلها. ولو فكرت قليلًا وأنا في سنك عما ممكن أن يحدث لأهلي لو كنت سقطت من البلكون.

صمت قليلًا ثم قال له:

- تخيَّل مدى حزن ماما وبابا و.. "قمر" لو كانوا فقدوك.

لم تخطر هذه الفكرة قطٌّ على بال شمس الصغير فهمهم:

- لِمَ أجازف بالمشي على سور البلكون؟ لا أعرف.

خطرت على باله فكرة ثم فقدها في لحظتها. حاول جاهدًا أن يتذكرها...

- طيـف "هيـام" الـذي يحرمنـي الغفـوة يلعـب بي ويطـوحنى في مـراجيح العشـق والغرام. نعم أنا لو خفت.... أتلاشى!

لم يقلها بصوت عالٍ فلم يسمعه "شمس" الكبير.

سكت الصغير متأملًا الكبير علَّه يعرف لماذا لم يعد يهوى جنون الأسوار العالية.

دخلت "سها" بصينية حلويات وقالت:

- كيف أناديكما عندما توجدان في مكان واحد؟

قالت ساخرة:

- وجود شمسين في بيت واحد يحرق العالم. فلنقل شمس الغروب والشروق.

نظر الكبير إليها معاتبًا:

- حتى ولو كان هو شروقي ألا ترين أن شمس الغروب تأذن بالنهاية.

بدا الشحوب على وجهها فقال مخففًا الأمر وضاحكًا:

- وإن كان الأمر لا يهمني جدًّا، لنجعلها غروبًا فعلًا.

لكنها اعترضت بشدة لشعور بذنب اقترفته وخوف داخلي اعتراها. اقترحت شمس الأصيل:

- كنت أسمع عمتي تغني أغنية أم كلثوم كثيرًا.

ورغم كره "شمس" الكبير لهذه الأغنية غير أن الأصيل كلمة أعجبته كأنه يغيظ بها "شمس" الصغير. لقط الصغير الأمر فقال:

- كأني أنا غير الأصيل.

تبادلا اقتراحات كثيرة بين مرح وحدة. كادت "سها" أن تقترح أن تسمي "شمس" الصغير "شاانس" كما كانت تناديه "قمر" لكن الكلمة توقفت في حلقها. وبعد فترة قامت لتحضِّر طعام الغذاء وتركتهما معًا.

وكأن الجلسة العاصفة لانتقاء الأسماء جعلتهما في مواجهة مرة أخـرى. وخطـرت للكبـير نظرية التشابك التي فتحت له باب هذا العالم العجيب لشمسـه الصـغير. قـال كأسـتاذ يوجه تلميذه:

- ماذا تعرف عن الكوانتم؟

- لا شيء كثير. وجدت عندك عدة كتب عن هذه النظرية، قرأت بعض الصفحات منهـا كي أفهم. يوجد أشياء صعبة وأخرى ممتعة بل وغير واقعية.

- غير واقعية! وما رأيك فيما نحن فيه؟

- والـلـه عندك حق.

- إن الإلكترون لا يعرف أين يتجه إلا إذا راقبناه. أي إن العين البشرية هي المحـدد، وربما كانت الإرادة البشرية؛ فالإلكترون من الممكن أن يكون موجـودًا في كـل مكـان في أي لحظة. فقط يلتزم بمسار واحد حين نراقبه.

تريَّث قليلًا فلم يعلق الآخر فزاد شارحًا:

- أو ربما نلتزم نحن بما نراه ونقبله دون أن نرى باقي المسارات أو باقي الاحتمالات.

علَّق الصغير بعد قليل:

- هذا أشبه بالصوفية.

على وشك الاعتراض همهم الكبير لكنه صمت مفكرًا: "ستكون هذه وجهة نظر "قمر" دون شك. وهو يتكلم بلسانها أو ربما تتكلم هي بلسانه. ثم ما الفرق لو كنا كلنا الآن في عالم الكوانتم؟".



في الاحتكاكات اليومية، كان التوتر بينهما يشتد ويرخي كمؤشر بورصة مجنونة. أحيانًا يريد "شمس" أن يغيظ "شمس" الكبير ويؤلمه كأنه يعاقبه على السنين التي مرت أو ستمر سدى دون "هيام". لكنه في الوقت ذاته يرأف بحاله ويشعر أن كلامه قاسٍ فيريد أن يعتذر له ويعوضه عن ذلك. خطرت فكرة في ثانية. لم يكن يشرب السجائر ولا يطيق رائحتها لكن رائحة الحشيش كانت تجذبه. في عنبر الطلبة تهل روائحه الجميلة بعد انتصاف الليل حتى صلاة الفجر. كان يجلس هو وعلي زميله في غرفتهما ومن النافذة يستنشقان العبير دون التفكير في المشاركة رغم الإغراءات الكثيرة التي كانت تقدم لهما. الفكرة سهلة. لمَ لا أجرب شكل "شمس" الكبير وهو محشش؟ ربما أصل إلى شيء يخبؤه لا وعيه. صباحًا قابل "شمس" أحد الطلبة المعروفين بحبهم للكيف. ببساطة تعدت قدرة "شمس" نفسه وأذهلته قال له:

- أريد قطعة حشيش.

فمازحه زميله قائلًا:

- سأعطيها لك إن قلت لي كم كرسيًّا في تربة الحشيش؟!

ولما ضحك "شمس" لوضوح جهله، تمادى الآخر الذي كان يرى في "شمس" كائنًا جميلًا لكن حالم وأقرب للميوعة بأدب أولاد الناس الذي لا يعجبه وإن كان يحسدهم عليه. قال:

- إذًا، ما الكرتلة؟

ثم أطلق عدة أسماء مجهولة المعنى تمامًا لـ"شمس"، الذي أخذ الموقف ببساطة ومرح لأنه كان يفكر فيما سيجري مع "شمس" الأصيل. "شمس" كثير القراءة ويباري أخته دودة الكتب إلا أن هذه المصطلحات والكلمات كانت لغة سنسكريتية بالنسبة له. تصور رامبو، بودلير، نرفال، دي لاكروا، جوتيه، بلزاك، هوجو، وكلهم قد جرَّبوا الحشيش في وقتٍ ما، يتحاورون معًا بهذه المصطلحات المضحكة. فرد قائلًا:

- على الأقل استفاد الفرنسيون من حملتهم على مصر بشيء. هه.

لم يفهم زميله ما دار في ذهنه. فأصابه بلم وشعر بغربة مع هذا الكائن المجاوز، فأخرج قطعة حشيش ملفوفة وأعطاها لـ"شمس".

- ما ثمنها؟

أشاح زميله بيده كأنه يلعنه ثم استدار وترك "شمس" بكنزه. أخفى "شمس" القطعة في جيبه وهرول إلى غرفته. وبما أن الشيء بالشيء يذكر أخرج من مكتبته الصغيرة ديوان "أزهار الشر" لـ"بودلير" الذي يحبه أكثر من أي شاعر فرنسي آخر ويحتفظ به دائمًا معه. بدأ في القراءة لكن ذهنه كان منشغلًا بما سيحدث في شقة "شمس" الأصيل.

ذهب إلى "الكبسولة"، هكذا أسمى "شمس" الصغير لنفسه بيت "شمس" الكبير تأثرًا بأن هذا المكان أقرب لابتلاع كبسولة عقار مهلوس. وجد "شمس" الكبير جالسًا باسترخاء يقرأ كتابًا.

- أهلًا بك يا "شمس".

- مساء الخير.

يمد "شمس" الكبير يده بورقة عليها شخبطة منفجرة من عدة خطوط متشابكة، كل منها يوصل إلى عدد كبير من خيوط أخرى. كان يستعملها كفاصل للصفحات موضوعة في كتاب عن ميكانيكا الكم.

يقول له ضاحكًا:

- أرأيت ماذا أهدتني "سها" مرة وهي في غاية الغضب. تقول إن تفكيري مثل هذا الشكل، كثير اللخبطة. كأنه انفجار. وأني أكون في فكرة ما تتفرع لفكرة أخرى تنتج فكرة وفي آخر الأمر لا نصل إلى شيء.

حملق الصغير في الورقة ثم قال ضاحكًا:

- أظنُّ عندها حق. هذا تفكيرنا فعلًا. ولذلك تتوه مني أفكار كثيرة.

- لكنها ترجع لتترابط بشدة أكبر. أليس كذلك؟

أرجع الصغير الورقة للكبير وهو يقول:

- فعلًا. أظنُّ ذلك. كل الأفكار تسند بعضها ببعض.

دعاه الكبير للجلوس بجواره.

- الآن انظر إلى هذا الشكل في الكتاب. انظر إلى شكل الطاقة التي في الذرة. تكاد تكون مشوشة الذهن لا تستطيع أن تقيم أمرها هل أنا مادة أم طاقة. تتحلل وتتمحي ثم تتخلق في اللحظة نفسها تقريبًا. حيرة أم طبيعة؟ لا أحد يعرف. كلما انخبط إلكترونان معًا أخرجا طاقة. ألا ترى أن هذه الصورة شبه مما رسمته لي سها. يا له من شيء مضحك.

فقال الصغير:

- بل هو شيء عجيب.

- هل تناولت غداءك؟

- لا يهم. لا أريد أن آكل الآن.

- إذًا سأحضر لك عصيرًا تشربه.

- لا. عندك بيرة.

- نعم. لكن أنت لا تشرب. أنا أعرف.

- معي شيء جديد.

- مفاجأة؟

- نعم.

ثم تنحنح مرتبكًا كأنه سيكشف لأبيه سرًا يخفيه. ثم قال بسرعة:

- معي حشيش.

التفت إليه الكبير وقد بدت الدهشة عليه. طار بذهنه سريعًا على ذكرياتـه لم يجـد فيها نهائيًّا ميلًا لشرب الحشيش. ثم رجع قائلًا:

- أنت لم أكن أتناول الخمور لكن الآن من حين لآخر أشرب كأسًا أو اثنتين.

ثم ضحك عندما لاحظ أنه استعمل مصطلح "أنت لم أكن" دون أي يتعمد.

قال الصغير:

- نعم أعرف. أنا أيضًا لا أحب التدخين ولم أحشش من قبل.



في نهايـة الليـل كـان الشمسـان قـد سـطلا تمامًـا. وجلسـا متجـاورين عـلى الأرض مستندين على الكنبة الكبيرة في غرفة الجلوس. أمامهما عدة زجاجات بيرة وورق منثـور إثر سجائر اللف.

قام الصغير شبه مترنح قائلًا:

- أنا سأدخل الحمام. أريد أن أتبول.

غاب قليلًا ثم رجع ووقف أمام الكبير الذي قال له:

- أنت جميل جدًّا.

- أنت الأجمل.

- اجلس.

- لا. لا أريد.

ضحك الكبير بهلوسة:

- أنت طويل جدًّا.

أحس الصغير بإهانة ما فقال:

- وأنت مالك؟

- هذا ليس الرد المناسب.

- وما الرد المناسب.

- لا أعرف.

قهقه ثم أكمل:

- ربما "سها" تعرف.

فضحك الآخر:

- أو "هيام".

ثم بدأ الاثنان في وصلة ذم في البنات. وقام الكبير يغني ويرقص مع الصغير. وهما يرددان:

- "طظ في البنات، طظ في البنات".

إنها اللحظات الخاطفة التي يمتزج فيها الزيت بالماء بعد رجة عنيفة، ثم ما يلبث كل عنصر أن يعود لمكانه وطبيعته.

احتضنا بعضهما وقال الكبير:

- رجلان وامرأتان.

- نحن الأجمل والأعظم.

توقف الصغير قائلًا:

- لا. لا لكلمة نحن. لسنا رجلين وامرأتين. رجل واحد. هيييه رجل واحد. نحن رجل واحد. أحد أحد. أنا وأنت نصبح أنا. إذًا أنا الأعظم والأجمل.. والأفطن والأحسن والأمثل والأعبط والأهطل و.....

راحا يرددان أي صفة تخطر على بالهما وزن الأفعل وهم يهلوسان من الضحك حتى سقطا أرضًا بهستريا من الضجيج والصخب ثم انغمسا في نوم عميق متعانقين.



مرت شهور على ليلة حفل يوبيل التخرج. واقتربت الامتحانات النهائية من "شمس" الشروق و"هيام". لم تتحسن علاقتهما بل بدأت تتميز بالتباعد حتى مع كل التعليمات التي يعطيها شمس الكبير له.

وفي وسط دوامة التحضير للامتحانات وقع "شمس" الصغير في دوامة أخرى. تشتت بين أن ما حدث هو ما يبعد "هيام" عنه، وبدت له أن معرفته بـ"شمس" كانت غلطة وإن لم تكن فعلاقته بـ"سها" كارثة. وأن الله قد غيَّر الأقدار حتى تضيع منه "هيام". لكنه في قرارة نفسه شعر بالعكس. ربما بنوع من اليأس، بدأ يرى نوعًا من السلوى له عن الحب الذي بدأ يفقد يقينه في كونه قدرًا له، وفي أن القلم كتب حقًّا الارتباط بـ"هيام". وجد في علاقته بـ"سها" غنى عن هذا الحب غير المروي. كثيرًا ما خرج "شمس" الصغير مع "سها" التي أصبح وجودها في الإسكندرية أكبر، وفكرت جديًا في أن تقيم مؤقتًا في الإسكندرية باقتراب امتحانات "شمس".

كان "شمس" الأصيل قد عرض عليه الانتقال والمعيشة معه لكن الصغير رفض بشدة في أول الأمر. لسببين أولهما الشعور بالذنب لليلة التي ضاجع فيها "سها"، ولم يعرف كيف يعترف لـ"شمس" الكبير، رغم أن علاقته لم تتغير كثيرًا بـ"سها" التي أصبحت كصمام الأمان له في الأيام الصعبة للامتحانات والانخذال أمام "هيام". ولم يعرف إن كانت "سها" قد حكت لـ"شمس" عمَّا دار بينهما أم لا. يخمِّن أن لا، ولكن من يتيقن من الأمر؟ والسبب الثاني هو سهرة الحشيش التي أقسم بعدها أنه لن يشربه مرة أخرى. وقد استيقظ فجرًا بين ألم وغثيان حتى تقيأ بمكانه على الأرض لعدم قدرته على النهوض. وأحدث فوضى تامة. ثم غفا مرة أخرى دون أن

يدري ماذا يفعل. لكن في الصباح وجد نفسه في الفراش. نظيفًا في بيجامة جديدة وقد صحح الكبير كل ما أحدثه من تلف، ونظف المكان ولم يذكر له الأمر مرة أخرى.

في توتره لم يستطع أن يرفض طويلًا الإقامة عند د. "شمس"؛ فهو بعيد عن أسرته وبشكل ما أصبح "شمس" و"سها" أسرته هنا والآن. ففي نهاية الأمر قَبِل بعد تصميم الكبير على إعطائه مفتاح البيت قائلًا: "أنت في بيتك...". وأكمل: "وهذا بالمعنى الحرفي..". أمسك بالمفتاح الذي وضعه له د. "شمس" في سلسلة مفاتيح فضية بها ميدالية على هيئة (ثعبان يلتف حول نفسه ليأكل ذيله).

تأمَّل الصغير الميدالية باندهاش.

- هذا رمز لاتحاد رع مع "أوزوريس". أقدم رمز وُجد للثعبان الذي يأكل نفسه. اسمه "الأوروبوروس".

- عندي ميدالية أخرى هل ممكن أغيرها. فضية أيضًا.

- لك مطلق الحرية. ما شكلها؟

- دائرة فضية فيها فصول السنة الأربعة.

ثم دندن بداية لحن الربيع في مقطوعة "الفصول الأربعة" لـ"فيفالدي".

ثم ضحك:

- تحية لـ"فيفالدي".

- "فيفا فيفالدي".

- فيفا.

- غيرها كما تريد.

لكن "شمس" الصغير تكاسل عـن نقـل المفتـاح للميداليـة الأخـرى؛ فبقـى الثعبـان "الأوروبوروس" في جيبه طوال الوقت. وظل لا يجرؤ أن يذهب في عدم وجـود صـاحب الشقة إلا عندما أجبره د. "شمس" لسفره مدة أسبوع لحضور مؤتمر في فيينا.

ورغم عدم تطفله الطبيعي وعدم حبه للتلصص، فـإن وجـود مفتـاح لشـقة خاصـة لشخص غريب مثل د. "شمس" أثاره بشدة.

دخل "شمس" بتوجس كأنه يـدخل البيـت أول مـرة. تصـور نفسـه "هيركـول بـوارو" المحقق الشهير لـ"أجاثا كريستي" يحقق في جريمة لم تقع بعد.

لكن للحق التزم بالشرطين الأساسيين الذي وعد بهما د. "شمس".

رغم رفض الفكرة في أول الأمر، لكن ما إن انتقل حتى شـعر بالراحـة التامـة كأنه في بيته فعلًا. وانـزاح لقـب الكبسـولة إلى لقـب البيـت. لم يـترك غرفتـه في مبيت الطلبـة كليًّـا، حـافظ عليهـا وعـلى علاقتـه بزميلـه في الغرفـة. وطبعًـا لم يخبر أيًّا من أهله في القاهرة بناءً عـلى طلـب د. "شـمس" ونصـيحة "سـها". في

البيت كل الكتب التي أحبها وكل ما كان يود أن يقرأه وإن كان وقته لا يسمح إلا بتصفح الكتب سريعًا. لكن مجرد هذا التصفح كان يبهجه وينقله إلى خيالات لا نهاية لها. كما وجد كل الأسطوانات التي يريد أن يستمع إليها.

ذات يوم وهما "شمس وشمس" يستمعان لأسطوانة "بريلود" لشوبان. كان الكبير يجلس على الفوتيل، بينما الصغير يجلس على سجادة كبيرة مستندًا على الكنبة.

- أما زلت تذهب إلى أستاذ "فؤاد"؟

- لم أذهب منذ فترة. ربما منذ عام.

- أتتذكر مكان بيته؟

- بالطبع.

كان أستاذ "فؤاد" هو الحل الأمثل لـ"شمس" الذي يعشق الموسيقى الكلاسيك دون أن يجد منبعًا غزيرًا مثله في الإسكندرية بعدما أغلق محل "كولومبيا للأسطوانات" الذي كان في شارع سعد زغلول. لم يمتلك شمس في المبيت في الإسكندرية سوى جهاز كاسيت جديد يعوضه قليلًا عن الاستمتاع الحقيقي بالأسطوانات في بيتهم بالقاهرة.

كان "شمس" قد تعرف على شاب اسمه "عمر" في المبيت يريد أن يبيع ثلاثة شرائط موسيقى لبول موريا؛ لأنه انضم للجماعة الإسلامية التي تحرِّم الاستماع إلى الموسيقى بكل أشكالها. فاشتراها منه "شمس" ولكن

"عمر" دله على رجل رائع كان يسجل له بعض الموسيقى. اسمه الأستاذ "فؤاد" يسكن على الترام في الإبراهيمية وكان يمتلك جهازًا ضخمًا للتسجيل اشتراه في أثناء عمله بليبيا. هو الآن على المعاش وكل هوايته الاستماع إلى الموسيقى. كانت عنده ذخيرة عظيمة منها على شرائط بكر كبيرة سجلها هناك. وما أذهل "شمس" كانت السماعات الستريو التي كان يضعها أول مرة على أذنه والصوت المجسم الرائع خاصة في الأعمال الأوركسترالية. ولما لاحظ الأستاذ "فؤاد" شغف شمس بالموسيقى لم يرضَ أن يتقاضى منه ثمن التسجيل لما يطلبه "شمس" منه. كل ما على "شمس" إحضار شريط للتسجيل وانتقاء المقطوعات الموسيقية من دفتر كبير مرقَّم ليسجلها له. وكما قال له "شريف" ذات مرة. "لا أراك سعيدًا إلا في حالتين، أقصد ثلاث. أولًا، رؤية "هيام"، ثانيًا، وأنت راجع من عند الأستاذ "فؤاد" وفي يدك التسجيل الجديد، أو من مكتبة وكتاب في يدك".

ولما تغرب فترة طالت ورجع إلى الإسكندرية حاول أن يتذكر بيت الرجل كي يشكره كل الشكر على صبره عليه في التسجيلات الكثيرة التي كان يطلبها منه ويرد له الجميل لكنه للأسف تاه لتشابه البيوت في هذا المكان. ولذلك ما إن قال له "شمس" الصغير إنه يتذكر العنوان حتى كان سيطير من السعادة لشعوره بالامتنان لهذا الرجل. وبالفعل ذهبا إلى العنوان حيث دله "شمس" الصغير الذي انتظر خارج العمارة. كان باقة الورد الكبيرة التي اشتراها تسبقه بفرحة لكن للأسف لم يفتح الباب أحد. كأن البيت قد هُجر منذ زمن. ولم يجد أي بواب يسأله عنه. فنزل يجرجر الخيبة وباقة الورد.



وضع "شمس" الصغير أسطوانة في البيك آب مستمتعًا بوحدته في بيت "شمس" الكبير. "كونشيرتو البيانو رقم 21" لموزار، فقد كانت هذه أول أسطوانة تدخل البيت باسمه. كان قد سقط مريضًا بعدما رأى "هيام" ووالدها في الشارع في القاهرة دون أن يستطيع أن يتكلم معها بسبب تظاهرات الطلبة. رجع البيت وقد ارتفعت حرارته بشدة وكأن حمى غريبة الأطوار قد رافقته طوال أربعة أيام. لم يعرف أبوه د. "أمين" سببها. سألته والدته بعطف: "ماذا تريد يا حبيبي؟". وكل ما قاله أريد أن أسمتع إلى الموسيقى كلاسيك. والدته التي تؤمن بالعلاج بالموسيقى رغم جزعها من تلك الحرارة المرتفعة استحسنت الأمر. وكان اختيارها لـ"موزار"، ذاك "الكونشيرتو" لكنها فوجئت أن الأسطوانة قد جرحت بشرخ طويل لم تعرف سببه فما كان منها إلا أن ارتدت ملابسها وفي أقل من ربع ساعة كانت قد اشترت الأسطوانة من متجر أصوات الموسيقى القريب. وقفت أمام فراشه وأرته الأسطوانة وقالت له: "هذه أول أسطوانة باسمك، لتكون مجموعتك الخاصة. أنا اخترت: ثم أشارت بإصبعها الجميل إلى اسم "موزار" ثم إلى رقم "الكونشيرتو". أنت تحبه إليس كذلك؟". أومأ برأسه بشبه ابتسامة. مسحت جبينه بيدها وقالت: "إذًا فلنستمع معًا ونستمتع به". أتت بالبيك آب من الخارج ووضعته على المكتب في حجرته وبدأت الأسطوانة. جلست على الكرسي المواجه لفراشه. وبدأت الموسيقى في الانسياب برقة في روحيهما. خطر على بالها في شبه غيمة مدرستها القديمة ومدرِّس الموسيقى وإيطاليا الملكية. أما هو فترك نفسه للتمتع برؤية أمه الجميلة وبدأت روحه تعود له رويدًا رويدًا، وراحت ملامح "هيام" تتخالط مع ملامح "وادي". يراقب الشعر الأسود الجميل والعينين الحالمتين الكحلاوين والقد الرقيق الدقيق.

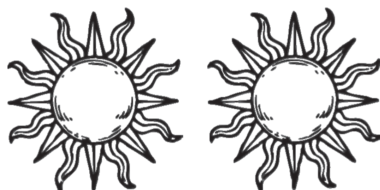
والأظافر المعتنى بها بدقة. هاتان اليدين صناعة خالق يعشق الجمال والساعدين المتروكين على مسندي الكرسي باسترخاء.

استرجع الصغير صورة "هيام" اليوم. وللتو غرق في لج البحر الشهدي لعيونها. نظرة واحدة لعينيها تخلق وتعيد خلق أكوانًا وأكوانًا، تمنح أملًا وللعجب تسلبه في ذات الوقت.

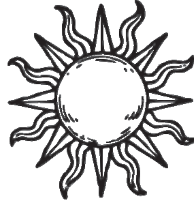
سخر "شمس" من المستقبل. حتى لو كان "شمس" الكبير أضاعها فأنا لن أفعل.

أفاق "شمس" من شروده وبدأ يقنع نفسه بالاسترخاء في المنزل الخاوي والاستمتاع بالموسيقى والوحدة.

استقر الأمر في النهاية ببيات "شمس" في نهاية كل أسبوع في بيت د. "شمس"، كي لا ينقطع عن المبيت طويلًا، ويصل الأمر إلى ولي أمره في القاهرة.



15



أخيرًا!

فتح عينيه وأفاق من نومه مفعمًا بالبهجة والسعادة والسمو.

أخيرًا! يبدأ يومًا جديدًا غير أي يوم سبق في حياته كلها. تنهد بسعادة وعدم تصديق وزفر الكلمة مطولة، تنهيدة تقلع القلب من مكانه وتثبته في الجنـة: أخيييـيرًا. العتـق، الوصول، اللقاء، التلاحم. إنه اليوم الأول لحياة حقيقيـة فيهـا يكتمـل مـع نصـفه الـذي طالما عذبه بالتمنع والدلال والـلـهو.

شد ساعديه قدر استطاعته وتمطـى. ارتفـع جسـده عـن فراشـه، خفـة مـا بعدها خفة ولا شيء يفوقهـا جـمالًا. خفـة الـروح التـي انسـجمت أخـيرًا مـع هرمونية الكون، مع مسارات الكواكب وأفلاك الشموس. شد عضـلات جسـده كلـه ووقـف فـرأى نفسـه في المـرآة. مـا أجملـك يـا جسـدي ومـا أروعـك يـا

روحي. هذا اتحاد مع العالم كله. مع كل الكائنات وحتى مع الجمادات والنجوم والسدم في أبعد سماء. إنها سدرة المنتهى وأنا قاب قوسين أو أدنى.

أخيرًا قالت له "أنا أحبك".

أيّ! ما أجمله من ألم!

أخيرًا تكامل. وما كان ينقصه تداخل فيه فملأ كل فراغات روحه المتعبة والمترعة بالعشق. نال القدرة على الفهم والقوة للإرادة.

قام من فراشه كله عزيمة وفرحة للحياة. صبح على زميله علي في غرفة المبيت. ثم اتجه للحمام كي يستحم ويتوضأ كعادته للصلاة.

أمس كان الانعتاق. شد ما يريد أن يطير سريعًا إلى الكلية كي ينعم بأول يوم بعد قولها أمس أحبك. آه يا "هيام". ما أقساك. كل هذه السنين كي تقوليها.

عاد إلى غرفته وفرش سجادة الصلاة وبدأ في ركعتي الصباح. وطول فترة الصلاة كانت صورتها تخايله مهما حاول أن يزيلها ثم قال لها انضمي معي في الصلاة لرب العالمين حمدًا للحب الذي جمعنا وتفهمتيه أخيرًا. وما إن انضمت للصلاة معه حتى صعدا إلى أعلى عليين.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

قال زميله في الغرفة:

- اللـه اللـه يا "شمس". لم أرك تصلي قطُّ بكل هذا العمق والصفاء.

هز رأسه سعيدًا. نعم. نعم.

في ثوانٍ، ارتدى ملابسه متأنقًا بعدم تأنقه وفي الشارع ورغم حبه للتنزه في شوارع سموحة المشجرة الخاوية كي يأخذ الترام من سيدي جابر إلا أنه ود لو طار إليها. وقد حُرم منها طول الليل.

في انتظار الأتوبيس أمام حديقة الحيوان، اسمتع للحيوانات كلها تهنأه والعصافير تشدو له أغاني الحب والغرام. تذكر أنه لم ينظر إلى نفسه في استعجاله وهرولته. خاف ألا يكون مهندمًا. ثم فكَّر: من أحبته حبيبته لا بدَّ وأن يكون جميلًا لأن السعادة لا تؤتى إلا للجملاء. اللـه نفسه جميل. أليس محبًّا لمخلوقاته كلها؟ لا بدَّ وأن يكون جميلًا. ولا بدَّ أنني جميل الآن. وهي جميلة الجميلات.. بل أحلى.

فكر في الحياة في سنة ألفين وكيف سيكونان. هي وهو. يقولون إن بعد تسع عشرة سنة تقريبًا المواصلات ستكون بالسيارات الطائرة. لو كنت في الألفية الجديدة كنت طرت إليك يا حبيبتي. آه سنة ألفين... عالم ساحر من الجمال والإمكان. صورتي الأولى في العيادة مثل صورة أبي تمامًا في أول يوم له في عيادته. وصورتها هي... ترى ما هو التخصص الذي تريد أن تتخصص فيه؟ لم يسألها نهائيًّا.

صورة لنا وقد هرمنا نحن الاثنين وقد أصبحنا مع الألفية في الأربعين من عمرنا يا للهول. أربعون... وربما واحدة أخرى في الستين...

أه ما أجمل هذا السكون حولي. ما من سيارة مرت حتى الآن.

تردد صوتها في روحه: "أحبك منذ زمن لكنني كنت أخجل في البوح لك. رغم معرفتي بحبك لي. لكنك..", ثم صمتت. ماذا يا ترى كانت ستقول... يكفي أنها قالت أحبك. آه.

أربع سنوات كي تقولها.

ركَّز أكثر ليتذكر التفاصيل الدقيقة لهذا الحدث الفريد. نعم كانا في مدرج التشريح وكانت تقف في الصف الذي يسبق صفي الذي أقف به، شعرت بي أجلس خلفها ولما انتهت المحاضرة وبدأ معظم الطلبة في الخروج من المدرج، حتى صديقتها الأقرب الحارس كانت قد سبقت. استدارت كي تواجهني فوقفت. ابتسمت ابتسامتها الخلابة بالسنة المارقة التي على الجانب الأيسر من فمها.

قالت ما قالته بعد خجل وقد اصطبغت وجنتاها باللون الوردي. ولدهشته لم يركز سوى في نقشة pied-de-poule الأبيض والأسود للتايير الذي جعلها تبدو أكبر من سنها. ثم انتبه أنها أكملت ما تقول في سكشن الكيمياء الحيوية في المبنى الأكاديمي. كانت تقف في طرف قاعة الدرس الصغيرة وتكمل: من زمن طويل. وترتدي بلوزة حمراء وبنطلون جينز داكن الزرقة.

بدأت بعض الدقات تنقر عقله، كرنات جرس كنيسة لقداس جنائزي. وبدأ جسده يستشعر الخطر قبل أن يدرك ما الذي حدث. ثم ظهرت كلمة

الكيمياء الحيوية كبيرة كإعلان عملاق يطفئ وينير. همس لنفسه: قد انتهينا من الكيمياء الحيوية منذ سنتين على الأقل. إذًا.... ما...

لحظتها فقط أدرك عدم معقولية كل هذا. وأن ما حدث حلم. حلم عز على التصديق لكنه صدقه. حلم غلفه بفرحة لم تتلاشَ رغم إدراك كذب الأحلام.

لم ترضَ الفرحة التي أضاءت يومه أن تذهب رغم اكتشاف حقيقة الوهم ورغم قسوة خيبة الأمل. لبدت في قلبه موزعة زهورًا وفراشات وأقواس قزح ببهجة معربدة، كطفل يأبى العودة لبيته بعد نزهة خيالية بين شواطئ وحدائق.

أتى الأوتوبيس أخيرًا، لكنه لم يركبه. لم يعد في حاجة إلى الوصول سريعًا إلى الكلية. نعم ما زال قلبه ينبض نبضات راقصة ولم يقهره حزن العذاب القادم لأن لحظة حب ولو كانت من وهم أرواح الأحلام قابلة لتترع أيامًا وأيامًا من دورات الأرض المضحكة حول الشمس. يا "شمس".

تقدم ببطء تحت الأشجار الكبيرة ظل بعد شمس ظل بعد ظل وهكذا حتى وصل إلى محطة سيدي جابر وركب الترام إلى الكلية، وهو يفكر فيما صرحت به من حب شبحي.

أربع سنوات كي تقولي لي هذا الوهم. أراد أن يسبها ويلعنها لعنة تودي بها إلى الجحيم الأبدي، كما قال "هيثكليف" عندما ماتت "كاثرين"، لكن قلبه وروحه لم يطاوعاه. لا تقل شيئًا عن حلوة العينين. "موحشتي أدركيني. جمرة أنت في القلب تحرق الحشا".

مر اليوم لكن في هذه الليلة رغم سعادته الخادعة حلم حلمًا آخر.

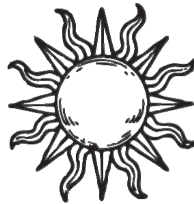
يقف وسط الكلية أمام مدخل الأساتذة لمدرج التشريح أعلى المنحـدر الـذي يـؤدي إلى باب الخروج إلى ميـدان الخرطـوم. السـماء أقـرب للاحمـرار والطلبـة ملهيـون عنـه بأشغالهم. يرتدي كمسوح الرهبان لونه طوبي غافي ويتمنطق بزُنَّار تـرابي اللـون خشـن. كان يرفع يده ويبكي ويبكي ويقول: "تعالوا انظروا تعالوا انظروا ما فعل بي العشـق. آه. لا الحبيب يرحمني فيطردني من رحمتـه فأسـتريح ولا يريـد أن يضـمني إليـه فـأتلاشى. تعالوا تعالوا انظروا ما فعل بي العشق. أسير في طريقي محترقًا بالعشق.. لا أنـا مجنـون ولا عاقل.. تعـالوا انظـروا مـا فعـل العشـق بي. أحيانـًا كإعصـار الريـاح وأحيانًـا كهـدير الفضيانات".

وهي كانت تقف أعلى الشباك الصغير في المدرج، تنظر إليه ساهمة لا يفهـم معنـى نظرتها ولا ابتسامتها العجيبة، أقرب لمـريم العـذراء في الكنـائس، ليسـت مـريم الـثكلى الحانية على ابنها المصلوب، لكن مريم أخرى، مريم نقية نعم لكن بعيـدة بعـد لا حـد له، مريم كأنها لا ترى رغم أني أراها، كيان محسوس بيقين. هي هيام بعيدة قريبة. هي الأنا والأنت. هي الأصل لي والفرع مني.

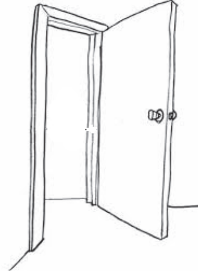
عرف معنى الحلم لتذكره حادثة عندما كانـا في سـنة أولى كليـة بعـد أن رآهـا أول مرة بشهر. قال له عليٌّ زميله الجديد في المبيت: "يوجـد مراجعـة للـدروس في جــامع عــلي بــن أبي طالــب القريــب". لم يكــن ليهــتم بالموضــوع لــولا أنــه ســمع بالصـدفة وهـو يمـر جـوار الحـارس صـديقة هيـام أنهـما - هـي وهيـام

- ستذهبان اليوم للمـرة الأولى لمتابعـة مراجعـة في جـامع عـلي بـن أبي طالـب. في مكـان ملحق بالجامع، صمم الشارح، وقد قدم نفسه على أنه معيـد في الكليـة، عـلى أن تجلـس البنات في الصفوف الأخيرة خلف الصبيان. وكان عصبيًّا ومتعصـبًا ولمـا كانـت واحـدة مـن البنات تسأل سؤالًا، كان من الطبيعي أن يلتفت إليها الطلاب فكان المعيـد يرغـي ويزبـد بمعنى الكلمة حتى يبين رذاذ ريالته على أطراف فمه ناهيًـا الشـباب عـن النظـر للبنـات، وهدد من ينظر لهن سيخسـف بـه الأرض في الكليـة ويخصـم مـن درجاتـه. كـره شـمس المعيد المتخلف وغباءه وأقسم على عدم دخول هذا الجامع للأبـد. ونهـر عـلي عـلى هـذا التخلف الواضح. فما كان مـن عـلي إلا أن أقسـم أن يعوضـه ويغطـي عـلى إثمـه، بحفـل موسيقي في الليلة نفسها يُقام في مكتبة البلدية في محرم بك، التي كان علي يواظـب عـلى حضور الفعاليـات التـي تُعـرض بهـا. ولحظـه، كانـت فرقـة الموسـيقى مـن تركيـا. كانـت الموسيقى تأخذه دون حتى أن يفهم معنـى الكـلام وفي الكتيـب الصـغير الـذي وُزع عـلى الحاضرين وجد ترجمة لمقطوعة ملكت روحه اسمها: "تعال انظـر مـا فعـل بي العشـق". لـ"يونس إمره". وهو ما تردد فيما بعد في حلمه.

نعم ود لو وقف ونادى بأعلى صوته: "تعالَ وانظر ما فعل بي العشق".



16



تحتفل "سها" بانضمام "شمس" الصغير إليهما. وتعمل على إزالـة التـوتر بالعمـل في البيت، رغم وجود الشغَّالة التي تساعدها مرتين أسبوعيًّا. شـمرت وبـدأت تزيـل طبقـة الغبار الرفيع خاصة من أطر الصور التي عادة ما تهملها الشـغالة. صـور العائلـة وهـي واحدة منهم الآن. نعم يا "سها" أنت واحدة ممن أحببتهم كلهم.

يراقب الكبيرُ الصغيرَ يتناول طبق فواكه من "سها". استعاد فكرة أتت له مع رؤيتـه دخول "سها" و"شمس" الصغير معًا في حفلة الدفعة.

هذا التوهج في العينين لم يكن ليخف عليه. ربما أدرك الكبير قـبلهما، المشـاعر التـي تحركت. تلك المشاعر اللذيذة الخبيثة التي تجعلنا نكذب على من نحب، التـي تـدفعنا إلى خيانة من لم نكن نظن مطلقًا أننا لهم خائنون.

شاغل ما وهوس دفين جعل "شـمس" الكبـير يـدفع كـلًا مـن "شـمس" و"سـها" في اتجاه الآخر، على عكس ما كان يخطط. إن الفكرة الأساسـية كانـت محاولـة كسـب ود "هيام" مرة أخرى. أكان ينتقم من "شمس" الصغير؛ لأنه فشل مثله في كسب ودها، وأن ينتقم من "سها" لأنها تقبلته هكذا وبقيت على حبه طوال هذه المدة؟

فكر: "لأدفع هذا بذاك. قد تفنى الدنيا ولا نشور أو طاقة جديدة تتجدد بشكل أخير. أكرهٌ هذا أم حب؟ ربما مشاعر لا وجود لها إلا في العالم الجديد الذي وقـع فيـه ولا وجـود له في دنيا بني آدم".

تمر الأيام إلى أن جاء اليوم الذي فطن فيـه أن خطتـه قربـت أن تـأتي بثمارهـا. رائحـة الجنس التي باتت تملأ البيت، شبق يتخلل كل المنزل، كل قدوره، كل فازاته، نباتاته، زوايـا الغرف، أركان الأدراج، روائح الملابس، حتى الصابون المعطر، بل وحتى نغمات أسـطوانات الـ"أل بي". التوتر الشبقي يهز كل شيء في البيت بذبذبة تكاد لا تبـين. في نظـرات الصـغير، حيث رأى في عينيه الغيظ بابتعاد هيام وشعوره بحضوره الفاتر بالنسبة لها.

ومثل كل الأفلام درجة عشرة عندما يهيئ الزوج للزوجة وعشيقها الجو كي يـراقبهما قرر أن يخبرهما أنه مسافر. لم يستطع بالطبع أن يقول إنه مسافر إلى القاهرة لأنـه قـد صارح "سها" من قبل إنه لا يستطيع أن يذهب للقـاهرة خوفًـا مـن انهيـار هـذا العـالم الموازي؛ فقرر أن ينبئهما بسفره للساحل الشـمالي. واسـتقل سـيارته العتيقـة واتجـه إلى العـالمين وبعـدها عـدة كيلـوات زيـادة. واسـتمتع بالقيـادة في طـرق خاويـة وبمـرأى

شجيرات التين اللانهائية من الطريق حتى شواطئ البحر. اشترى تينًا من بائعي التين المتناثرين على طول الطريق.

طوال طريق الرجوع كان يفكر في جسديهما معًا. جسدها الذي يعرفه جيدًا رغم علاقته المتوترة بها. وجسده الذي اكتشف أنه نسى تفاصيل كثيرة عنه، كيف كان منذ عشرين سنة تقريبًا. والصورة التي يتخيلها لا يوجد بها فراش أو مفارش أو ورق حائط خلفهما. فقط جسدان يتقلبان في فراغ هائل. يسبحان في سماء سوداء، مادة مضادة، ربما في اتجاه ثقب أسود بعيد مستعد تمام الاستعداد لابتلاع أي شيء.

الضوء الرقيق المنساب من الباب الموارب يوحي بشيء مرعب وعجيب رغم توقعه.

من بين الحز الرفيع للباب يرى عناقهما. "عيناه في عينيها شفتاه في شفتيها".. كما تقول أبيات الشعر. فكَّر: "من لفت انتباهه فيهما أول الأمر هي أم هو، من منهما الأهم بالنسبة إليه. من الذي أولاه أول اهتمام؟". جسده الممشوق وجسدها الناعم الطري المنحني برقة. يده وهي تلاطف بشرتها. هي أكثر خبرة وأعتى لكن فوران شبابه وإحباطه وعنفه المستتر والظاهر الآن يغلب على المشهد.

هل تعمدت "سها" أن تترك باب الغرفة مواربًا كي يراهما "شمس"؟

هذه هي المرة الثانية التي يلتحم فيها "شمس" الصغير مع "سها". كانت بعد تحية "هيام" له التي كانت كالسبة قبيل الامتحان. ردت عليه

التحية كأنها تريد أن تطوح به في نار جهنم التي لا تعلم أنـه يقـيم فيهـا فعـلًا منـذ أن أحبها. كيف حالك يا "هيام"؟ فتقذفه بـ"الحمـد اللــه" التـي تعنـي ابتعـد فعـلًا وإلا. دفعه هذا الجنون مع توتر الامتحانات إلى حضن دافئ يحميه من العالم ومن مشـاعره. رغم أنه قد أقسم ألا يكرر لمسه لـ"سها" نهائيًّـا، خوفًـا مـن فقـد "هيـام" بـذنب كهـذا يتذرع بها القدر لحرمانه منها، تلـك التـي تـيقن الآن أنهـا ليسـت لـه، وثانيًـا لشـعوره بخيانة الرجل الذي فتح له بيته، وثالثًا لشعور أعجب أن زوجته هو تخونه.



وقف "شمس" شاردًا متلصصًا عليهما:

أهذا الوسـواس والهسـيس الـذي ينخـر في روح "شـمس" الصـغير، أهـذا الإثـم هـو الشيطان الذي يعد بشجرة المعرفة، شجرة الخلد؟

أما "سها"، فككل أم رؤوم كالدنيا الضاحكة احتضنته قابلـة منـه توبتـه إليهـا مهـما بعُد. فهو هو. وهي هي.

كيف لم أرها من قبل هكذا؟ أعـدم وجـودي أم وجـودي هـو الـذي يغيرهـا. أهـذا الجمال الهش القابل في لحظة واحدة وفي غمضة عين أن يذوب أو يُنثر هباءً هي سها؟

وأنا أنظر إليهما معًا في الفراش خطر على بالي بيت شعر لبودلير من القصائد المدانة في ديوانه "أزهار الشر".

Beauté forte à genoux devant la beauté frêle

"هذا الجمال القوي الممشوق الرائع له، سماره المكتسب الفاتن واتساقه الفريد يركع خانعًا لهذا للجمال الهش سريع التبخر". قوة ذكورية جلية متماسكة أمام حضور أنثوي طيَّار مخاتل. أي فعل خسيس أقوم أنا به، أم تُرى أي فعل خسيس يقومان هما به؟

ثم تأرجحه هذا بين إتقاد ولطف، بين الأخذ بالعنف والطيران بالرقة. أهذا ما ينقصني؟ أكانت تفتعل الوصول لقمة الشهوة معي؟ إن العالم الذي يسبحان به الآن عالم خارج عن مقدار طاقتي عقلي وروحي. هل لو كان الوصل قد تم مع "هيام" كنت سألامس هذه العوالم الخفية. أمامي تمثالان للروعة جسدان جميلان بتفاصيلهما. ودافع خفي يدرأني للاندماج معهما.

هذه الكتلة الواحدة من الجسدين الرائعين ممَّا تتكون؟ من حدب وخفة ورشاقة وظرف وليونة وطراوة، أم من القساوة والخشونة والاستبداد والاستعباد؟ أم هي الغموض نفسه متجليًا كي يربك النفوس الميتة التى تحتويني علَّها تحيى روحًا تنازع الوحدة والخوف والفناء.

أُذِن فجأةً لصلاة المغرب من مأذنة الجامع القريب. أتى صوت الرجل مجروحًا محشرجًا، لم يكن المؤذن المعتاد الذي يمتلك حسًا سماويًّا وموسيقيًّا يلهج القلب. "حمدت الله على الصوت الأجش للرجل الغريب.

لم أكن لأحتمل إيمان الثاني وصوته. هذه هدية من السماء - تلك الفظاظة جعلتني أتمالك نفسي ربما لو كان الثاني كنت دخلت وقتلتهما معًا".

للحظة هُيئ لي أن عين "سها" وقعت عليَّ. رأتني، بعض الغبار بدا في عينيها ثم راق سريعًا. كأني كنت لها في هذه اللحظة حلمًا غير يقيني، شخصًا من أسطورة قديمة.

هو متوتر العضلات بديع الجسد. جسد منتصب يكاد يخترق أكوانًا ليحرقها، لكنه غر يباري بزنبق شبابه وهي ككل أصل يحن له الفرع تسبيه بتمام كيانها.

في جسدها يرى ارتعاشة الرغبة وهياج الشهوة. أوجعها عنف المحب الذي يخترقها. "شمس" الصغير الجاهل بما سيأتي يفور كقدر آن أوان انفجاره.

أتحب "هيام" يا كاذب؟! الحب وهم كالحياة.

من أغواه أن ينسى "هيام"؟ أكان بهذه الحركة الخاطئة، مثل حركة غير مدروسة في لعبة "داما" يتغير بعدها لون كل ما بين الحجرين إلى صالح الخصم. ولكن من الخصم هنا؟ هل هو النضج ضد الفتوة؟ العقل ضد النزق؟ العنف الحق ضد العنف الساذج؟

تابع في مخيلته بين اندهاش ورغبة أن يكون معهما في الفراش، أن يندس بينهما. ليبدأ من جديد هذا الوهج الجسدي. أن ينفتح هذا الجحيم الممتع مرة أخرى. أن يكمل معهما الصعود لقمة النشوة والقوة والاكتمال

والتمتع بجسديهما معًا. تذكَّر "أبو نوَّاس" في كتاب "العقَّاد"، نرجسيًّا محبًّا لنفسه أول شيء، لذا كان قابل أن يتمتع بجسد فتاة أو فتى. قارن هذا بنفسه وتعجَّب كيف وصل به الحال أن يوجد في فراش واحد مع اثنين. هذا الثلاثي الذي لو كان رآه في أضغاث أحلام ما صدق. هذا الثلاثي المتكون منه وصورة منه لكن أكثر شبابًا وجهلًا ومن زوجته. زوجان بقاسم مشترك. يشعر أن هناك شيئًا غير رجولي في هذه العلاقة الثلاثية، كيانًا نوّاسيًّا، شيئًا تخلقه المرأة وتبثه. أهي هيام أم سها؟ أو ربما هو الذي يخدع نفسه ويغرر بها.

مدت "سها" يدها بطول ذراعها داعية إياه بنظرة العينين لا غير. يدها المفرودة بنشوة أثارته وأخرجته من مقام الفرجة إلى مغامرة الالتحام. رغم متعتها بفوران الشاب داخلها فإنها كانت تحب الآخر الذي تعرفه وتخبره جيدًا، أمَّا الشاب فتكتشفه كأرض بكر توعد بالكثير وإن كان وعدًا غير مضمون. أمَّا الكبير فهو الأصل والذكريات برغم أن كثيراً منها متعب ومؤلم لكن ها هي تناديه أو ربما يناديه جسدها كأنها تظن أنه إذا جاء وانضم، فيصبح الشخصان شخصًا واحدًا، وتتركب الصورة بدقة وتنال ما تتمناه من رغبة وفتوة وجمال و.... حزن أيضًا. فللحزن قيمة لا يعلى عليها في علاقتهما.

عندما هم الكبير بالاقتراب رفع "شمس" الصغير رأسه عنها وقد كان يقبل حلمة ثديها بلذه، وبنظرة جانبية رأى الآخر يقترب كرؤى ساكني ألف ليلة وليلة. لم يبدر منه أي رد فعل. لا اعتراض ولا قبول. لكن في عينيه لمح "شمس" الأصيل نظرة ساهمة ليس في مقدوره حل طلاسمها.

يتمازج الثلاثة في مجال غير مرئي، مجال مخادع سرابي الوجـود. أرواح ذابـت في حنـان مُشاق إليه منذ أمد. حنان غير ممنوح من الحياة. حنان مطمئن يــكِن الـروح والجسـد في كهف دافئ مريح، ويقيها من وحدة فارمة.

يعيش كل منهم لحظات كخيالات قادرة على محو الحياة في سكات. لكن المؤكد هو المشاعر التي تتفجر من هذه الكتلة المعجونة بأجسادهم. ترى ما الذي يفكر فيـه كـل واحد فيهم؟ كيف نفسِّر شعور "سها" التي يغلفها من كل اتجاه نفس الـروح المنشـطرة التي تحبها في هيئة شاب عفي نشط مجنون الهوى والشـبق وبـين رجـل ناضـح حـزين ينوء بأثقال حقيقية وأخرى وهمية، والأبشـع أن الاثنـين يحبـان واحـدة أخـرى غيرهـا. و"شمس" الأصيل وهو يحضن زوجته والمـرأة التـي تحبهـا روحـه دون أن يـدري، وبـين رؤيته وإعجابه بنفسه وهو يافع من عشرين عامًـا. الجسـد الفتـي لهـذا الشـاب الـذي يلامس جسده الآن. أمَّا "شمس" الشروق تفوره أحاسيسه مستعيدًا لقـاءه السـابق مـع سها. لم يكن عقله يعمل مثل "شمس" و"سها". كانت المشاعر تفور داخله لكن جسـده بعنفوانه كان له التحكم الأكبر. الصلابة والمتعة والسخونة والغرق في اللاشيء وكـل شيء في الوقت نفسه. جزء منه يعرف أنه يستمتع أي استماع ولكنه أيضًا يدرك أنه يمتـع أي متعة.

قالت:

- انتظر يا "شمس"!

ترى لمن فيهما كانت تقال هذه الجملة؟

كل من "شمس" الغروب و"شمس" الشروق يظن نفسه هو الأصل والأساس والثاني هو الامتداد الخرافي له. واحد امتداد للأمام للمستقبل المبهم والثاني إمداد ماضوي شبه أسطوري.

جسده يربكها. تشعر كأنها ابنة الأول وأم الثاني فيربكها هذا الشعور فتهرب منه بترك نفسها للشرود في تفاصيل تافهة وعادية جدًّا وصبيانية جدًّا. البقعة التي على مفرش المنضدة من نقطة نسكافيه، وأن الفيلم الفلاني كان من السخف بدرجة لم تحتملها وإن البطل كان كبير السن على الدور، أو أن زميلها عمر عندما ركب معها في المصعد آخر مرة كانت ربطة عنقه معوجة على غير عادته. وإن كيس البطاطس الموضوع في مبرد الثلاجة بقى له مدة بسيطة على انتهاء صلاحيته..

لمس "شمس" كتفها برقة أرجعتها للوجود فالتفتت إليه لكن ما هذه الدقات البعيدة المكتومة التي تصلها؟ أهذا الوجيب وهذه الضوضاء هو صوت انكسار قلبها؟ قلبها الذي تحمل يتمًا وترملًا وطلاقًا وعقمًا وحبًّا لا أمل منه. وحبيبًا مزدوجًا كالوقوف بين مرآتين وراء من تحب فتراه كعدد لا متناه عن يمين ويسار. هذه الضربات التي تؤكد الصمت الذي يحوطهم. دم دم دم كأنها طبول معركة حب. دم دم دم.

ألا ينفي كل من الشمسين الآخر بشكل أو بآخر ويتركاني أنا في المتاهة. أنا بينهما. هـذه الشفة التي تقبلني لمن؟ هذا الصدر لمن؟ هذا الأنف لمن؟ هذا العضو لمن فيهما. كأني أفقد ذاكرتي بمجرد ابتداء المقارنة ومحاولة المعرفة.

في النهاية كان خواء تامًّا خواء ممتلئًا بـاللاشيء كـأن الأنـا واللاأنـا قـد اتحـدا فأفنيـا بعضهما ببعض وفي ذات الوقت اكتملا تمامًا. لم تشعر نهائيًّا هكذا مـع أزواجهـا الثلاثـة بما فيهم "شمس".

بالنسبة إلى الصغير كانـت هـذه تجربـة عمـره، وتجربـة عنفـه أيضًـا، عنـف يصـل بالتلاحم إلى قمم لن تُرى فيما بعد.

بالنسبة إلى "شمس" الكبير كانت قبلة "شمس" الصغير جنونًا تامًّا، لو تصور نفسه مع شخص من نفس جنسه لأفرغ كل ما في معدته. لكنه لا ينكر أن هـذه القبلـة كانـت كـما الحياة، كما عصير فاكهة طازجة بعد يوم عطش طويل، حبة يوسفي بـاردة تسـيل بـإغراء على جوانب اللسان والشفاه. فكَّر هل تمتعت سها بهذا أم ماذا، للحـق الولـد جميـل، أنـا كنت جميلًا. "سها" تقول: "وما زلت، وفي الحفلة أكدوا هذا، لكن المرآة لا تكذب".

فيما بعد ستعيد "سها" لـ"شمس" الكبير شطر بيت للمتنبي قرأته مع قمر: "في الخمـر معنى ليس في العنب". كانت تقصد مدحه لكن في داخلها كانت تعتبر أن طزاجـة العنـب أقرب للطبيعة عن الخمر رغم جماله.



بعد هذا المزج الثلاثي بأيام، خلال ارتشاف "شمس" الكبير و"سها" لشاي العصر بعد نوم القيلولة، رجع "شمس" الصغير من الكلية ووقف أمامهما يشخص إليهما لفترة طالت حتى أزعجتهما. كان التوتر يشع من حركات جسده كله. فكر الكبير من المؤكد أن السبب رؤيته لـ"هيام" وصدودها له. مد يده إليه يدعوه للجلوس. فهز الصغير رأسه رافضًا. فقالت "سها" بصوت رقيق:

- ما لك يا "شمس"؟ ما الذي حدث؟

بدا التحدي في عينيه ثم انفجر بلا أدنى مقدمات قائلًا:

- هيًّا هيًّا.. انتهزا الفرصة قبل أن ينتهي كل شيء.

فقال الكبير بهدوء مستشعرًا غضبًا يعلو داخله:

- أي فرصة تقصد؟

تردد الصغير قليلًا ثم قال:

- أنتما تمتصان مني الحياة. تأخذان مني ما تريدان وتتركاني في متاهة. أنا أكرهكما.

بقى ينظر إليهما لبرهة ثم انهار جالسًا على المقعد جوارهما. كرر الكبير ببرود:

- أي فرصة تقصد؟

لم يرفع الصغير رأسه وظل ينظر إلى الأرض. نظر الكبير لـ"سها" التي لم تتحرك وظل تساؤل يطل من عينيها. ثم لاحظ الخطوط المطبوعة على خدها الأيمن إثر نومها، نتيجة لنقشة التطريز التي على المخدة. خطوط حمراء قانية من وردة وفراشة صغيرتين كأنه ختم لإمبراطور تقوضت إمبراطوريته منذ زمن ولم يبقَ منها سوى هذه الطبعة.

كره هذا الطقم الذي كان لـ"قمر" من قبل لأنه أصبح مصدرًا للألم وللوسواس. طلب من سها أن تخفيه ولا تستعمله إلا لو سافر. لمَ استعملته اليوم؟

ثم وكأن هذه الآثار على خد سها نقلت إليه موجة الكره فجأة من الصغير. هب قائلًا بمرارة وغل:

- جمالكما سيغيب إلى الأبد. وأجسادنا سيأكلها الدود الأهم منا كثيرًا. فليحيا الدود.

ثم تركهما دافعًا الباب خلفه.



17



يتسرب الشك إلى قلب "شمس" الصغير ويزعزع فؤاده ويملأ حجراته برمال ناعمة تتساقط ببطء فتثقله وتوقف تدفق دمائه. هل المخطط الذي أقنعه به "شمس" الخريف مخطط صحيح؟ هل ما يريد تطبيقه سينقذ الربيع حقًّا أم هو محاولة لإنقاذ الخريف؟ وهل إنقاذ أيّ منهما سيؤثر على الآخر؟

لكن هل صحيح أن "شمس" لم يرتبط بـ"هيام" فعلًا؟ وخامرته فكرة أنه كذب عليه وأنه قد ارتبط بها وربما انفصلا أو تم بينهما طلاق. ينقبض قلبه بفكرة أن يكون قد قتلها. وتردد في ذهنه قول شمس الخريف لما زاره في المبيت: "إياك أن تكتب في كشكولك أبدًا (أريد أن أقتلها)".

ازداد انقباض قلبه وزهق روحه. "ماذا لو كنت قد قتلتها فعلًا؟". هل للمستحيل قوة على الوجود؟ ارتعب على "هيام" من د. "شمس"، ثم تصور أن

ما مضى قد مضى. أن الخوف أصبح منه هو عليها وليس من خريفه. ثم بدأ يخاف على نفسه، غير قادر على التحديد، في المستقبل أم في الحاضر. ظل الشك يلعب به ويرجرجه ويدحرجه منتهكًا إيَّاه كأنه يبارز نفسه فيعذبها وتعذبه.

وأدرك أن كل ردود فعله خاطئة مع "هيام" ويبدو أنها ستظل كذلك، والبشائر تؤكد النهايات.

آخر مرة أحرجها لما قال لها:

- لِمَ تتزينين بخاتمين واحد فضة والآخر ذهب؟ ليس من الجمال والأناقة؟

احمر وجهها أمام صديقتها الحارس. ولم تعلق.

أيها الغبي لتتزين كما تريد. أي غباء هذا؟ كان يقصد أن أناقتها لا يجب أن تقع في تناقض كهذا.

un faux pas. خطوة خطأ.

لم يعرف لِمَ قال لها هذا، وهو الحريص جدًّا في الكلام مع كل الناس فكيف يقول لها هذا. أين حسه الفني الذي يعرف أن القواعد وضعت كي تكسر.

رن صوت "قمر" في مخيلته: "ماذا عن الجمال؟".

قبل أن ينطق بعد احمرار وجنتيها قال:

- آسف، أنت أنيقة وجميلة بأي شكل وبكل طريقة.

فازداد احمرار وجهها، وعبست الحارس وكشرت عن أنيابها فعلًا، أم ربما تهيأ له. ثم همهم:

- لا لا. عندك حق. الذهب والفضة أجمل ما يكون معًا.

ثم تذكر "قمر". فأضاف باسمًا في بله:

- أنا وأختي مثلًا.

نظرتا إليه في استغراب وبدأتا في الابتسام. فبلهه واضح وبين. وما دخله هو وأخته؟

- هل تقول لأختك الملاحظة نفسها؟

سألته الحارس.

- لا طبعًا. فهي أكثر أناقة فلا تخلط هذا بذاك.

هبل مرة أخرى!

بدا الغضب والضحك في الوقت نفسه على وجه "هيام".

انتبه لما يقول فحاول التوضيح أكثر:

- لا أنا "شمس" وهي "قمر". ونحن نحب بعضنا جدًّا.

النظرات المندهشة نفسها. أربع عيون أنثوية تستهزئ به.

أضاف مرتبكًا:

- أنا ذهب وهي فضة.

ثم ارتبك أكثر فأضاف:

- أو ربما العكس.

هزت الحارس رأسها كأنها تستفهمه أكثر.

أدرك أنه يزيد الطين بلة والموقف زاط. وازداد يقينه أن حياته مع التي يحبها لن تكون سهلة فعشقه لها يجعله يضع ويصيغ منطقًا لا منطق فيه.

أي عته تقف بـه أمامهـا. كأنـك أمـام الملكـين منكـر ونكـير. كيـف تشـبهها بهـذين الملاكين؟ هي أشبه بحملة العرش، أو حارسي أبواب الجنة أو ملائكة التسابيح والغناء.

نظرتها كالصراط المستقيم، تسير عليها يا "شـمس". يمينـك جنـة وشـمالك نـار. أيـن ستقع؟

أصبحت اللعبة تنتهك كل كيانه. فـلا هـي قريبـة ولا هـي بعيـدة. زادت تعلـيمات "شمس" الكبير ونواهيه عندما رأى تخبطه في أفعاله. لا تفعل، لا تقترب زيادة، لا تبتعد زيادة، لا تضحك كثيرًا، لا تعبس، إيَّاك أن.. حذار أن... عِ هذا... قِ ذلك... ولا... ولا...



كان الكتاب "شمسان" لا يبرح مكانه على الكومودينو جوار سرير شمس الكبير. يقرأ منه عدة صفحات ثم ينتقل لكتاب آخر سرعان ما يغيره ما إن ينتهي منه. أمَّا الصغير فرغم ضغوط اقتراب الامتحانات؛ فإنه كان يركن إليه في لحظات الراحة كي يهدئ ذهنه من كتب الدراسة والمراجع العلمية. وللعجب انتهى الاثنان من قراءته في يوم واحد تقريبًا.

يربكهما الكتاب فيتوهان في متاهات التاريخ والفلسفة والتصوف...

ييأس الصغير ويقول:

- والعلم؟ فيرد الكبير:

- لا يوجد به الآن غير الطاقة الرابطة.



كان كل "شمس" منهما في حمامه يستعد لدش الصباح ويفكر في اللحظة نفسها: كيف يعتبر نفسه ويقيمها. روح أم جسد؟ قصد بنفسه أناه الأخرى.

هذا جسد. ويوجد أيضًا جسد آخر. من الممكن أن تؤمن بوجود جسدين، فنحن نغير كل ذراتنا دائمًا، فكل الذرات التي تكوننا تتغير كل عدة سنوات. لكن ما الشيء الآخر؟ الروح؟ هل هي قابلة للانقسام. أنا وهو؟ لكن ألا تنقسم روحك أيضًا بشكل مختلف مع "هيام"؟ وبشكل مختلف آخر مع "قمر"، وربما مع أبيك أو أمك؟

نقطة الماء هذه التي أمسحها من على المرآة. عندما تنضم للبخر أو للبحر أتحتفظ بوحدتها؟

خرج كل واحد منهما ملتحفًا ببشكير عريض على وسطه. تأخر "شمس" الكبير لثوانٍ عن الآخر. لكنهما وقفا أمام أحدهما الآخر، كل يسترجع ما كان يفكر فيه من ثوانٍ. الجسد جسد من؟ الموجات التي عبرت بين أعينهما جعلتهما يدركان أنهما كانا يفكران في الفكرة نفسها في الوقت نفسه. اتجه كل منهما إلى غرفته ليكمل ارتداء الملابس استعدادًا للخروج دون أن ينبسا بكلمة واحدة.

مساءً، عندما كان الكبير في حضن سها، حكى لها عن شعوره وأنه يخمن أن الآخر فكر مثله.

ثم قال لها إن مرآة الحمام تحبه لأنها تريه جسده جميلًا متناسقًا، لكنه لما خرج ورأى جسد الآخر عرف أنها كاذبة. فأين هو من جسده شابًا يافعًا.

مرت برقة على وجه بأصابعها وكثير من الحب يتملكها تجاهه وكأنها قد نسيت تمامًا الصغير.

- أنت أجمل الآن في نظري.

ثم أردفت:

- ولكن أيضًا لا تنسَ أن الطاووس الأجمل هو الذي ينتهي سريعًا لأنه يصبح فريسة سهلة لأعدائه. صحيح يعلن عن نفسه بكل زهو لأنثاه لكن في الوقت نفسه يلفت نظر أعدائه كلهم.

- أرأيت ماذا نفعل حتى ننال إعجابكن. يا فجرة. نتأنق كي نحظى بحب يردينا إلى التهكلة في نهاية الأمر.

- طيب طيب. رح انظر لكرّشك الجميل في المرآة.

ضحك وربت على كرشه الصغير ثم قال بخبث ومرح:

- لكن مرآة الحمام تحبني حقيقة.

فترد وتقول:

- أنتَ نرجس كبير مغرور.

يضمها إليه أكثر ويقول:

- وأنتِ نرجس المتوحشة.

هلت صورة سعاد حسني على ذهنه. من رأى سعاد حقيقة؟



تأثَّرت علاقة "شمس" الصغير بصديقه الوحيد "شريف" بالأحداث العجيبة وظهور "شمس" الكبير، وعلاقته الملتبسة بـ"سها". عليه بالكتمان. شعر "شريف" بهذا التباعد غير المسبوق من "شمس".

فكَّر "شمس": "أخسر الصداقة والحب. أي مصير هذا! أي لعبة جهنمية دخلت فيها يا "شمس"؟".

تباعدت المرات التي يذهب فيها إلى بيت "شريف" لشعورهما بالهوة التي تزداد بينهما. وثقل عليه الوضع في بيت "شمس" الكبير. فكان كثيرًا ما يأخذ كتابًا ويتجه إلى حديقة أنطونيادس القريبة من المبيت ليذاكر هناك. كان يحب أن يجلس تحت تمثال "فينوس" التي تحمل مرآة كبيرة تعكس أشعة الشمس في الصباح تجاه نوافذ القصر الجنوبية.

قابله مرة "شمس" الكبير هناك بعد أن انقطع لفترة عن زيارة البيت. كان يعرف أين يجده بعدما تشاجرا. بادره ليصالحه:

- على فكرة أنت لا تعرف أن جميلتك التي تعلق صورتها على الحائط بجوار مكتبك الإمبراطورة "فوزية" قد أقامت وزوجها الإمبراطور "رضا بهلوي" "شاه إيران" السابق بهذا القصر في الشهور الأولى من الزواج.

رغم المشاعر التي تمور داخله وغيظه وإحباطه من "شمس" الكبير رد عليه مندهشًا:

- حقًّا!

أومأ الكبير مبتسمًا:

- نعم.

ثم أمسك بيده قائلًا:

- ارجع للبيت.

تجنبًا لعيني "شمس"، نظر الصغير لبعيد ناحية القصر كأنـه ينظـر إلى نافـذة تطـل منها الإمبراطورة وهمس:

- أرتاح في المبيت.

ترك يده وسحب الكتاب منه. قلَّب صفحاته دون أن يشاهدها لفترة ثم قال:

- على راحتك. البيت بيتك في أي وقت.

رجع الصغير يتأمل قصر أنطونيادس:

- لم أكن أتخيل أن الإمبراطورة "فوزية" كانت تسكن قريبًا هكذا مني.

فقال "شمس":

- بل هي ما زالت تسكن قريبًا منك.

هز رأسه غير فاهم.

- ألا تعرف أنها تقيم في قصرها في سموحة أيضًا مع ابنها.

- ليس صحيحًا! ألم تهاجر بعد الثورة؟

- لا. تسكن جوارنا. قم سأريك أين تسكن.

يتمشيان في سموحة حتى يصلا إلى السور العالي الذي يحيط بقصر الإمبراطورة. ينبهر أن المرأة الجميلة التي يضع صورتها تسكن جواره. لا نتصور أبدًا أن الجمال الذي نهواه قد يكون قريبًا إلى هذا الحد. كإله يوناني ضل طريقه إلى أرض البشر واختبأ في حديقة قصر بعد زوال حكمه.

قال الصغير مكتئبًا بعد فرح:

- هي أيضًا من عالم آخر زال وانمحا. ألم ترها قطُّ تخرج من القصر؟

- لا. ولا أعرف إن كانت تخرج منه أم لا.

- كل هذا الجمال المحتجب.

- نعم. يا لكل هذا الجمال المحتجب.

- أتعجَّب لوجودي هكذا بجواره دون أن أدرك.

يفكِّر "شمس" الكبير أن هذا هو حاله أيضًا. ثم قال وهو يودِّع الصغير أمام القصر:

- البيت بيتك. لا تنسَ. حتى وإن فشلنا.

هز الصغير رأسه ولم ينطق. لكنه كان قد اتخذ قرارًا لا رجعة فيه.

- لا لـ"شمس". لن أكون عبدًا له. انتهى عصرك يا رع.

18



مرَّت سنة ونصف السنة في هذا العالم الموازي، ومرت خمس سنوات من بدء استعادة الحب بالتجلي الثالث لـ"هيام". وهو كما هو، يُحب، ويُراقب، ويهفو، ويلعب، ويلعب به.

هل صحيح أنه لا خاسر في الحب أم أن كلنا خاسرون حتى وإن أظلَّنا الحب وأورف؟ هه! هذا يذكرني بالنكتة التي تقول: "في مستشفى المجانين يوجد رجل لأنه لم يتزوج حبيبته وآخر في الغرفة المجاورة لأنه تزوج حبيبة الأول"... نرجع للتشابك.

وحيدًا دون "شمس" الغروب، كما كان في أول الأمر. يحيى كما تحيى الناس لكن بجبال من حزن يخفيها في فؤاد تعوَّد على خذل الحبيب. يراها من بعيد، تمر جواره تهديه مرة سلام باسم وتتجاهله مرة كأنه الخواء

كله. فيستسلم للوعة حب يائس وبائس. ولكن أليست الدنيا خدَّاعة مثل كل أنثى تُحَب، فيشرق صباحه يومًا بـ"هيام" تقول له:

- سأذهب إلى القاهرة لأستقبل أبي في المطار.

- وحدك؟

- نعم.

تشجَّع بلا تفكير:

- سأصحبك.

لم تتصور أن يعرض عليها هذا. وهي أيضًا تشجعت وبلا تفكير ردت:

- نعم. وما المانع؟

ربما كانت تمنح نفسها الفرصة الأخيرة، الفرصة التي تجعلها تتقبل جنون حبه. فكرت أنها لو كانت تريد أن تعرفه أكثر عليها أن تراه خارج إطار الكلية ورحلاتها. فرصة لتعرف مشاعرها الحائرة تجاهه. أن تشد الخيط الذي لا يريد أن ينقطع أو ينفتل. وافقت.

- أخي للأسف مسافر. مُر عليَّ صباحًا الساعة السابعة. أمتهور أنت في قيادة السيارات؟

هز رأسه بالنفي. وخطر الموت على باله.

نعم وما المانع؟ ويدور في ذهنه حتى ولو كان الموت في انتظاره ولا يقبل أن يقول في انتظارهما. الموت حبًّا. كثيرًا ما سمع من أمه عن الفيلم الفرنسي "الموت حبًّا" Mourir D'Aimer وتمنى أن يراه في يوم من الأيام.

- إذًا إلى الغد.

ابتسم ولم يستطع أن يرد فقط رآها وهي تبتعد، ولعجبه استدرات قبل أن تخرج مـن البوابة البعيدة للكلية ونظرت له سريعًا ثم اختفت. لن يقول لـ"شمس" الكبير مـا حـدث يكفي أن نصائحه كلها تؤتي بثمار كالعلقم.

قال لها بين يأس ورجاء قبل يومين:

- ما رأيك أن نخرج معًا، لأي مكان تريدينه؟

ظنت أنه سيقترح النادي الذي كانت سترفضه عـلى الفـور، لم تكـن تريـد أن تصبح تحت أعين أناس كثيرين، ليس خوفًا من كـلام النـاس لكـن خوفًـا عـلى مشـاعرهما مـن التذبذب بموجات آتية من خارجهما. هزت رأسها وتركته ورحلت. لكن......

- سأسافر إلى القاهرة لاستقبال أبي في المطار.

تذكر في لحظتها المشهد الذي كان يسحره دائمًا، أبوها ينتظرها في ميـدان الخرطـوم بعموده الروماني أو من الناحية الأخرى من الحديقة بجوار البـئر الأثريـة القديمـة التـي يرمي فيها كل يوم جزءًا من حزنه.

صباحًا، الجو ساحر بكل معنى الكلمة. السحاب يلـون السـماء التركوازيـة بلمسـات خرافية من الأبيض القطني كأمله، إلى جمرات مخاوفهـا ناريـة الاحمـرار. والبحـر يلهـو تحتهما مختالًا لاهيًا. طوال الكورنيش كانت السـيارات تتهـادى في هـذا الوقـت المبكـر ليوم الجمعة. كلاهما بين الحقيقة والخيال لاجتماعهما أخيرًا. لم يكـن يتوقـع أن توافـق أن يوصـــلها إلى القـــاهرة. ســـيشربان الشـــاي في الرســـت هـــاوس. كـــان يحتـــاج إلى

طريق طويل طويل خاوٍ كي يمتلك روحه وهو يشعر أنها تتجسد جانبه في السيارة. لم تكن تخاف منه ولكن من حبه. ما الذي سيقوله وما الذي سوف يفعله هو الأهم.

فكرت أن الساعات التي ستتركه يقود فيها ستتأمله لتعرفه جيدًا. تعرف أنه يعشقها. تعرف عنه المعلومات التي يعرفها من يقترب منه. شيء مستعر وراء تلك النار الدافئة التي تشع من عينيه. صديقتها حذرتها فأكدت توجسها: "يعشقك دون شك. كل الناس يعرفون هذا، حالم ولا يهمه رأي الناس، هذا أيضًا مفروغ منه، صادق وصدقه راق ونبيل ليس تقليدًا، هذا أيضًا بلا شك. لكنْ به شيء غامض والأكثر خطورة نظرة جنون تنفلت أحيانًا من عينيه". سكتت الحارس لبرهة ثم قالت: "أمَّا أعجب شيء هو سماحك له بمصاحبتك للقاهرة. ما الذي تعنيه بهذا؟".

في الرست هاوس جلسا لتناول الشاي.

- هل تعرفين أن أول مرة أفهم معنى الموت كان في بورفؤاد. تعرفين أنت المدرسة وبيتنا. الحرب مرتبطة بحدث مضحك يعني... ليس مضحكًا للغاية.

قطبت وجهها لبرهة للحديث عن الموت، موضوع لم تتوقع أن يتكلم معها عنه لكنها تمالكت نفسها يجب أن يستمر الاختبار بلا تدخل منها. أكمل:

- هل تتذكرين بورفؤاد؟

هزت رأسها وهمست:

- أتذكرها كما الحلم.

- في هزيمة 67 نزح كل أهل بورفؤاد إلى بورسعيد ثـم إلى أي مكـان في مصر ومـنهم حتى من هاجر تمامًا. تسمعين هذه الحكاية من أمـي تضـحكين. عنـدما قـررت الدولـة ترحيل كل أهل بورفؤاد اتفقوا على مواعيد تأتي الأتوبيسات لهم. وكان ميعاد نقلنا بعد يومين. في الغارات كنا ننزل إلى بـدروم الفـيلا التـي اتشـحت كـل نوافـذها بـورق أزرق داكن. يومها كان أبي مريضًا لذلك قررت أمي أن ننزل إلى البدروم مبكـرًا عـن كـل يـوم وقبل أي غارة محتملة. مـا حـدث أن الحكومـة أرسـلت أتوبيسـات قبـل الميعـاد. ولأن البدروم كان معزولًا جيدًا، لم نسمع أي ضوضاء بالخارج ولم نشعر بمن يرحل. دقوا على الباب فلم نسمع. دخلوا إلى البيت لم يجدوا أحدًا. لم نسمع أي شيء. يبدو أن مـرض أبي وإنهاك أمي أدخلنا في شبه غيبوبة من الإرهاق. صباحًا صـعدت أمـي للـدور الأول ثـم للتراس وتعجبت لما وجدت المنطقة كلها مهجورة وجارتنا في الفيلا المقابلـة قـد أغلقـت كل الشبابيك والأبواب. نزلت مرة أخرى لنا كي تساعد أبي في الصعود. ووقفنـا في الـتراس ووجدنا شخصًا يجري من اتجاه سيناء ويلوح لنا دون أن يتكلم كأنه أخرس. بدأ القلـق يتسرب لأبويَّ. حاولت أمي الاتصال بأي من معارفها في بورفؤاد، لم تلقَ أي جواب. حتى كانت الساعة العاشرة صباحًا وجدنا خالي يهرع إلينا منزعجًا شاحبًا: "ويقول هيًّا معـي هيًّا لا وقت نضيعه. ظنناكم موتى". ومن شباك سيارته وجدت الرجل الـذي كـان يهلـل منذ قليل مطروحًا على الأرض، وقد انفصل رأسه عن جسده.

بدا الانزعاج على وجه "هيـام". فبورفـؤاد كانـت ذكـرى خافتـة صـحيح لكـن كلهـا حدائق ملأى بزهور وفراشات ملونة.

هز رأسه مرتبكًا:

- نعم ليست حكاية مضحكة. لست أعرف. أمي تلقيها أفضل... ربما دون القتيل الذي شاهدته أنا.

هزت "هيام" رأسها وبدا عليها عدم الاقتناع، لكنها قالت رأفة به:

- ربما.

صمتا لفترة يتأملان السيارات الرائحة الغادية في صمت حتى أكملا تناول الشاي. ثم قص عليها حكاية مضحكة فعلًا، وقد بدأت روحه تتحرر من انغلاقها انتهازًا لهذه الفرصة التي جاد بها الزمن. ابتسمت ثم ضحكت ثم قهقهت ففرد جناحيه وطار بها لأعلى. خرجا من الرست جذلين.

ناولته مفتاح السيارة وتولى القيادة. قطع روحاهما نصف المسافة تجاه أحدهما الآخر. والسيارة تطير بخفة وفرحة. والموسيقى تنساب منها تزيد من طيرانها. لم يجرؤ أن يلمسها. لم يلمسها على الإطلاق ولا حتى مصافحًا إلا يوم عزاء والدة "سارة". دندنت مع الموسيقى.

- هل تتذكرين يوم أن جئت إلينا في بورفؤاد. كان أول مرة أراك فيها في الكنيسة ونحن نغني مع الكورال. هللت كما نسيم الحياة تكملين لي روحًا ناقصة وتلملمين بعثرتها من العالم بيديك الجميلتين.

يعجبها الكلام لكن لم ترتح له تمامًا. الكلام كبير وأكبر مما تريد. ظلت صامتة. نظر إليها وكرر:

- هل تتذكرين هذا اليوم؟

قالت وهي تمسك خصلة من شعرها طيرها الهواء:

- الحقيقة لا. أيام بورفؤاد غائمة تمامًا في مخيلتي.

- نعم... ربما.

- حتى الغناء لم أستمر فيه.

- خسارة.

أحبت أن تشغله عن هذه الطريقة في التعبير. تريد أن تخبره أكثر لكن ما يقوله لا تعرف كيف ترد عليه. فقط لو قال لها ببساطة: أحبك. كلمة بسيطة لم لا يقولها. دندنت مرة أخرى تلهي نفسها وتلهيه.

بدأت أغنية "لا بوهيم" لـ"شارل أزنافور". ابتسم "شمس" وتذكَّر أنه كان يتعمد أن يغنيها أمام "قمر" مغيراً الكلام إلى (البهيمة البهيمة دا معناه إننا كنا صغنانين). فكانت "قمر" تضحك بشدة وتلومه على هذا التبدل.

يدندن اللحن ويغير كلمات كما يفعل مع "قمر" لتضحك. تصور أنها ستضحك كما تضحك أخته. حكى لـ"هيام" عن هذا الموضوع منهيًا:

- ستحبين "قمر" جدًّا إن شاء الله. وستحبين أمي جدًّا، وأيضًا أبي. وهم طبعًا سيحبونك فورًا.

ضايقها أنه غير كلمات الأغنية ولم تضحك على ما قاله عن أخته. إذا كانت تتضايق من تغييره الكلمات لِمَ كانت تضحك؟

لاحت شبه ابتسامة حرجة على وجهها. ثم قالت:

- لِمَ تغير الكلام؟ هذه أغنية جميلة جدًّا.

- نعم أعرف. ربما لأني عندما أسمعها وحيدًا أصاب باكتئاب لا حد له. حزن على من سأكونه في المستقبل وهو يتذكر كل اللحظات الجميلة التي راحت.

- "خلينا هنا أفضل".

- عندك حق. يكفيني أن هذه اللحظة هي عمري كله.

دندنت للمرة الثالثة هروبًا. وبدأ صوتها يعلو مع "أزنافور".

وبدأ هو أيضًا يغني مع "أزنافور" تجتاحه الكلمات بعنف كأنها تؤكد الوحدة التي تسلب منه كل شيء.

شمس، بكل فرحته لوجودها جواره وبالسيارة التي تطير، التقط نبرة نشاز في جملة موسيقية. أنكر أذنه في أول الأمر. ثم انتبه أكثر فأكثر للنغمات التي تخرج من فم حبيبته. نعم، دون شك تنشز في نغمة ثم في عدة نغمات متفرقة.

قال بهدوء:

- يبدو أنك لم تغنِ منذ زمن.. طويل.

- نعم.

ثم أكملت غناءها ولم تنتبه لما في السؤال من سخافة. انتبه أكثر فأكثر لغنائها وقد بدأ غضب مجهول الأصل يتصاعد ويضيق عليه تنفسه.

- "هيام". لمَ لا تحبينني؟ أنا أعرف الآن إنك لا تحبينني.

- هدئ السرعة من فضلك يا "شمس".

- كانت تعجبك منذ لحظات.

- لا. لم أقل هذا.

- لِمَ تنشزين في اللحن؟

ثم ندم على الفور على كلامه، فقال:

- لا أهمية لهذا. أنا أنشز أيضًا.

- نحن لسنا طلبة في كلية التربية الموسيقية.

- نعم. أعلم. لكن.. ثم... الأغنية... أنت لا تتذكرين أيام بورفؤاد.

أجابت بعند:

- قلت لك لا. لا أتذكر هذه الأيام. ثم أقول لك هدئ السرعة.

- آسف.

لكنه داس أكثر على الدواسة دون وعي منه.

لا يعرف كيف أدرك لحظتها أنها لن تكون له أبدًا مهما خطط هو و"شمس" الزفت. إن المستقبل يقول الماضي انتهى. ليكن فلينته.

- "شمس"! قلل من سرعة السيارة من فضلك.

هي ليست له في الأرض فلتكن له في السماء. ولكن أللسماء أساسًا وجود؟ "شمس" أَفِقْ خفيف الظل، ما الذي يجرى لك؟ "هيام" خائفة. هدئ السرعة. أي شيطان يركبك الآن. اقتلها. تسير على حز الهاوية. أنت وحدك أم هي معك.

سمعها تناديه من بعيد و"شارل أزنافور" ينوح بعديده على شبابه الذي مضى والحب الذي انقضى والأغنية تنتهي بقوله الحياة لم يعد لها معنى.

- "شمس" قف.

- أنا حر. لو أردت أن أفعل أي شيء أفعله.

ووجد نفسه دون إرادة وكأنه يتفرج على فيلم سنيمائي سخيف في لحظة فكاهة أو رعب يلف مقود السيارة نصف لفة لكنه تمالك نفسه سريعًا وحاول السيطرة فورًا على المقود مرة أخرى بيده اليسرى ويمد ساعده الأيمن على طوله بأقصى قوة عنده كي يمنع هيام من الاصطدام بزجاج السيارة. كل القوة والتركيز. لم يعرف كيف أصبح ساعده فولاذيًّا كأنه عمود لا يخضع لعوامل الطبيعة لا يخضع للقصور الذاتي الذي ممكن أن يدفعها بعيدًا. لكن هيهات كانت السيارة تخرج خارج الطريق الأسفلتي وتلف في المنطقة المتربة التي تفصل الطريق الرائح عن الغادي. عاصفة من التراب جعلت الرؤية منعدمة. ولما توقف الدوران نظر إليها بهلع، فوجدها شاحبة جدًّا لكن متمالكة أعصابها.

أبعد ساعده عنها ببطء كأنه ينفصل عن مصدر الحياة. عرف أنه الآن قاتلها إن لم تقتله. انتهى كل شيء كما يقول "أزنافور". قال له "شمس": "لا تكتب أبدًا أريد أن أقتلها". كاد قلبه أن يتوقف. أما هي فظلت في مكانها، كحت عدة مرات متتالية للتراب الذي غلفهما. ظلا في مكانهما حتى انقشع وانزاح التراب ووجدا بعض الناس قد تجمعوا حول السيارة يطمئنون عليهما. "الحمد لله قدَّر ولطف. أنتما بخير. ما الذي حدث؟ هل مر أرنب سريع أمامك؟ هل انزلقت السيارة أم أن الفرامل سابت؟ الحمد

لله كله تمام". السيارة لم يحدث لها شيء. سحابة الغبار هي التي أوحت بوقوع كارثة.

لم يستطع هو الكلام على الإطلاق فقط يهز رأسه نافيًا. هي من تكلمت بصوت هادئ.

- هيَّا نرجع. لا أستطيع أن أذهب إلى أبي الآن. أرجعني للإسكندرية من فضلك يا "شمس".

هز رأسه موافقًا ثم همس بحاضر لم تخرج من شفتيه. أدار السيارة. ظلا صامتين لفترة طويلة. مرا على الرست هاوس مرة أخرى. فقال:

- أتريدين أن تغسلي وجهك؟

- لا شكرًا.

- هيام. أنا آسف أني فقدت السيطرة على السيارة.

- نعم. لا مشكلة. كلنا ممكن أن نفقد السيطرة، كما من الممكن أن تكون بقعة زيت في الشارع.

تتجاهل الكلمة التي قالها قبل الحادث مباشرة. تريد أن ترجع فورًا لبيتها. كيف تمالكت أعصابها؟ كيف لم تنفجر فيه؟ لا يعرف.

قال وعيناه تشرق بالدموع الحقيقية:

- لقد خفت عليك جدًّا.

رمشت وارتعشت أهدابها وقالت:

- أعرف يا "شمس".. أرجوك أغلق الموسيقى.

مد يده فصمتت الموسيقى. ود لو أكمل مد يده كي يحتضنها أسفًا لكنه لم يجرؤ. كان يعرف أنه لو لمسها لانفجرت فيه وهو يستحق كامل الاستحقاق ما كانت ستقول له.

("شمس" من الممكن أن يكون رائعًا، لكن معاشرته ستكون جحيمًا. سيفتح لك باب السيارة كل مرة في الدخول، سيقبِّلك في كل لقاء، سيحمل لك شنط سفرك ويأتيك بباقات ورد جميلة في كل مناسبة، لكن....).

تذكرت "هيام" كلام صديقتها الحارس وهو يجلس جوارها في السيارة. هو رقيق وجميل ومجنون. وشاب تفرح به البنات. تفرح فقط به لكن أن ترتبط به، هذا قول آخر..

في هذا اليوم عرفت "هيام" أن علاقتها بـ"شمس" لن تدوم، عرفت مقدار حبه لها وأخافها وأرعبها قصة زلزال الحب الذي يجتاحه. عرفت أن حبه دوامة خطرة قاتلة تحت الماء البارد الذي يطفو على سطح محيطه.

صحيح أيضًا أنه قد فرد ذراعه على طولها كي يسندها حتى يحميها. ذراع من فولاذ ربما آلمتها أكثر من ارتجاج السيارة ودورانها والتراب الذي غلفها. من أين كان لذراعه هذه القوة إلا من الحب. لحظتها انتابتها كل المشاعر المتضاربة، انبهارها بحبه لها بل وإعجابها بحافة الرعب التي بزغت فجأة من عنفوانه، متذكرة هدوءه. ربما أيضًا لامت نفسها لأنها تتلاعب به: ولكن أليس هذا هو الحب؟ ألا يكون الاختبار والاختيار دائمًا

على الحافة وعلى شفا حفرة من جهنم؟ ألا يكون العشق هو الهاوية الحطمة. النار الجهنم التي تأتي على الأخضر واليابس، على النفوس كلها. البرزخ بين الحياة والموت، الاستهتار التام بالفرق بينهما.

عيناه العسليتان كان لهما بريق شيطاني مخيف. بريق من حب منفلت وانعكاسات كره لمن يفكر في أن يقيد حركته. قبلت اعتذاره ساعتها فورًا، بخليط من مشاعر الشفقة عليه والخوف الشديد منه. كانت تعرف أنه هلع عندما شعر أنه كان قادرًا على إيذائها بهذا الشكل. وأيضًا هوسه العجيب بها. كانت تريد أن ترجع إلى الإسكندرية بأقصى سرعة. أن تختفي من أمامه. ليس أن يختفي هو من أمامها لكن هي التي أرادت أن تختفي. أن تغلق على نفسها باب غرفتها وربما لو كانت هناك قوقعة كبيرة لانغلقت فيها. وقد قالت له هذا فعلًا بعدها بيومين، لما عاد إليها بعض الهدوء لكن مع تصميم أن هذه علاقة خطيرة قد تأخذها من عالم ساكن بسيط لعالم ممسوس مثله. عالم تقرأ عنه على صفحات الجريمة في الجرائد أو في أفلام العشق المرضي.

تعاملت كما نصحتها غريزتها وصديقتها الحارس بحيطة معه. طبعًا شعر بهذا على التو. كان يشعر بأي شقفة تغيير يعتلي أي شخص أمامه فما بال حاله معها. مثلت عليه التماسك قدر الإمكان. وبعد فترة بدأ حبه الصافي لها يهدهدها مرة أخرى وكادت أن تنزلق في نسيان ما حدث. لكن في محاضرة تركت له مقعدًا جوارها كي يجلس. بعد أن انتهت المحاضرة قرر الخروج لدقائق وقد ناداه "شريف". أخذت كشكوله وكانت تحب أن تعرف ماذا يكتب من أبيات شعر ورسومات تشبهها وتشبه باقي الدفعة.

بعد عدة أبيات شعر متناثرة وجدت جملة جديدة بخط واضح أنه كتبها بتأنٍ كامل وجمال مريب.. "أريد أن أقتلها". طبعًا هي لم تفكر نهائيًّا من الذي يريد أن يقتلها.. لأنها كانت تعرف. فحبه لها قاتلها إن لم يكن قريبًا فبعد وقت وإن طال. ورغم تعطل حكمها بمظاهر ولهه بها، فإنها أدركت أن هذا قائم.. يريد أن يقتلها. هذا الخجول الرقيق الجميل يحمل جرثومة مجنونة داخله. لم يحدث أن لمسها قط سوى في حادثة السيارة. لكن تأثير وجوده الجسدي أصبح قويًّا جدًّا عليها. بل تأثير عينيه بنظراته يغلفها كأنه يعزلها عمَّا حولها. لما اعترفت له قبل قليل أنه وقت الحادثة كانت تريد أن ترجع سريعًا لبيتها وقوقعتها. ظل ينظر إليها وقال أي لؤلؤة كانت ستبزغ. تنظر إليه غير مصدقة كأنه في عالم آخر، يعيش تحت الماء أو في كوكب آخر أو ربما عالم موازٍ.

ما أرعبها أن هذا العالم يحتويها أيضًا. لكن لأنها امرأة فهي تعرف كيف تتعامل مع الرجل في أمور مثل هذه. ربما لو أحبته صدقًا لتزلزل كيانها وعملت كل الغلطات التي تفسد بها العلاقة لكنها أنقذت نفسها من الوقوع في براثن العلاقة. لذلك فطنت للجزء الذي من الممكن أن تتعامل معه به. كانت تتعامل مع أخلاقه قبل حبه. رمت له: "إني أثق بك". كانت تكذب عليه لكنها كانت تثق في أخلاقه وليس في حبه. انسحبت تحت شعار اقتراب الامتحانات و"لا أستطيع أن أركِّز في مشاعري".

وقبل نهاية الامتحانات الشفوي قالت له:

- أريد أن أستشيرك في شيء. الحب في نهاية الأمر ينتهي بالزواج. وأنت تعرف هذا تمامًا.

ونبرت الكلمات بشدة وأكملت:

- حبك لي سينتهي بالعادية إذا تزوجنا. الزواج قاتل للحب. وأنت متيقن من هذا.

هم أن يعترض، وقد أنهكته الامتحانات والحب والأمل المتأرجح بعد كارثـة السـيارة وجملة القتل التي لم يعرف كيف يبررها. فعلًا لو طال لقتلها. ها هي تقتله قتـل عزيـز مقتدر. تقول له هذا بين لجنتين شفويتين في الـترم الأخـير. يـا لقسـوتكِ أيتهـا الجميلـة! ليتكِ قتلته بدلًا من هذا التصريح. إذًا لا مفر.

صرحت له:

- تقدم لي عريسان. واحد في وزارة الثقافة والآخر مهندس.

ورغم صدمته أكمل الكلام بسهولة وسأل بصدق وحب:

- وأنت لمن تميلين؟

- للمهندس.

- كم عمره؟

- ثلاثون.

ابتعد عنها خطوة للوراء وقـال بـين لـوم ودهشـة وكـأن هـذا فقـط مـا يؤلمـه ومـا يستنكره:

- أنت إذًا تحبين كبار السن.

هو صغير ورومانسي ومركب وهي طبيعية وبسيطة وأكثر نضجًا. هي ثور وهو ميزان. هي عناد وواقعية وهو جنون وحرية.

كلما تذكَّر جملته الأخيرة على مر السنين يضحك بمرارة. هو أصبح أكبر من كبار السن. كان عنده اثنان وعشرون عامًا وينظر للثلاثين على كونها نهاية مطاف العشرينيات وبل والعمر كله. ضحك. أنا الآن كهل متجهٌ بأريحية إلى أراذل العمر.



يتخيل نفسه لو كتب روايته والحارس تقرأها لأن "هيام" لا تقرأ الروايات الساذجة الرومانسية، وتمسك بروايته في يدها وتقول لها: "هل تتصورين يا "هيام" أن "شمس" ما زال يحبك رغم مرور كل هذه السنين؟ هل تتصورين أنه كتب رواية يحاول بها إصلاح ما تم ومحاولًا أن يتراجع عن كل الأخطاء التي تسببت في بعدك عنه. أي رواية!".



19



الفوضى تحكم العالم.

عالمه الذي انهار يرجع ساخرًا شامتًا محيرًا. عندما وضع فنجان القهوة جانبًا لمح تكوينات الأشكال وتهويماتها. جبل بركاني مثل "أتنا" اليوناني في انتظار لحظة التلفظ بحمم قادرة على محو كل بومبي مغرورة. قرار من يتخلص من آلاف السنين من هدوء كاذب.



بعد يوم السيارة، ويجب أن أقتلها، ومتقدم لي عريسان، قابلها بعد آخر امتحان في كل الدراسة. اتجه إليها ولم يكن قد رآها لفترة طويلة. كان الامتحان التحريري لمادة الباطنة. اقترب منها وقد بدا التوتر على

وجهها، وازداد برؤيته توترًا، ابتسم غصبًا عنه لكنها لم ترد الابتسامة بل هزت رأسها بتحية. سألها صادقًا للاطمئنان على أدائها في الامتحانات:

- ما الأخبار؟

- الحمد لله يا "شمس".

خرجت كلمة شمس من فمها كأنها سبَّة. كأنها تقول ألا تتركني الآن والأفضل إلى الأبد. استدار خائبًا وهم يتمتم:

- ربنا يوفقك في النتيجة.

ولم يسمعها تجيب. لم يرها بعد ذلك لمدة عشرين عامًا. رأى فقط صور الخطوبة التي تمت حتى قبل انتهاء آخر الامتحانات الشفهية. يراجع نفسه في حفلة اليوبيل. فكَّر هل كان شعوره في ذلك الصباح البعيد صحيحًا؟ هل قالت له "شمس" كسبَّة فعلًا؟ هل كان حدسًا حقيقيًّا أم وهمًّا كي يريحنا من العذاب. هل كانت تختبره بقولها تقدم لي عريسان؟



تذكَّر رواية عن رجل عاشق لزوجته. تُوفيت، فحزن حزنًا عميقًا، فما كان من الجارة التي كانت الصديقة الحميمة لها إلا أن قالت رأفة به: "اخرج وارجع بعد ساعتين لن تجد أي أثر لها في الشقة". وفعلًا عاد بعد ساعتين فقط، كانت الجارة قد أخلت كل شيء يخص الزوجة، فكان البيت

كأنه بيت عازب مرة أخرى، ولا أثر واحد للزوجة. هـل هـذا أراح الـزوج المكلـوم أم زاد شقاءه؟



تقول "سها" بلا كلام: "إنني مثل "قمر".. مثل طنط "وادي". نعرف أن الحـزن آتٍ آتٍ، والألم يهيئ نفسه للإنسان حتى ولو حاول محاربته. نترك له أنفسنا. ليس لعدم الرغبـة في الصراع، فصراعنا أقوى وأكثر أصالة مع الحياة بكل تفاصيلها. ففي الحزن نستطيع أن نـرى من ترتدي ماذا، والأشجار أشكالها كذا وأن المطبخ ينقصة الملـح أو الزيـت. وأن الغرفـة في حاجة إلى تنظيف... الحياة كل الحياة. المرأة هي مرآة الحياة تتحدى كـل مـنهما الأخـرى. أمَّا أنتم يا رجـال، لسـتم سـوى كـائن يعـيش في الحيـاة، انعكاسًـا للمـرآة المـرأة. أنـتم يـا "شمس" والشمس الآخر ود. أمين، وحتى أدولفو وسـاهر يجيـئكم الألم بغتـة، رغـم أنكـم تعرفون اسمه، كإعصار لم تتحضروا له رغم تباشيره التي دائمًا تلوح من بعيد. تـرى معظـم الأرامل لا يتزوجن بعد مـوت أزواجهـن لأنهـن يتفـرغن للحيـاة، أمَّـا الرجـال فمعظمهـم عندما تموت زوجاتهم لا يعرفون كيف يتعاملون مع الحياة ككل، يعملون ولكـن لا عمـل يلهيهم، يفنون ولكن لا فن يشفيهم، ويتعبدون ولكن لا ديـن يـبرأهم. آدم لم يسـتطع أن يحتمل الحياة وحيدًا... لو خُلقت حواء قبل آدم لم يكن الـلـه خالقه".

لم يخلـق هـذا النظـام الكـوني للسـعادة، وربمـا أيضًـا لـيس للشـقاء، فقـط للعاديـة، للتفاهات اليومية، دنيا وهي فعلًا دنيا. دانية متدنية. لذا لـو صـادف السـعادة للحظـات مس الجنة ولو أصابه شقاء مس الهاوية.

لم يرد "شمس" لكنه معاندًا سألها: "وماذا عن الألم في ذاك العالم؟".

وتساءل: "إذًا لماذا قتل الحزن "قمر"؟".



الحزن لن يدوم؛ فالحياة أكبر منه وحتى أكبر من نفسـها. وقـف كـل مـن "شـمس" وهيام على شاطئ البحر متعانقين. يضمها إليه كأنه يخشى أن يكون واهمًا في كل هـذه السعادة التي يحياها.

- ما أجمل البحر اليوم يا حبيبي.

- وما أجمل غروب الشمس وأنت معي كل يوم. مـر أكـثر مـن عشريـن عامًـا عـلى حبنا. أنا لا أصدق يا "شمس" أنك تحبني كل هذا الحب.

- وأنا كنت متيقنًا أنك مستقبلي وعمري كله يا "هيـام" منـذ أن رأيتـك أول يـوم في المدرسة.

- حبيبي.

- آه لو تعلمين ماذا فعلت حتى تهديك الحياة لي.

تبتسم وتقبله برقة:

- ماذا؟

- هدمت أقدارًا ومحوت أقلامًا وقتلت أناسًا وأحييت أناسًا. وها أنت معي يا حبيبتي طول العمر.

- حبيبي.

وعلى الشاطئ المقابل كان "شمس" الآخر تحتضنه "سها" قائلة:

- حبيبي أنت. ما أجملك!

فيرد:

- وما أعقلك وأبهاكِ يا "سها" الليل والنهار.

لو تظن أن هذه ستكون النهاية سأخرج لك لساني ثم أبصق على كل ما كان.

أو لا تزعل على الإطلاق. فليكن هذا ما سيكون. ربما حدث فعلًا أو في سبيله إلى الحدوث.



خطر لـ"شمس" الكبير فكرة أفزعته ماذا لو ظهر شيخ مشيب في الستينيات من عمره يقول له أنا أنت. أي رعب هذا! أكان سيتقبله كما يطلب من

شمس الصغير التقبل التام. لو ظهر له هذا الشيخ لانقبض قلبه ومات. وتصور نفسه عجوزاً منحنيًا متهالكًا. قال ربما اكتسبت بعض الوزن لكني في أشدي كما تقول العرب. سن الأربعين تقريبًا أشدي. هو يستطيع أن يفهم بعض التهكم البسيط الذي يلاحظه في بعض الأحيان من شمس الصغير وأيضا التعجُّب والإنكار. لا! لو ظهر له هذا الشيخ لاستجمع قواه وقتله. هذا أكثر إفزاعًا من شبح أبي هاملت لما ظهر له. حتى ولو كان سيقول له الحقيقة كلها.



في انتظار وصول "سها" من القاهرة يجلس في ملل يقلب في مجلات موضوعة على رف في المنضدة في غرفة المعيشة. يلمح المجلة التي تركتها له "سها" وبها مقال عن "هيمنجواي". فتح المقال الذي انتحر كاتبه بعده مباشرة وكان عنوانه "صباح الخير سيد هيمنجواي"، ثم مر بعينه سريعًا على سطورها.

وضع المجلة سريعًا ورفع رأسه إلى سقف الغرفة فلاحظ شقًا طوليًّا رفيعًا جدًّا. فكَّر يا ترى هل هذا الشق في البياض فقط أم في الخرسانة؟ تمنى أن تكون "قمر" جالسة في جواره الآن كي يحتضنها وتحتضنه ينظران إلى الشق الرقيق رقة خط شبه مموج سُطِر بالخطأ على حائط أبيض أو كبداية سكتش ترسمه قمر لـ"شمس".



كلنا كيانات محفوظة في أُطر من فراغ. فلا هي تفصلنا تمام الفصل ولا تصلنا تمام الوصل. تشابكات روحية هائمة حتى ولو بعدت ملايين السنين الضوئية. تلف وتدور بلا نهاية في دوامات الحب والوجد.



الصراع الآن بين إرادتي الشمسين. كقناتين تشوش إحداهما على الأخرى، فتظهر مثلًا سعاد حسني مع أودري هيبورن تسيران في طريق واحد مبتسمتان للحظة ثم يعود كل متفرج إلى فيلمه. تُرى إرادة مَن ستنتصر؟



تتتابع في رأسه كل هذه الكائنات الرهيفة رهافة ارتباط الروح بالجسد بتاريخها الذي كان والذي سيكون؛ حكمت هانم جدته وحلمي باشا جده، الشيخ علي جده. أمه وادي وأبوه أمين، قمر الباهرة روحه التى حلقت بضحكتها الرائعة لأعلى نقطة في السماء وحبيبها الجميل الخائن "نبيل" ووالدته فتاة الجبال الألمانية السيدة "أوتا"، "سها" زوجته الوحيدة المسكينة معه وبه. أناس رآهم ربما مرة واحدة أو مرتين مثل "هايكو" و"ساهر"... حتى الكائنات الوهمية في تاريخ عائلته مسيو "أدولفو" الحائر و"ناريمان كاظم" بحكايتها الأسطورية... ثم هيام هيام هيام في تجلياتها المتكررة. كل هؤلاء يحضونك يا "شمس" على المغيب. أو لربما على الشروق من جديد. يا "شمس" الأصيل...



يتنقل "شمس" الصغير ببساطة بين المدن. أمَّا الكبير فخوفه من السفر للقاهرة يمحيه. يتيقن من هذا. لكن أليس كل ما يحدث عكس ما هو واقعي. إذًا ما المانع أن يجرب.



أخذ "شمس" الكبير المسدس الذي اشتراه مؤخرًا. وفي السيارة، قهقه ضاحكًا عندما وجد الكتاب ملقى بإهمال على المقعد الخلفي تمامًا مثلما رآه أول مرة في مؤتمر لندن. شمسان شمسان. واتجه إلى طريق الإسكندرية القاهرة الصحراوي، ووضع في سيارته موسيقى "باساكاليا" لـ"باخ". ما أنسب أن تكون هذه مجرد نزهة. "باساكاليا". يفكر في "هيمنجواي" و"هوكينج" و"هيام الناظر" و"هو تشي منه" ويضحك كثيرًا على الأخير.. آه من حرف لحرف الهاء. ويغير من حرف الهاء اللعين فيفكر في الشين فلا يأتي على مخيلته إلا "شوبنهاور" فيلسوف التشاؤم الأعظم، يبتسم ويقول مناسب جدًّا. وقهقه كثيرًا كثيرًا عندما تذكَّر آخر كلمات قالها الفيلسوف قبل موته مباشرة: "قد وصل النيل القاهرة".

تمت

7 يونيو 2017

صدر من سلسلة كتب مختلفة:

	العنوان	المؤلف	البلد
1.	اسمي نور	إلسا أوسوريو	الأرجنتين
2.	كلي لك	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
3.	أرامل الخميس	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
4.	جريمة في بوينس آيرس	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
5.	نقطة الصفر	ناريج ماليان	أرمينيا
6.	مشروع روزي	جرايم سيمسيون	أستراليا
7.	قصص بسيطة: رواية من ألمانيا الشرقية	إنجو شولتزة	ألمانيا
8.	لأننا في مكان آخر	رشا الخيَّاط	ألمانيا
9.	حب كالأفلام	فيكتوريا فان تيم	أمريكا
10.	أفلام في قصص	مجموعة مؤلفين	أمريكا
11.	الثلاثة	سارة لوتز	إنجلترا
12.	الموت والبطريق	أندريه كيركوف	أوكرانيا
13.	تاتي	كريستين دوير هيكي	أيرلندا
14.	جريمة الساحر	أرني ثورارينسون	أيسلندا
15.	شركة الحب المحدودة	أندريه سنار ماجنسون	أيسلندا
16.	الحب لم يعد مناسبًا	ميلا فينتوريني	إيطاليا
17.	حذارٍ من جوعي	لوتشانا كاستيلينا	إيطاليا
18.	سارق الجثث	باتريسيا ميلو	البرازيل
19.	بيتنا في إزمير	تاتيانا سالم ليفي	البرازيل
20.	مقبرة البيانو	جوزيه لويس بايشوتو	البرتغال
21.	نيزك في جالفايش	جوزيه لويس بايشوتو	البرتغال
22.	الأثر المقدس	إيسا دي كيروش	البرتغال
23.	أن تأتي متأخرًا	ديميتري فيرهولست	بلجيكا
24.	صانع الملائكة	شتيفان بريجش	بلجيكا
25.	مخاوفي السبعة	سلافيدين أفيدتش	البوسنة
26.	جامع الكتب	جوستابو فابيرون باترياو	بيرو
27.	أبسنت	أيفر تونش	تركيا
28.	أحلام محطمة	بيولانت سينوكاك	تركيا
29.	ارحل قبل أن أنهار	تونا كيرميتشي	تركيا
30.	امرأة صديقي	تونا كيرميتشي	تركيا
31.	توباز	هاكان جنيد	تركيا
32.	ثلاثة على الطريق	تونا كيرميتشي	تركيا
33.	جريمة في البوسفور	أسمهان أيكول	تركيا
34.	جريمة في إسطنبول	أسمهان أيكول	تركيا
35.	خطايا الأبرياء	برهان سونميز	تركيا

.36	ديستينا	ماين كيركانات	تركيا
.37	الشيطان امرأة	هاندي ألتايلي	تركيا
.38	الصلوات تبقى واحدة	تونا كيرميتشي	تركيا
.39	لون الغواية	هاندي ألتايلي	تركيا
.40	مينتا	سولماز كاموران	تركيا
.41	نساء إسطنبول	مجموعة قصصية	تركيا
.42	سحر	صلاح الدين دميرتاش	تركيا
.43	جرائم براج	ميلوس أوربان	التشيك
.44	معسكرات الشيطان	يواقيم توبول	التشيك
.45	حدث في كراكوف	بيترا هولوفا	التشيك
.46	حُفِظت القضية	باتريك أورشانديك	التشيك
.47	ديتوكس	سوزانا برابتسوفا	التشيك
.48	سرادق طائر البطريق	إميل هاكل	التشيك
.49	كافكا	فرانز كافكا	التشيك
.50	المواطن فانيك	فاتسلاف هافل	التشيك
.51	احذري يا آنا	ماريك سينديلكا	التشيك
.52	المبعدون	أوجنين سباهيتش	الجبل الأسود
.53	العقل المدبر	دافيد أوجنر	جواتيمالا
.54	رسائل سبتمبر	بيروني رحيم	زيمبابوي
.55	امرأة للبيع	أورشولا كوفاليك	سلوفاكيا
.56	خلف طاحونة الجبل	مجموعة قصصية	سلوفاكيا
.57	الحياة هنا	ميرال قريشي	سويسرا
.58	ربيع البربر	يوناس لوشر	سويسرا
.59	كرافت	يوناس لوشر	سويسرا
.60	بكين.. بكين	شيو تسي تشين	الصين
.61	بنات الصين	يي مِاي	الصين
.62	الربع الأخير من القمر	تشيه زيه جيان	الصين
.63	رحلة الانتقام	جوو دا شين	الصين
.64	سبع ليالٍ في حدائق الورد	يي مِاي	الصين
.65	النجمة الحمراء	يركسي هولمانبيك	الصين
.66	رقصة الكاهنة	جين رن شون	الصين
.67	الألفية في بلجراد	فلاديمير بيستالو	الصرب
.68	المغفلون	إريك نويوف	فرنسا
.69	المجاعة البيضاء	آكي أوليكانين	فنلندا
.70	التطهير	صوفي أوكسانين	فنلندا
.71	النسيان	إيكتور آباد	كولومبيا
.72	صلوات ليلية	سانتياجو جامبوا	كولومبيا
.73	صانع الزجاج	إيرميس لافازوناوفسكي	مقدونيا

.74	القنَّاص	بلايز ماينفسكي	مقدونيا
.75	الواحد والعشرون	توميسلاف عثمانلي	مقدونيا
.76	قصص خيالية	أليكساندر بروبوكيف	مقدونيا
.77	د. مينجوس.. الأخ الأكبر	خيسوس ريكاردو فيلكس	المكسيك
.78	إلينج	إنجفار أمبيورنسون	النرويج
.79	صيف بارد جدًّا	روي ياكوبسن	النرويج
.80	سميته كرافتة	ميلينا ميشيكو فلاشر	النمسا
.81	حرية حزينة	فريدريكا جيزفاينر	النمسا
.82	دكّان الساري	روبا باجوا	الهند
.83	جوي سبيدبوت	تومي فيرينيجا	هولندا
.84	العشاء	هيرمان كوخ	هولندا
.85	المنزل الصيفي	هيرمان كوخ	هولندا
.86	تلك الأسماء	تومي فيرينيجا	هولندا
.87	عقيدة الأغنياء	ماريا تاسلر	كرواتيا

صدر من كتب عامَّة:

.88	الرجل والمرأة أيهما الجنس الأضعف؟	جيرالد هوتر	ألمانيا
.89	قانون التسامح	هوبرتس هوفمان	ألمانيا
.90	هاربون من الموت	فولفجانج باور	ألمانيا
.91	المختطفات: شهادات من فتيات بوكو حرام	فولفجانج باور	ألمانيا
.92	الشاي: ثقافات وطقوس وحكايات	كريستوف بيترز	ألمانيا
.93	الهاشميون وحلم العرب	روبرت ماكنمارا	أمريكا
.94	الهندي الأحمر الأيسلندي	جون جنار	أيسلندا
.95	القرصان الأيسلندي	جون جنار	أيسلندا
.96	مختصر تاريخ الصين	مايكل ديلون	الصين
.97	زيارة لمكتبات العالم: تاريخ مكتبات بيع الكتب	خورخي كاريون	إسبانيا
.98	يوميات صحفية إيطالية	جوفانا لوكاتيلي	إيطاليا
.99	الذكاء الأخضر	ستيفانو مانكوسو	إيطاليا
.100	خيالات الشرق	إيسا دي كيروش	البرتغال
.101	ضد الانتخابات: دفاعًا عن الديمقراطية	دافيد فان ريبروك	بلجيكا
.102	أوروبيانا	باتريك أورشادنيك	التشيك
.103	قوة المستضعفين	فاتسلاف هافل	التشيك
.104	النشوة المادية	جي. إم. لو كلوزيو	فرنسا
.105	لن أمنحكم كراهيتي	أنطوان لاريس	فرنسا
.106	جابو	أوسكار بانتوخا	كولومبيا
.107	الجري	ثور جوتاس	النرويج

.108 عقول مريضة	دوي درايسما	هولندا
.109 اللعب مع الكبار	يوريس لونديك	هولندا

يصدر قريبًا: من سلسلة كتب مختلفة:

.110 شرخ في الحائط	كلاوديا بينييرو	الأرجنتين
.111 علاقات دولية	إلييت أليكا	ألبانيا
.112 الأسئلة	أنطونيو زيرزينسكي	البرازيل
.113 شمس الحرية	آنا ماريا ماتشادو	البرازيل
.114 في حب بابلو وكراهية إسكوبار	فيرجينا فالاجيو	أسبانيا
.115 اليوم الرابع	سارة لوتز	إنجلترا
.116 ردًا على خطاب من هيلجا	بيرجيسفين بيرجيسون	أيسلندا
.117 الفخ	ليليا سيجورثاردوتير	أيسلندا
.118 الحب في زمن الاحتباس الحراري	جوزيف بانيك	التشيك
.119 ذكرى سوداء	ألبير كانيجوز	تركيا
.120 المزيد	هاكان جونداي	تركيا
.121 بال خالٍ	أولجا سلافينكوفا	روسيا
.122 يوغوسلافيا وطني	جوران فوجنوفيتش	سلوفينيا
.123 جدتي وبريتني سبيرز	لونا الموصلي	سويسرا
.124 دجاج مشوي	صوفي هيناف	فرنسا
.125 الأخ الأكبر	ماهر جوفين	فرنسا
.126 تكوين الملح	ماجيلا بودوين	فنزويلا
.127 لم يبقَ أحد	أندريس فورجاتش	المجر
.128 يوم هنا ويوم هناك	أجيولار كامين	المكسيك
.129 روميو جولييت في البلقان	ديان ترايكوسكي	مقدونيا
.130 فرق توقيت	ألموت تينا شميت	النمسا
.131 لا سوبيربا	إليا ليونارد	هولندا
.132 أفكار سيئة	لويد ميرخام	ويلز

#كتب_مختلفة

"شمس الدين" يعيش حياته في أَسْر دوائر ثلاث: "قمر".. أخته توأم روحه، و"هيام".. حبه الضائع عبر السنين، و"سها".. الزوجة الظل الحي. يسافر "شمس" لحضور مؤتمر علمي بالخارج وعند عودته إلى الإسكندرية، تلقي به الأقدار أمام حدث فريد يحيِّر عقله. فيدخل عالمًا تشرق به شمسان ، ويعود إلى ذكرياته عن تاريخ عائلته وماضيه. لكن، هل هذا الحدث نعمة أم نقمة؟ وهل هناك أمل في استعادة الأحبة الذين رحلوا؟
هل تمكنه الفرصة المجنونة من استرجاع حبًا لايزال يشعل روحه ألمًا ونارًا؟
إنها رواية عن رهافة الوجود الانساني وخيبات المحبين وتشتت أرواحهم. هي محاولة للسلوان. فهل يجد السلوان أم سينتهي به الأمر إلى الجنون والعدم؟

عمرو عافية



روائي وقصصي يعيش ويعمل طبيبًا بالأسكندرية. له من الأعمال المنشورة الآتي: المجموعة القصصية "الماء الحرام" 1991، و"حد الغواية" 2004، و"قصة حب أكتوبرية" عام 2006، و"رقصات الرؤى المشوشة" 2007، و"عربيد عشق آباد" 2009، و"حرية سليمان" 2014، و"منزل بلا أساطير" 2018.

العربي للنشر والتوزيع
60 شارع القصر العيني 11451 - القاهرة
ت: 27954529 - 27921943 فاكس: 27947566
www.alarabipublishing.com.eg



9 789773 194741 >



WWW.alarabipublishing.com.eg
تصميم الغلاف: جورج لطيف